

# علاج المنطقة المقنم

سليم عبد الحميد



الرواق للنشر والتوزيع

# على عتبة المقام

سهير عبد الحميد

الرواق للنشر والتوزيع

على عتبة المقام

سهير عبد الحميد

الطبعة الأولى ---- يناير 2022

الغلاف: كريم آدم

الإخراج الفني: ضياء فريد

المراجعة اللغوية: إسلام منتصر

رقم الإيداع: 2021/29760

الترقيم الدولي: 7-129-824-977-978

## تقديم

يكتسب هذا الكتاب أهمية خاصة من وجوه عديدة، منها ما يتصل بمسألة الاستمرارية في الشخصية المصرية، فيما يتعلق بالعادات والتقاليد وألوان الفنون ومفردات اللغة، ومنها ما يتعلق بالدين والحالة الروحانية، وأن المصريين شعب متدين ومتصوف، وصفهم هيرودوت بأنهم: «من أشد أنواع البشر تدينًا»، وقد ظلوا كذلك في اعتناقهم للمسيحية والإسلام. وكذلك فإن كتابنا هذا يلقي أضواء مهمة وكاشفة عما يُسمَّى بـ«التصوف الشعبي» الذي يتمثل في تقديس القديسين والإيمان بكرامات الأولياء، حتى وإن اختلطت بها الأساطير وما يبتدعه الأعداء من خرافات عن شيوخ أقيمت لهم أضرحة وقباب قد لا يرقد تحتها شيوخ، وهو ما اختارته المؤلفة الأستاذة سهير عبد الحميد عنوانًا للكتاب.

ولذلك فإن من محاسن هذا العمل أن صاحبه استهواها موضوع القديسين والأولياء والتصوف والمتصوفة، فراحت تطوف بنا حول حياة النسك والعبادة منذ عهد المصريين القدماء، والتي تشبه التصوف في جانب منها، وكتبت عن إخناتون وترانيمه، وهو ما يعده المؤرخون مثلًا للفكر الصوفي القديم، وعن موسى n الذي تربى في كنف الوجدانية في مصر، ثم انتقلت بنا إلى الحديث عن الرهبانية في مصر المسيحية وأديرتها، وكيف صدرت الرهبانية إلى العالم. كما طوفت بنا في عالم القديسين والقديسات الذين يقابلون ظاهرة الأولياء عند المسلمين في معجزاتهم وكراماتهم وموالدهم.. وكيف أن السيدة العذراء كان يتشفع بها المؤمنون جميعًا من مسيحيين ومسلمين.. وأن القديسين في المسيحية ليس لهم قباب وأضرحة كما هو الحال عند الأولياء المسلمين، وإن كانت لهم كنائس تُشيد بأسمائهم، يُحتفظ فيها ببعض رفاتهم؛ للتبرُّك بها. إلى جانب أيقونات مقدسة تحفظ صورهم، والتي اعتبرت أن أرواح القديسين تسكن فيها، تلك الأيقونات التي تحولت إلى فن شعبي نشأ على ضفاف النيل.

وقد ألقى الكتاب أضواء مهمة على سيرة القديس مرقس الرسول الذي بشر بالمسيحية على أرض مصر وأسس الكنيسة الأرثوذكسية، وكان له دوره في إنشاء المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، وروت المؤلفة كيف استشهد وذهب جسده إلى روما؛ حيث أقيمت له كاتدرائية كبيرة في البندقية، بينما ظل رأسه بالإسكندرية، وكيف أعاده عمرو بن العاص من سارق صندوقه، وسلمه للبابا بنيامين، وتبرع بمبلغ لترميم كنيسته.. إلى أن استطاع البابا كيرلس السادس إعادة رفاته إلى مصر عام ١٩٦٨ م لتستقر في كاتدرائيته الحالية في احتفال مهيب.

وفي سلاسة وبساطة لا تخل بالحقائق التاريخية، حدثتنا المؤلفة عن التصوف الفكري الإسلامي ونشأته، ولم تشأ أن تغرقنا في تعريفاته المختلفة ومراحلها، بدءًا من رحلة الزهد والتكشف ووحدة الهدف - وهو التصوف الحقيقي - ثم مرحلة التصوف الفلسفي، وصولًا إلى مرحلة الطرق والسجاجيد والدروشة والتصوف الشكلي.. وهذه المرحلة الأخيرة هي التي لقيت اهتمامًا خاصًا؛ لاتفاقها مع موضوع هذا الكتاب. وقد لخصت المؤلفة كيف ظهر التصوف في مصر منذ رحبت بأهل بيت النبوة، عقب أحداث الفتنة الكبرى، حين احتضنت مصر هؤلاء (الأشراف المبجلين) إلى أن استقر في اليقين الشعبي أنهم أولياء يُتشعق بهم وبأضرحتهم، حتى صارت موالدهم السنوية بمثابة (الحج الأصغر) الذي يشفي قلوب الحائرين.

لقد خصصت المؤلفة فصلًا للحديث عن بداية التصوف في مصر، بدأتها بالحديث عن دور ذي النون المصري صاحب مقولة: «إن الصوفية قوم آثروا الله تعالى على كل شيء، فأثرهم على كل شيء»، والذي يعده بعض الكتاب أول صوفي مصري في القرن الثالث الهجري، ذلك القرن الذي نشأت فيه الطرق الصوفية، التي تابعت مسيرتها وتنظيماتها؛ حيث صارت لكل طريقة أوراها وأحزابها وأعلامها وزيتها الخاص، حتى القرن السادس الهجري، فيما أصبح يُسمّى بـ«التصوف العملي أو الطريقي» الذي بلغ أوج انتشاره في القرن السابع الهجري؛ بوصفه قرن التصوف، والذي ظهر فيه الشيوخ: القنائي، والأقصري، والقباري، والشاطبي، والجنيد، وابن الفارض، وغيرهم.

وقد حدثتنا المؤلفة عن التحولات المهمة في تاريخ التصوف في مصر عندما قام صلاح الدين الأيوبي بإنشاء بيوت للمتصوفة «الخانقاوات»؛ لمواجهة المد الشيعي في مصر بالتصوف السني، والتي انتشرت في العصرين المملوكي والعثماني؛ حيث صارت «الخانقاوات» بيوتاً للدراويش وخزعاتهم، ثم حلت محلها «التكايا» في العصر العثماني، والتي صارت ملجأً للعثمانيين النازحين إلى مصر والشام، والذين جعلوها مأوى لـ«تنبلة السلطان».

وقد رصدت الكاتبة الظروف والمتغيرات التي أفرزت ما يُسمّى بـ«التصوف الشعبي» الذي سار في بداية الأمر جنباً إلى جنب مع التصوف الفكري أو النظري؛ فاتبعت دائرة الأولياء وأصحاب الكرامات إلى جانب أقطاب العلم، وانتهى الحال إلى تغيرات سلبية اختلط فيها الحابل بالنابل في فترات الضعف السياسي، ليظهر شيوخ المشي على الماء وترويض الأفاعي؛ مما كان بداية استغلال الصوفية للدين، واستغلال السلاطين للصوفية، بعدما قدّموا لها من دعم ورعاية؛ فتراجع الفكر الصوفي كونه فلسفة عبّرت عن روح الإسلام، وتوراي جيل المتصوفة العظماء، ليحل محلهم جيل من الدراويش مدعي الكرامات.. وبنظرة نقدية واضحة رأت المؤلفة أن الاعتقاد في الأولياء الصالحين لم يكن طقساً دينياً بقدر ما كان عادة اجتماعية لها جذورها في مصر القديمة، استمرت في ظل المسيحية ثم الإسلام.

واختصت المؤلفة ظاهرة (الموالد) التي تقام للقديسين والأولياء بفصول من هذا الكتاب، فعرضت لانتشارها خصوصاً بعد أن شجعها الفاطميون عندما أرادوا الترويج للمذهب الشيعي، فابتدعوا الاحتفال بالأعياد والمواسم؛ كاحتفال بأول العام الهجري، ويوم عاشوراء، وخروج قافلة الحج، والمولد النبوي، وغيرها من المناسبات الدينية، كما جرى الاحتفال ببعض الأعياد القبطية؛ كعيد الغطاس، وعيد النيروز، وخميس العهد. وظل الأمر على هذا النحو حتى تغيرت الصورة تماماً في العصر الأيوبي الذي حرص حكامه على التخلص من آثار المد الشيعي إلى جانب انشغالهم بصد الحملات الصليبية؛ حيث توارت الموالد واختفت زمناً، ثم عادت سيرتها الأولى، وبدأ الناس يتوسلون بالأولياء والمشايخ

لتحقيق مآربهم، معتقدين أن لهم قدرات خاصة خارقة سموها «كرامات»، على الرغم من أنها ليست من الإسلام في شيء.. وهكذا رصدت المؤلفة كيف تحول التصوف الفلسفي الفردي إلى ظواهر اجتماعية سلبية يُسَلَّم المنتسبون إليها بالخرافات والأوهام وتقديس الأولياء وإشاعة الموالد وتقديم النذور ونشر المخدرات، بعد أن طغى هذا التصوف على الفقه، وانحاز الفقهاء للتصوف.

أما عن مؤلفة هذا الكتاب، الأستاذة سهير عبد الحميد، الكاتبة الصحفية، فهي عاشقة للتاريخ، وربما كانت إسهاماتها فيه تنتمي إلى مدرسة صحفية معروفة، أرسى قواعدها الأساتذة: أحمد بهاء الدين، ومحمود السعدني، ومحمود عوض، وصلاح عيسى، الذين خرجوا بحوادث ووقائع التاريخ من قيوده الأكاديمية ونصوصه الصارمة، وبسطوها للقارئ المعاصر في لغة بسيطة ترتبط بالحياة اليومية وقضاياها؛ فصارت لونها من ألوان الكتابة التاريخية المحببة. وأعتقد أن مؤلفاتها ستُوجد لها مكانًا في سلسلة هؤلاء الكتاب؛ فقد أصدرت كتابين سابقين هما: «قصور مصر» ٢٠٢٠، و«إسكندرية من ثاني» ٢٠٢١، فضلًا عن إسهامها في كتاب «الأهرام.. وطن في جريدة» ٢٠١٥، وقد لقي ذلك كله إعجابًا واستحسانًا مشهودًا من المثقفين، أضيف إلى رصيد كتاباتها الصحفية الدائبة والمتجددة في «الأهرام»، وغيرها من الصحف والمجلات.

وتتميز لغة سهير بأسلوب سلس رشيق لا اضطراب فيه ولا إعجام، وإشاراتنا إلى مصادر معلوماتها لماحة وموحية تغري بالعودة إلى نصوصها إذا احتاج القارئ إلى مزيد من التفاصيل، إن لم تكفه النصوص الدالة التي أوردتها. وفي يقيني أنها لم تنتزع نصوصًا من سياقها، وأنها -باستشهاداتها بالحقائق والتواريخ من المصادر- تجعلنا نطمئن إلى أنها قرأتها بتأنٍ ووعي، وتركت اقتباساتها تضيء الأفكار التي تشاركها القراء، فضلًا عن أنها تمسك بروح الحوادث والوقائع التاريخية، وتسقطها على الواقع المعاصر..

فتحية لها على هذا العمل الجديد وتهنئة بنشره، مع تمنياتنا لها بمزيد من التوفيق والإنتاج الثقافي الخصب والممتع.

د. أحمد زكريا الشلق  
مؤرخ وأستاذ التاريخ الحديث والمعاصر  
بجامعة عين شمس

## مقدمة المؤلفة

كيف ترعرع في وادينا الطيب ودلتاه وكل شبر فيه كل هذا الكم من الأولياء؟! من أين جاءت تلك القصص الخرافية عن الكرامات التي قد يجوب المرء من أجلها القرى والنجوع؛ فيشد الرحال ويتمسح بعثبات الأضرحة ويطلب المدد؟!

كيف انبثقت تلك الخرافات ونُسبت -زورًا وبهتانًا- إلى التصوف؛ فأساءت إليه وأبسته رداءً لا يليق بسموه ورقيه؟! فالتصوف أول حركة ثورية ضد فساد الحكم والفقهاء حملة المباخر، وهو أول ثورة مضادة لثورة بني أمية على الدولة المدنية التي أسسها النبي ﷺ، ورفع أعمدتها خلفاؤه الراشدون قبل أن تأتي الفتنة وتتد الحلم الكبير في تأسيس دولة ديمقراطية مدنية يتساوى فيها الأمير والخفير، الأبيض والأسود، العربي والعجمي، لا فرق لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى.

عاد بنو أمية بالأمة إلى الخلف بعدما تجرءوا على نسل النبي ﷺ بالسب والتعذيب والسجن والقتل، بهرهم بهرج القصور وبريق الذهب الذي انساب إلى خزائنهم مع كثرة الفتوحات، فعادوا إلى ما كان في الجاهلية من ظلم وعسف وفوارق طبقية، ووضعوا على أبواب قصورهم ألف حاجب وحاجب؛ فأصبح بينهم وبين الرعية سد منيع. تجاهلوا جل ما نادى به الإسلام، فظهر الزاهدون يرفعون ألوية العودة إلى صحيح الدين في الكتاب والسنة، ولما لم يجدوا صدًى لدعوتهم اعتزلوا الحياة، وتجمّع حولهم الأتباع. وشيئًا فشيئًا تطورت حركة الزهد الفردي إلى حركة تصوف منظمة مؤسسة من شيخ ومريدين وذات منهج، فنشأت الطرق الصوفية.

وعرفت مصر منذ الوهلة الأولى فكر الزهاد والمتصوفة وظهرت بها مدرسة مصرية خالصة تزعمها ذو النون المصري، ثم استقبلت مصر عقب سقوط الأندلس وبغداد، كثيرًا من المتصوفة الذين جاءوها بوصفها دولة مستقرة سياسيًا واقتصاديًا تحت حكم المماليك، ثم

عرفت مصر طرقًا صوفية أخرى حملتها بيارق الاحتلال العثماني. لكن المصريين مالوا إلى ذلك التصوف الآتي من المغرب العربي؛ كالشاذلية، أو الذي جاءهم من المشرق العربي؛ كالرفاعية، في حين لم يميل وجدانهم إلى تلك الطرق الآتية على يد بني عثمان؛ كالبكتاشية، والمولوية.

ظل التصوف حركة روحية فلسفية خالصة، حتى تدخلت السلطة وأرادت تطويعه، مرة على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أراد استخدام التصوف بغية القضاء على بقايا المد الشيعي الفاطمي، ومرة أخرى حين استخدمه سلاطين المماليك كمسكنات للرعية، وثالثة حين وجد العثمانيون في ألوية المتصوفة تمهيدًا لألوية جيوشهم في مختلف البلدان.

هذا الخلط بين الدين والسياسة، جعل التصوف ينحرف في بعض الفترات التاريخية عن مقصده ومبتغاه، فحسب دراسة نيقولا ميشيل وكاترين مايور من واقع سجلات الرزق الإحباسية (١٥٢٧-١٥٢٨ م)، فقد كان هناك في القرن السادس عشر مئة ولي في حوالي ٣٧ قرية من قرى الدلتا وحدها؛ أي بمعدل ثلاثة أولياء لكل قرية.

وقد أعجبني تفسير المؤرخة د. نيللي حنا، لهذه الظاهرة بقولها: «إن العامة وجدوا في الأولياء بديلًا عن الخلافة العباسية التي سقطت كرمز للوحدة الإسلامية، وأضحى الأولياء بديلًا محليًا للخليفة رمز السلطة الدينية».

وحتى بعدما ظهرت في العصر الحديث دعوات إصلاحية للقضاء على ما نال ثوب التصوف من دنس، وبدأ بعض مشايخ الطرق ينهون أتباعهم عن الممارسات التي تسيء إلى الدين؛ كما كان يفعل أتباع الرفاعية من ضرب الدبوس، واللعب بالسيف في مولد الرفاعي، ظل هناك تراث في تقديس الأولياء والإيمان بكراماتهم، وهو ما نعرفه بـ«التصوف الشعبي» ظل كامنًا في الوجدان الشعبي ومرتسخًا، دعمه ورسخه ما تحويه كتب التراث والمناقب من قصص أسطورية حول الأولياء تداولها العامة، وما ابتدعه الأدعياء من حكايات خرافية عن

مئات الشيوخ مجهولي النسب، معلنين قدسية مئات القباب التي لا يوجد تحتها شيخ ولا يحزنون!

لكن مَنْ الذي أصل لكل تلك الكرامات والخرافات؟ وَمَنْ الذي اخترع كل هذا الكم من الأولياء؟ وكيف انبثق عن التصوف -كونه حركة روحية فلسفية- هذا القدر من الدروشة وال دراويش وتناBLE السلطان؟! كان هذه السؤال الأول التي حاولت الإجابة عنه.

\*\*\*

هل نحن حقًا شعب متصوف بالفطرة؟ هل الحياة الروحانية جزء لا يتجزأ من السيكولوجية المصرية؟! هذا هو السؤال الثاني الذي شغلني، وحاولت الإجابة عنه، فهل من قبيل المصادفة أن تكون مصر التي اخترعت الرهينة في المعتقد المسيحي وصدرتها إلى العالم، هي ذاتها البوتقة التي انصهرت فيها التيارات الصوفية الإسلامية وتشكلت الطرق الصوفية؟!

وهل من قبيل المصادفة أيضًا أن نجد صدى الأفكار الروحية لدى المصري القديم، وأن يأتي الفارابي وابن سينا بعد عقود ليتأثرا بأفكار أفلوطين المصري؟!

وهل من قبيل المصادفة أن كثيرًا من طقوس الموالد المسيحية والإسلامية تتشابه مع كثير من الطقوس التي مارسها المصري القديم في احتفالاته بالآلهة التي قدسها، وأن نجد ذلك الشغف بالأولياء عند المسلم يقابله شغف مماثل لدى المسيحي بالقدسين والقديسات، وبينما يتعلق المسلم بحديد الضريح، يتعلق المسيحي بالأيقونات يُقْبَلها ويحصل منها على البركة؟!

هل هي المصادفة أو أنه شيء مما علق بالجينات واستمر عبر قصص الجدات وممارسات الآباء؛ فانتقل إلى الأبناء، لتستمر سمة الاستمرارية وعدم الانقطاع في الشخصية المصرية التي أكدها د. جمال حمدان؟!

سهير عبد الحميد

# الفصل الأول

## من إخناتون وحتى المرسي أبو العباس المصريون شعب متصوف بطبعه

هل نحن شعب متصوف بالفطرة؟ هل صحيح أن الميل إلى الحياة الروحانية جزء من السيكولوجية المصرية؟ هل هناك حلقة وصل بين المسحة الروحانية التي اتسمت بها الديانات لدى المصري القديم من جانب، والرهبنة المسيحية، والتصوف الإسلامي، أو وجدته سمة الاستمرارية الأصيلة في الشخصية المصرية؟

يمكننا قول ذلك بثقة، وأن الشخصية المصرية عبّرت عن ذلك الميل الروحاني حين اعتنقت عبادة رع وآمون ثم آتون؛ فكتب المصري القديم أشعارًا وترانيم مليئة بالروحانية وتقديس الذات الإلهية، ثم ترجمته عندما اعتنقت المسيحية؛ فاخترعت اختراعًا مصريًا أصيلاً صدرته للعالم أجمع، هو «الرهبنة».

وحين دان المصري بديانة الإسلام استقبلت مصر تيارات التصوف الآتية من الشرق والغرب، ومزجتها بعشقتها المتوارث لتلك الحالة الروحانية الأصيلة في شخصيتها. وإن فرضت كل ديانة طبائعها على شكل الحياة الروحانية دون أن يمنع ذلك حالة التأثير والتأثر بين الدوائر الثلاث، فنحن أمام سلسلة من الروحانية والرهبنة والتصوف تركت آثارها في حالة تبادل الأولياء بين المسلمين والمسيحيين، وفي العديد من مظاهر الاحتفال بموالد الأولياء والقديسين.. حتى في رموز الصوفية وأفكارهم ومصطلحاتهم نستطيع أن نتبين تلك الحالة؛ فالمسيحيون المصريون يطلقون على المسيح «شمس البر»، والصوفية يسمون الذات العليا «شمس الحقيقة»، وهي الأسماء ذاتها التي أطلقها إخناتون على إلهه الواحد «آتون».

ونصوص تحوت إله الحكمة والمعرفة والسحر عند المصري القديم، تشبه الكثير من المفردات التي نجدها في كتب الصوفية عن محبة الخالق، وأشكال وجوده في الرزق والإيمان والعبادة.

وبالقدر نفسه الذي بجل به المصري إيزيس، كانت للسيدة مريم العذراء مكانة في نفسه، ورأى فيها امتدادًا لإيزيس، ولكن وفق عقيدته الجديدة؛ فصور العذراء تحتضن وليدها المسيح على الهيئة نفسها التي صور عليها إيزيس محتضنة حورس الصغير، وحين صرخ منادياً العذراء: «مدد يا أم النور»، استغاثت بالسيدة زينب: «مدد يا أم العواجز». وهناك باحثون في التراث الشعبي يجدون في صورة كل من العذراء والسيدة زينب -كونها رمزاً للنور- امتداداً لصورة إيزيس كونها إلهة للقمر. ويرون أن كلمة «ست» التي تُطلق على السيدة مريم والسيدة زينب هي تحريف لكلمة مصرية قديمة «سنت» بمعنى امرأة عظيمة، والتي كانت تُطلق أيضاً على إيزيس. وإذا كان المصري القديم قد وضع إيزيس في مرتبة الآلهة؛ فإنه منح السيدة مريم البتول والسيدة زينب، منزلة القديسين والأولياء وهبة الشفاعة.

وقد عبّرت المستشرقة الإنجليزية لوسي داف جوردون، عن فكرة الميل إلى الحياة الروحانية المتوارثة لدى المصريين حين قالت: «ليس مارجرجس في الواقع إلا آمون رع إله الشمس، ولا يزال موضع التقديس عند الجميع. أما السيد البدوي فهو صورة أخرى لأفروديت؛ فيحتفلون به مرتين في السنة في طنطا. والنساء المصريات حتى اليوم يطفن بالتماثيل القديمة؛ حتى ينجبن أطفالاً، والاحتفالات بالموالد ليست من الإسلام، إنما هي عادات مصرية قديمة».

\*\*\*

البعض يرى أن سيطرة الحالة الروحانية على الشخصية المصرية إنما يرجع إلى وجود الصحاري الشاسعة في الجغرافيا المصرية مثلما قالت د. نعمات أحمد فؤاد: «صحراء مصر أعطت روح الإنسان المصري معاني التجرد والتأمل والسمو، فعرفت مصر النسك في

عهدھا القديم والرهبانية في المسيحية، وعنها انتقلت إلى أوروبا أجل منحة أهدتها المسيحية المصرية إلى المسيحية الأوربية، بل يرجحون أن تكون طبيعة مصر هي التي أوحى إلى اليهود بعبادة النسك؛ فالصحراء في مصر شديدة القرب من أي شخص يريد اعتزال العالم. وإذ تأصل في مصر هذا الطابع لعبت دورًا كبيرًا في التصوف الإسلامي.»

قد تكون الصحراء سببًا في ذلك الاتجاه الروحاني، وربما كانت الطبيعة المصرية الميالة للتدين، والتي وصفها (هيرودوت) بقوله: «المصريون أشد البشر تديناً، ولا يُعرَف شعب بالغ في التدين درجتهم، وكتبهم في الجملة أسفار عبادة». بل إن العالم الفرنسي (دي روجيه) أكد أن فكرة التسبيح للإله الواحد كانت في مصر قبل الشرائع السماوية. وقال المؤرخ (شامبليون فيجاك): «من دراسة الآثار عرفنا أن مصر كانت تعبد الله، غير أنهم أظهروا صفاته العليا مشخصة في بعض المحسوسات والتماثيل وغيرها، وعددوا صفاته العليا، وميزوها بالأسماء، وجعلوا لكل منها تمثالاً، ولكل مدينة معبود.»

تلك الطبيعة الميالة للتدين جعلت المصري مهياً لحياة النسك والتصوف عند اعتناقه المسيحية ثم الإسلام.

\*\*\*

تسربت المسيحية إلى الإسكندرية منذ نهاية القرن الأول الميلادي، وتذكر الباحثة المتخصصة في دراسة البرديات وعلم المصريات (دومينيك فالبييل) أن أول شخص مسيحي ورد ذكره في البرديات يُدعى (بيتوسورايبس بن حوروس) (بادي أوزير - أيبس بن حورس) في بردية أوكسي المؤرخة ٢٥٦ م. وتذكر فالبييل أن كهنة المعابد المصرية كانوا جزءاً لا يتجزأ من الدولة، واستمروا في عهد الإغريق والرومان كعالم له تنظيماته.

ويبدو قول (فالبييل) منطقيًا، فكيف لهذا العالم شديد الخصوصية (عالم الكهنة) أن يختفي بين ليلة وضحاها؟!

تذكر المصادر التاريخية مجموعة كهنة هليوبوليس، الذين عاشوا في القرن الأول قبل المسيحية، في عزلة كاملة لا يقتاتون إلا الزيت، ويرى البعض أن أنطونيوس مؤسس الرهبنة القبطية تأثر بأولئك الكهنة، وإن كان البعض ينفي وجود تلك العلاقة؛ استنادًا إلى مقولات بعض من زاروا مصر في القرن الأول الميلادي، ومنهم (إفلين هوايت) الذي زار هليوبوليس، ووجد أن هؤلاء الكهنة النسك اختفوا واتفق معه (ميناردوس).

د. أليس بشاي في دراستها الأنثروبولوجية للرهبنة القبطية المعاصرة، أوضحت وجود فوارق عديدة بين الرهبنة القبطية والنسك عند المصري القديم، معتبرة أن النسك وُجد قبل المسيحية وبعدها بوصفه ظاهرة دينية واجتماعية ظهرت في مختلف العصور، لكنها لم تنف أن الدراسات الدينية التي سبقت دخول المسيحية مصر تثبت أن هناك استعدادات سيكولوجية لدى المصريين تتغلغل في نفوسهم نحو الحياة النسكية ساعدت على قيام الرهبنة؛ باعتبارها أحد المظاهر النسكية للديانة المسيحية.

على اختلاف الآراء، أعتقد أن علاقة التأثير والتأثر قائمة؛ فلا شيء يُولد من العدم، وهناك مظاهر عديدة تدل على الاستمرارية في الشخصية المصرية فيما يتعلق بالعادات والتقاليد والأفكار وألوان الفنون، وحتى مفردات اللغة؛ لذا فإن تأثر الرهبنة القبطية بالنسك المصري القديم أمر وارد، مع احتفاظ الرهبنة القبطية بخصوصيتها النابعة من مفاهيم العقيدة المسيحية، كما أن تأثر التصوف الإسلامي بحياة الرهبنة لا ينتقص منه ولا ينكر روحه الخاصة المستمدة من صلب العقيدة.

ويمكن إضافة ما ذكره د. رأفت عبد الحميد في مؤلفه المهم (الفكر المصري في العصر المسيحي)، فالى جانب الكهان المصريين الناسكين في هليوبوليس خلال النصف الأخير من القرن الأول الميلادي، والذين تحلقوا بـ«السرابيوم»؛ زهدًا أيام حكم البطالمة، يرى أيضًا أن تيار الرهبنة القبطية ربما تأثر ببعض جماعات الزاهدين من اليهود في فلسطين قبل قدوم المسيح أو اليهود الموجودين بالقرب من الإسكندرية في القرن الأول الميلادي. أيضًا يرى أن مبادئ الفلسفة الرواقية والأفلاطونية التي سادت بلدان البحر المتوسط خلال

القرن الأولى للميلاد، والتي تدعو إلى الفضيلة وسمو الروح بقهر الجسد، قد تكون قد تركت أثرها في نشأة تيار الرهبة.

لكن د. رأفت يؤكد أن فكرة الرهبانية في المسيحية وأنماط حياتها كانت مصرية خالصة، لم تأخذ عن الأنماط السابقة عليها، ويشير إلى أن ظاهرة خروج المصريين إلى الصحراء كانت فكرة سائدة خلال عصر البطالمة والرومان؛ هرباً من الاستبداد السياسي والعسف الاقتصادي، وكان يُطلق على أولئك المصريين اللاجئين إلى الصحراء «الهارب» أو «المختفي».. وعندما هرب المسيحيون بدينهم إلى الصحراء أُطلقت عليهم تلك التسمية الرومانية في بادئ الأمر.

وهناك تفسير تاريخي يثبت التأثير بين المسيحية والديانة المصرية القديمة بشكل عام، وهو ما قدمه المؤرخ د. مجدي جرجس، فبعد مجمع خلقدونية بدأت الكنيسة القبطية -في سبيل حفاظها على استقلاليتها- تغير خطابها شكلاً ومضموناً على أسس مصرية أو «صارت المسيحية المصرية بمثابة تنصير للديانة المصرية القديمة»، وسار القبط في الاحتفال بقديسيهم على طريقة المصريين القدماء نفسها؛ حيث تقع أعياد الشهداء في الميعاد والمكان نفسه الذي كانت تقام فيه الأعياد المصرية القديمة؛ فأعياد الملائكة والسمايين حلت محل أعياد مصرية قديمة، ومنها ما يذكره (السنكسار الصعيدي) بشأن فشل الكنيسة في ردع المسيحيين لكي يتوقفوا عن الاحتفال بأعياد الآلهة، فاستبدلت بها أعياداً مسيحية خاصة بالملائكة والسمايين؛ كما حدث مع عيد ميلاد الملاك ميخائيل الذي تم تكريسه ليكون بديلاً عن الاحتفال بالإله زحل.

وإن كان د. مجدي جرجس -في نقاش دار بيننا- اعترض على فكرة أن الرهبة أصلها مصري قديم؛ لأن المصري القديم عُرف بإقباله على الحياة، وشيد عمائره من الحجر لتعيش طويلاً، وهو أمر مختلف عن الميل إلى حياة الرهبة، والتي يمكن أن نردها إلى جنوب شرق آسيا؛ حيث حضارة الخشب.

\*\*\*

كانت بداية معرفة مصر بالتصوف الإسلامي على يد ذي النون المصري الذي وضع أسس التصوف الفردي قبل ظهور التصوف الجماعي في الخانقاوات ثم التكايا والطرق الصوفية. وإذا علمنا أن ذا النون كان من المنشغلين بحل رموز النقوش الهيروغليفية التي تفتحت عيناه عليها في أخميم، يمكننا بسهولة تفسير ذلك التقارب بين الرؤى الصوفية والعلوم الروحية للحضارة المصرية القديمة.

ترى د. نعمات أحمد فؤاد أن العرب لدى دخولهم مصر أبهرتهم فلسفة أفلوطين المصري الصعيدي «فانكبوا ينقلون وينقلون»، وذكرت أن محيي الدين بن عربي تأثر بفلسفة أفلوطين أيضًا، وأن كتاب الشفاء لابن سينا جاء متأثرًا بكتابات أفلوطين. بينما قال العقاد إن أفلوطين إمام التصوف امتزجت آراؤه بالطرق الصوفية. وتأثر فلاسفة المسلمين بنظرية الفيض لدى أفلوطين، وحاولوا التوفيق بينه وبين الدين الإسلامي، ومنهم: الفارابي، وابن سينا.

من الدراسات التي تُرسِّخ فكرة النزعة الصوفية أو الروحية لدى المصري القديم، وانتقالها إلى التصوف الإسلامي، دراسة منشورة في مجلة بحوث التربية النوعية بعنوان «النزعة الصوفية في الفن المصري القديم وأثرها على فني التصوير الحديث».

في هذه الدراسة بيّن الباحثون أن معظم ما أنجزه الفنان المصري القديم من أعمال فنية جاء محملاً بحس صوفي روحاني عالٍ، وأن كل الفلسفة والحكمة القديمة جاءت على شكل قصص ميثولوجية تتناول نشأة الكون وتطوره، ومنها: أسطورة بعث أوزوريس، وأسطورة حورس وست. وأن المصري القديم استخدم الفن للتعبير عن معتقداته وأفكاره بالرموز والأرقام. وهو حين أراد أن يرمز للروح «البا» استخدم طائر اللقلق، وهو من الطيور المهاجرة التي تعود حتمًا إلى موطنها، وهكذا هي الروح بعد أن تفارق الجسد. وأشارت الدراسة إلى أن شعراء الصوفية استخدموا الطائر للدلالة نفسها؛ فالطير عندهم رمز للروح وحينها الدائم للعودة إلى عالمها المثالي. وهو ما نجده لدى ابن سينا، وابن عربي، وجمال الدين الرومي، وفريد الدين العطار صاحب (منطق الطير).

والطير من أهم الرموز لدى الصوفية؛ فهو رمز البعث والخلود، وفريد الدين العطار رمز للنفوس البشرية بالطيور، وكل طير يحمل رسالة يريد توصيلها. والحلاج ذكر أربعة من الطير كرموز للبحث عن المعرفة هي: (العقاب- الورقاء- الغراب- العنقاء).

\*\*\*

دارسو ظاهرة الموالد وارتباطها بسلسلة الموروثات في الفلكلور المصري يرون أن الأولياء والقديسين حلوا محل الآلهة المصرية القديمة، وهناك احتفالات تقام في أماكن الاحتفالات الدينية القديمة نفسها؛ مثلما هو الحال في مولد سيدي أبو الحجاج الزاهد العراقي الذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين، والذي سافر إلى الإسكندرية، فالتقى أعلام الصوفية فيها، وتلمذ على يد الشيخ عبد الرازق الجازولي، ثم عاد إلى الأقصر والتقى الشيخ عبد الرحيم القنائي، وظل بها حتى وفاته ٦٤٢ هـ، ودُفن في ضريح داخل مسجد سُمي باسمه بُني فوق أطلال معبد الأقصر ليجاور كنيسة قديمة كانت قد أقيمت فوق أطلال المعبد أيضًا. وكان لأبي الحجاج مجلس علم يقصده الناس، وقد ترك تراثًا علميًا، من أشهره: منظومته الشعرية في علم التوحيد التي تتكون من ١٣٣٣ بيتًا من الشعر.

يقام مولد أبي الحجاج في الرابع عشر من شعبان. الطقوس التي تتم في هذا المولد فرعونية بحتة تشبه عيد «الأوبت» أو عيد الإله آمون؛ حيث كان يخرج تمثال آمون من مقصورة بمعبد الأقصر في احتفال مهيب مرة كل عام في سفينته المقدسة، وخلفه تماثيل موت وخونسو وباقي تماثيل ثلوث طيبة، فيطوف أرجاء المدينة حتى يصل إلى معبد الكرنك؛ فتتم بعض الطقوس قبل أن يعود ثانيةً إلى معبد الأقصر على ضفاف النيل، وهو ما يحدث اليوم؛ حيث يجر المشاركون في المولد مركبًا ضخماً يتجولون به في شوارع المدينة لتنتهي المراسم كما مراسم الأجداد الفراعنة عند مسلة معبد الأقصر؛ حيث ساحة سيدي أبي الحجاج.

# الفصل الثاني

## النسك في مصر القديمة

- هل عرف المصري القديم حياة النسك والعبادة المليئة بالروحانية التي تشبه في جانب منها التصوف؟

نعم، وهل أفكار المصري القديم عن الحياة الأخرى واهتمامه برحلة الروح في العالم الآخر وإرشادها إلى الجسد، إلا جزء من الإغراق في حياة النسك، وهل كان اهتمام المصري القديم بالأخلاق وانتصاره للقيم التي تجعل القلب في ميزان العدالة في مواجهة الكفة الأخرى التي تحمل ريشة تمثل الإلهة «ماعت»، إلا جزء من إحساسه بالمسئولية الأخلاقية وإعلاء للقيم الروحية! وهل الصروح المعمارية العظيمة من أهرامات ومقابر ومعابد إلا تعبير عن مدى تأصل جذور المعتقد الديني فيهم!

ولنر كيف يصور كتاب الموتى مشهد مثل الميت أمام محكمة الموتى المكونة من ٤٢ قاضيًا ليعلن براءته من ارتكاب السيئات: «إني لم أسرق، ولم أتلصص، ولم أبعث الخوف، ولم أنطق كذبًا، ولم أكن طماعًا، ولم أكن متكبرًا، ولم أرتكب زنا مع امرأة، و...».

ومن بين التهم التي ينفىها الميت عن نفسه: «قلبي لم يلتهم، ولم يطمع، ولم أسب، ولم أكن متكبرًا، ولم تأخذني حدة الغضب في طبعي». وكلها أمور تخص القيم الروحية.

في يقين المصري القديم يتكون الإنسان من ثلاث لاهوتي يشير إلى ثلاثة عناصر رئيسية: الروح، والجسد، والنفس، ويختلف شكل كل عنصر باختلاف مراحل الحياة،

فبعد الولادة يكون هناك الثالث: («آب»: وهو القلب المعنوي مصدر الخير والشر، و«حاتي»: وهو القلب الحقيقي في الصدر، و«رن»: وهو الاسم الشخصي للإنسان).

وهناك ثالث يغذي حياة الإنسان: («سخم»: وهو الشرارة الحية داخل الجسم، و«خت»: وهو الجسد البشري الذي يتهيأ للموت، و«شاي أو شايث»: وهو القدر الأنثى والذكر، وكانا على شكل إلهين يُولَدان مع الإنسان، وأمام محكمة الآلهة يقدمان كشفًا دقيقًا عن حسنات المُتوفَى وسيئاته).

الثالث الذي كان موجودًا في الإنسان قبل الموت، ويبقى بعد الموت مباشرةً: («النفس أو الروح الأبدية با»: وتترك الجسد عند الموت، وصوَّرها المصري القديم في شكل طائر أو زهرة لوتس، و«سا»: وهي الجسد المحنط، و«خايث»: الظل الملازم للإنسان حتى بعد بعثه داخل السماء). أما الثالث الأبدي فهو: («جت»: الجسم المادي على الأرض، و«آخ»: الروح التي تصعد للسماء لتبقى مع الإله أوزوريس، و«الكا»: أي القرين التي تبقى بجوار جسد الميت في قبره، وتُقدِّم لها القرابين، وتستمتع بالمأكل والمشرب ورائحة البخور، وتحتاج إلى تماثيل الأوشابتي؛ لتقوم بالعمل نيابةً عن المُتوفَى، وكانت «الكا» بمثابة الحارس للمُتوفَى، وتنتقل بين حجرة الدفن والتمثال الجنائزي للمُتوفَى في القبر وحجرة القرابين عبر الأبواب الوهمية؛ لذا أُطلق على القبر «منزل الكا»).

\*\*\*

هذا التأثير من الروحانية أو النسك أو التصوف لم يكن خافيًا على الدكتور مصطفى محمود الذي كتب في مذكراته: «كنت أبحث لأنني أريد أن أكتشف الجديد، وحتى في هذا الجانب وجدت أن قدماء المصريين عرفوا التصوف والإيمان، والتفاني فيه وله ومن أجله». واستشهد في مذكراته بترنيمة إخناتون الموجودة على لوحة بالمتحف البريطاني وفيها ابتهاج للإله: «أيها الصانع الذي صورت نفسك بنفسك،

وصنعت أعضائك بيديك.. أيها الخالق الذي لم يخلقك أحد.. الوحيد المنقطع القرين في صفاتك.. والراعي ذو القوة والبأس.. والصانع الخالد في آثاره التي لا يحيط بها حصر».

وقبل ذلك بقرون عديدة نجد المؤرخ الإغريقي هيرودوت يقول: «إن أهل طيبة كانوا يعبدون الله وحده، ويقولون إنه هو (الأول والآخر)».

وكل علماء الآثار في العصر الحديث بدايةً من شامبليون مرورًا بدكتور بروجش، ودي روجيه، ودي لاروج، ومارييت، وغيرهم، أقروا أن المصري القديم عرف فكرة الوجدانية حتى قبل إخناتون. يقول شامبليون: «الأمة المصرية أمة موحدة في عبادتها لله، وإنهم لما تغلغوا في سبيل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة، علموا أن الروح أبدية، واعتقدوا بصحة الحساب والعقاب».

وكان التوحيد والتدين مرادفين لديهم للإغراق في العبادة.. يقول ماسبيرو: «المصريون القدماء كانوا أمة مخلصه في العبادة؛ إما بالطبيعة أو بالتلقين والتعلم، فكانوا يرون الله في كل مكان، فهامت قلوبهم بمحبته، وانجذبت أفئدتهم إليه، وانشغلت أفكارهم به، ولازم لسانهم ذكره، وشجنت كتبهم بمحاسن أفعاله؛ حتى صار أغلبها صحفًا دينية».

وقد نجد صدى تلك الأفكار الروحية، المغرقة في الروحانية، ضمن وصايا الحكيم الصعيدي (بتوزيريس) كبير كهنة الأشمونين ٣٥٠ ق. م: «وكان توفيق الله يلازم نفسي طوال الليل، كما كنت أعمل طبق أمره من الفجر.. ولقد مارست العدل وكرهت الظلم.. إن من اطمأن قلبه إلى سبيل (الله) اطمأن مكانه في الأرض».

ويُعد كتاب «فجر الضمير» للمؤرخ وعالم الآثار الأميركي (جيمس هنري بريستد)، وثيقة تاريخية مهمة تثبت أن مصر أصل مدنات العالم ومنبت نشوء الضمير، والبيئة الأولى التي نشأت فيها الأخلاق ومعاني الروح المتأمله؛ كما ورد لدى حكيم مصري

قديم في الألف الأولى قبل الميلاد: «يا آمون، أنت أيها الينبوع الحلو الذي يشفي  
الظماً في الصحراء، إنه لينبوع موصل لمن يتكلم، ومفتوح لمن يتذرع بالصمت، فإنه  
حينما يأتي الصامت، تأمل ! فإنه هناك يجد الينبوع».

\*\*\*

يُعد الباحثون إخناتون أقوى النماذج على الفكر الصوفي في مصر القديمة، وهو ما  
تزخر به ترانيمه التي أُخذت منها مزامير داود، وهو ما اعترف به كثير من الباحثين،  
ومن بينهم شهود من أهل الديانة اليهودية نفسها، وفي مقدمتهم سيجموند فرويد  
عالم النفس الشهير، الذي عقد في كتابه (موسى والوحدانية) مقارنةً بين عقائد  
إخناتون والعقائد العبرية، وانتهى إلى أن موسى n تربي بمصر في كنف الوحدانية،  
ونشأ في أعقاب المعركة بين آتون وآمون، واستعد للنبوة في تلك البيئة الموحدة،  
فعلّم بني إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته.

وقد بذل عالم الآثار والمؤرخ الأميركي، جيمس هنري بريستد، جهداً كبيراً في إثبات  
التشابه حد التطابق بين مزامير داود وأناشيد إخناتون في كتابه المهم «فجر  
الضمير»:

فنقرأ في المزمور ١٠٤-٢١ من العهد القديم: «الأشبال تزمجر؛ لتخطف وتلامس من  
الله طعامها».

بينما يقول إخناتون: «وكل أسد يخرج من عرينه ليفترس، وكل الثعابين تنساب  
لتلدغ، والظلام يخيم، والعالم في صمت، في حين أن الذي خلقهم باقٍ في أفقه».

وفي المزمور: «تشرق الشمس فتتنصرف، وفي مأويها تريض الإنسان، يخرج إلى عمله  
وإلى شغله في المساء».

ويقول إخناتون: «الأرض زاهية حينما تشرق في الأفق، وعندما تضيء بالنهار مثل آتون؛ فإنك تقصي الظلمة إلى بعيد، وحينما ترسل أشعتك تصير الأرضان (مصر) في عيد، والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم عند إيقاظك لهم».

وقد افتتن بريستد بأناشيد إخناتون، ورأى أنه رجل مأخوذ بالإله بجمال النور الأدبي العالمي، انقاد عقله بحساسية وإدراك مدهش لما حوله من المظاهر المرئية الدالة على وجود الإله.

ويرى بريستد أن دعوة إخناتون أقدم النهضات التي تُعرَف بالرجوع إلى الطبيعة وتجلياتها ليست في العهد القديم أو الجديد، بل على لسان شعراء الطبيعة في العصر الحديث، فيقول بريستد: «في أنشودة إخناتون نقرأ: (أنت تخلق الملايين من الصور وحدك بنفسك من مدن وقرى وحقول وطرق عامة وأنهار، وجميع العيون تراك تجاهها؛ لأنك آتون شمس النهار فوق الأرض، وحين تغيب فإن جميع الناس الذين سويت وجوههم لكي لا ترى نفسك بعد وحيدًا يفساهم النعاس؛ حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقتة، يذهب خالق الأرض ليستريح في أفقه، ومع ذلك فإنك لا تزال في قلبي)».

ومنه اقتبس -كما يرى بريستد- الشاعر الإنجليزي (جون رسكن) قصيدته: «ولكنه سواء أكان متأججًا أم خافتًا، لامعًا أم ساكنًا، هو النور الحي الذي يتنفس في أعماق سكونه، وهو النور الذي ينام ولكن لا يموت أبدًا».

ليست فقط ترنيمات إخناتون هي المنقولة في الكتب اليهودية، فوفق بريستد؛ فإن سفر الأمثال منقول عن أقوال الحكيم المصري (أمينموبي) عصر الأسرة ٢٠ (١٢٠٠ - ١٠٩٠ ق. م)،

التي تُعد مصدرًا للأفكار والتشبيهات والمقاييس الخلقية، وفيها تظهر روح الاتكال على المشيئة الإلهية في قول أمينموبي: «ضع نفسك بين ذراعي الله».

وهو نفسه القائل: «لا تدع قلبك يجري وراء الثروة، ولا تجهد نفسك في طلب المزيد..  
اعبد آتوم إله الشمس عندما يشرق، وقل امنحني سلامة وصحة، وسيمنحك ما  
تحتاج إليه مدى الحياة».

وفي إحدى نصائحه لابنه يقول: «لا تتم في الليل وأنت خائف من الغد؛ لأننا لا ندري  
عندما ينبثق الفجر ماذا تكون عليه الحال في الغد؛ فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه  
الغد.. الله في كماله والإنسان في عجزه».

\*\*\*

حسب يوسابيوس القيصري في مؤلفه المهم (تاريخ الكنيسة)؛ فإنه قبيل ظهور  
المسيحية ظهرت مجموعات من النساك، منها تلك التي كانت تعيش على بحيرة  
مريوط، وكانوا يُعرفون بالأطباء والطبيبات؛ لأنهم يقومون بشفاء النفس من  
الشهوات الفاسدة، وأفاضل الناس كانوا يأتون من كل ناحية إلى «مستعمرة الأطباء»  
تلك. وأكد القيصري أن هؤلاء الأطباء منتشرون في مصر، لا سيما الإسكندرية.

وكانت هناك جماعات نسكية أخرى، منها: (جماعة سيرابيون) في ممفيس، وهم  
طائفة من النساك كانوا ينزلون عن الحياة من فترة لأخرى، ويعيشون في صوامع  
منفردة، ويقتاتون على الخبز الذي يرسله أقاربهم. وكانوا يمارسون نوعًا من الوساطة  
بين الإله سيرابيس والناس الذين جاءوا إليه لتفسير الأحلام وطلب الشفاء، ولكنهم  
لم ينقطعوا كلياً عن العالم.

وكان معاصرًا لتلك الجماعة -كما سبق وأشرنا- مجموعة كهنة هليوبوليس في القرن  
الأول قبل المسيحية، وعاش هؤلاء في عزلة كاملة على الزيت؛ فقد نذروا أنفسهم  
لحياة التأمل الكامل والصلاة، وعاشوا حياة تشبه حياة النساك المسيحيين الأوائل.

وفي عام ٢٠٥ م يُولَد في مدينة أسيوط الحكيم المصري (أفلوطين)، ليمثل عقائد مصر القديمة في آخر أيامها، والذي بلغ كما قال عنه العقاد: «غاية المدى في تنزيه الله».

انصرف (أفلوطين) إلى دراسة الفلسفة في سن مبكرة، ولازم (أمونيوس) أهم فلاسفة الإسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي.. اطلع على فلسفة العرب والهند واليونان، وذهب إلى روما؛ ليدرس تعاليم أستاذه أمونيوس. مقالاته جمعها تلامذته في مجموعة تُعرَف بـ«التساعيات»، وتضم أربعًا وخمسين قصيدة غلب عليها الطابع الصوفي.

الاتجاه الصوفي في فلسفة أفلوطين أكده تلميذه (فريريوس) الذي قال إن أستاذه كان كثير العزلة ذا نفس طاهرة، دائم الانشغال بالعلم الرباني الذي كان قلبه شديد الوله به. ويقرر أن هدف أفلوطين وغايته في تلك المرحلة الوجودية أن يتحد ويتصل بالإله الذي هو فوق كل شيء، والاتحاد هنا هو الاتحاد المعرفي المكاشفي الذي يتحقق للصوفي الذي يسلك طريقَي العلم والمجاهدة معًا.

وقال د. زكي نجيب محمود عن أفلوطين: «حياته بُنيت على الزهد والتقشف فتطهير الروح، ولم يكن يبيح لنفسه من الطعام إلا ما يقيم أوده، وكان يصوم يومًا بعد يوم. ولخص فلسفة أفلوطين في أن الله واحد غير متعدد، لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار، ولا يحدده حد، وهو أزلي أبدي قائم بنفسه، وهو الإرادة المطلقة لا يخرج شيء عن إرادته، وهو في كل مكان، ولا نهائي، ولا تحده حدود، يختلف عن كل شيء، ويسمو على كل شيء».

ونظرية الفيض «كيفية فيض أو صدور الموجودات عن الواحد» التي وضعها أفلوطين، تقضي بأن العالم يفيض من الله؛ كما يفيض النور عن الشمس أو الحرارة عن النار فيضًا متدرجًا، وتلك النظرية تأثر بها فلاسفة المسلمين: الفارابي، وابن سينا.

فمن أفكار أفلوطين السكندري ابن الحضارة المصرية القديمة المغلفة بالقيم  
الروحانية نقل فلاسفة المسلمين.

# الفصل الثالث

## الرهينة اختراع مصري صعيدي

جاءت حياة الرهينة أو التصوف المسيحي كونها مرحلة ثالثة في تاريخ المسيحية بمصر، بعد عصري التبشير والاستشهاد.

وفي حين كانت الإسكندرية البوابة التي عبرت منها المسيحية إلى مصر، فإن الصعيد هو البوتقة التي تشكلت فيها الرهينة كونها اختراعاً مصرياً أصيلاً نشأ كفكر وقواعد ونظرية في صعيد مصر، ثم صدرته الكنيسة القبطية إلى كل أنحاء العالم، ليصبح القديس القبطي المصري الصعيدي نسباً ومولداً ونشأةً (الأبنا أنطونيوس) ٢٥١-٣٥٦ م، أبو الرهينة والرهبان في العالم أجمع، ثم يأتي الصعيدي الأبنا باخوسيوس ليؤسس نظام الشركة في الرهينة بإنشاء الأديرة. والأبنا شنودة الذي طور نظام الرهينة وترأس عدداً من الرهبان والراهبات؛ فأطلق عليه لقب «رئيس المتوحدين». هكذا أهدت مصر المسيحية للعالم المسيحي نظام الرهينة بأشكاله.

\*\*\*

عرفت مصر المسيحية أول ما عرفت في الإسكندرية على يد مرقس الرسول، إلا أن الأمر لم يستتب للمسيحيين في مصر؛ فقد عانوا الاضطهاد الروماني منذ القرن الأول الميلادي، وفي القرن الثالث وقع أكبر اضطهاد للمسيحية على يد الإمبراطور دقلديانوس ٢٤٨-٣٠٥ م، وسُمِّي عصره «عصر الشهداء»، وأصبحت السنة الأولى من حكمه بدايةً للتقويم المسيحي «تقويم الشهداء»، الذي يبدأ بيوم السبت ٢٩ من أغسطس ٢٨٤ م، وما زالت الكنيسة تستخدمه في تحديد الأعياد والمناسبات الدينية.

لم ينته هذا الاضطهاد إلا بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية ٣٢٤ - ٣٣٧ م، وإعلانه أنها الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية، إلا أن الرومان - كما كانوا متطرفين في الوثنية - تطرفوا في المسيحية؛ فمارسوا اضطهادًا جديدًا ضد المسيحيين، لكنه هذه المرة ليس بسبب اختلاف الديانة، بل لاختلاف المذهب؛ فقد بدأت الصراعات المسيحية بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة روما والقسطنطينية، وهو الأمر الذي انتهى إلى انقسام الكنيسة بعد مؤتمر خلقدونية ٥٤١ م، وخلال حكم الإمبراطور البيزنطي مرقيانوس ٤٥٠-٤٥٧ م، إلى مذهبين: مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح بزعامة كنيسة الإسكندرية، وقد سُميت الكنيسة القبطية المصرية بهذا الاسم؛ نظرًا لأن الإسكندرية أول مكان في مصر تشكلت فيه أول جماعة مسيحية، ومذهب الطبيعتين، وتزعمه كنيسة روما والقسطنطينية.

كانت هذه المرحلة من عمر المسيحية في مصر تُعرَف بمرحلة التبشير والاستشهاد، وفي القرن الثالث الميلادي بدأت مرحلة جديدة تمامًا، هي مرحلة الرهبة، والتي ازدهرت مع انتهاء عصر الاستشهاد بإصدار الإمبراطور قسطنطين منشور التسامح الديني (ميلان)؛ فزاد عدد الرهبان والراهبات، حتى أصبح هناك أكثر من خمسة آلاف دير.

لكن ما الرهبة؟ ولماذا؟

الرهبة لفظ مرادف لـ (الوحدة)، فالمرادف القبطي للراهب (موناخوس) مأخوذة عن اليونانية، وتعني: (الوحدة).

الفقر والطاعة والبتولية هي مبادئ الرهبة الثلاثة التي أُسست من وحي العقيدة المسيحية التي تدعو إلى التقشف، وإنكار الذات، والبتولية؛ اقتداءً بالسيد المسيح الذي عاش لفترات في البرية عاكفًا على الصوم والصلاة، واستنادًا إلى قوله: «الحق أقول لكم: ليس أحد يترك امرأة أو أولادًا أو حقولًا لأجلي ولأجل الإنجيل، إلا ويأخذ مئة ضعف في هذا الزمان، وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية». مرقص ١٠: ٢٩، ٣٠.

وهناك كثير ممن عاصروا السيد المسيح اقتدوا به في حياة النسك، منهم يوحنا المعمدان الذي عاش في صحراء الشام، ولبس وبر الإبل، واقتصر طعامه على العسل البري، وكانت حياة البتولية قرينة بالقديسين الأوائل، حتى إن القديس بولس قال: «غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضي الرب، أما المتزوج فيهتم للعالم كيف يرضي امرأته».

كانت روح العقيدة المسيحية إذن سببًا في اللجوء إلى حياة الرهينة، وهناك سبب آخر: هو الرغبة في البحث عن جو روحي نقي بعيدًا عن الصخب وحب الشهوات السائدة في العصر الروماني، خصوصًا في ظل ما تعرّض له المسيحيون الأوائل من اضطهاد، خصوصًا أواخر عصر دقلديانوس؛ فهرب الكثيرون إلى حياة الصحراء، ورفض العديدون تركها حتى بعد صور مرسوم التسامح الديني من ميلان ٣١٣ م، ففترة الزهد الطويلة ومرحلة الاضطهاد والاستشهاد التي استمرت ثلاثة قرون، حبت حياة العزلة والوحدة إلى الوجدان المسيحي.

ولعلنا نفهم أكثر الظروف التي نشأت في ظلها الرهينة من خلال معرفة التيارات الفكرية التي سادت في العصر البيزنطي، وهي ثلاثة تيارات فكرية:

- **الأول:** السلفية الوثنية، ومثلتها الطبقة الأرستقراطية التي كانت تصر على بقاء الآلهة القديمة بوصفها شعائر متوارثة ارتبطت بأيام المجد القديم.. وظل هذا التيار سائدًا لفترة طويلة جدًا، حتى أخريات القرن السادس الميلادي، ففي صحراء مصر الشرقية ظلت عبادة إيزيس مستمرة، وكان تمثالها في فيلة مقصد مربيديها، حتى أغلق الإمبراطور جوستنيان المعبد ونقل التمثال إلى القسطنطينية، وكانت إيزيس ذات مكانة عند البطالمة؛ فظهر ثلوث جديد ظلت فيه إيزيس كما هي، وحل سراييس بدلًا من أوزيريس، وهاربوقراطيس بدلًا من حورس، وظلت عبادتها في الإسكندرية سائدة حتى تم هدم معبد السرابيوم عام ٣٩١، وفر الكثيرون من الوثنيين إلى صعيد مصر؛ حيث كانت أخميم تحديدًا قلعة الوثنية الحصينة بالصعيد.
- **الثاني:** التيار الفلسفي الذي كانت الإسكندرية مركزًا له بامتياز استوعب كافة التيارات السائدة آنذاك.

• **الثالث:** تيار المسيحية المفلسفة، والذي يُعبّر عن عملية التفاعل والامتزاج بين الفلسفة والمسيحية عندما أدار المبشرون بالمسيحية ظهورهم لكل الآراء الكنسية لدى آباء المسيحية في الغرب التي تُكِنّ عداً للفلسفة، وتجد أن الكتاب المقدس فيه كل ما يحتاج إليه العقل، بل وتُعدّ الفلسفة شرّاً ورجساً من عمل الشيطان، وكان (أوريجن) المؤسس لمدرسة المسيحية المفلسفة، وشاركه في هذا (كلمنت) السكندري أثيني الأصل.

وهكذا اختُصت الإسكندرية بسيادة التيارين: الفلسفة، والمسيحية المفلسفة؛ بحكم سيادة اللسان والثقافة اليونانية. كما حظيت المدينة بالنصيب الأكبر من تيار الوثنية؛ لوجود المصريين واليونان.

التيار الرابع يخص المصريين وحدهم هو (الرهبنة)، الذي ابتعد عن الجدل حول العلاقة بين المسيحية والفلسفة والجدل اللاهوتي بين الفلاسفة والمسيحيين المتفلسفين. وبعيداً عن الاضطهاد الذي مارسه الأباطرة الرومان الوثنيين والمسيحيين ضد المسيحيين المصريين.. ووجدوا في الصحراء الشاسعة مبتغاهم؛ كما قال جمال حمدان: «يلجأون إليها من الاضطهاد، ويحافظون فيها على عقيدتهم».

وهكذا نشأت الرهبنة المصرية بكل مراحلها بدايةً من التوحد الذي ابتدعه القديس أنطونيوس بلجؤه منفرداً إلى البرية، ولما تكاثرت حوله التلاميذ والأتباع، وإن كان كلٌّ منهم في صومعة أو قلاية منفصلة بدأت مرحلة التوحد الجماعي، والتي كانت مقدمة حتمية لظهور مرحلة الديرية، والتي تمت على يد باخوميوس.

وكانت تلك الأديرة ورهبانها الظهير والحماية للكنيسة المصرية في مواجهة الاضطهاد الروماني، فكان الأساقفة المنفيون والمضطهدون يلجأون إليها، ولعل أشهر القصص المعروفة هي قصة الأسقف السكندري (بنيامين) الذي قيل إن المقوقس قبض على أخيه (مينا)، وتم تعذيبه في براميل من الزيت المغلي، أما بنيامين فلجأ إلى الصحراء مختفياً عند الرهبان المسيحيين قرابة عشر سنوات، ولم يعد حتى

منحه عمرو بن العاص الأمان، وسجل ساويرس بن المقفع ما قاله بنيامين بعد استقبال عمرو بن العاص له: «لقد وجدت أمتًا بعد خوف، واطمئنًا بعد بلاء، لقد صُرف عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم».

بينما كانت الصحراء الشرقية مقر أول جماعة نسكية؛ فإن وادي النطرون من المراكز الأساسية للرهبنة وأكبرها، ومنه جاء أشهر الرهبان في مصر.

\*\*\*

مراكز الرهبنة في مصر

عندما بدأ النساك المسيحيون يعقدون العزم على الهرب إلى الصحاري الممتدة على أطراف مصر، كان هناك مركزان مهمان اتجهوا إليهما: وادي النطرون غربًا، وسيناء شرقًا.

كانت سيناء قبلتهم الأهم والأبرز، خصوصًا جنوب سيناء؛ لارتباطها بقصة خروج بني إسرائيل، ولتوافر المياه في مناطق عديدة منها؛ فاستقروا حول مناطق وادي فيران، ووادي الحمام شمالي مدينة الطور، وحول الشجرة المحترقة. وأشارت المصادر إلى أن أول ناسك استقر في هذه المنطقة هو القديس (أونوفريوس) في القرن الرابع الميلادي؛ حيث لجأ إلى مغارة في وادي ليان جنوب جبل موسى، وتتابعت هجرات الرهبان إلى سيناء منذ ذلك التوقيت. وفي عام ٣٤٣ م زارت القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين المنطقة في أثناء عودتها من فلسطين؛ بحثًا عن تاج الشوك و صليب المسيح، وأمرت ببناء كنيسة باسم العذراء مريم، وحصنين لحماية الرهبان تم بناؤهما ٣٣٦ م. ولما لم يمنع الحصان هجمات العربان على الرهبان تقدّم القساوسة بطلب إلى الإمبراطور جستنيان لبناء دير حصين عُرف باسم دير جبل

سيناء، إلى أن تم العثور على رفات القديسة كاترينة ونُقل إلى الدير؛ فأصبح يُعرَف باسم «دير سانت كاترين».

\*\*\*

إن كانت الصحراء الشرقية قد عرفت أول جماعة نسيكية رهبانية، فإن الصحراء الغربية، وتحديدًا ذلك المنخفض الواقع منتصف الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية المعروف بوادي النطرون، من أهم المناطق التي شهدت تطوُّر الرهبة، وفيها شُيِّد عدد كبير من الأديرة العامرة، وتخرج أكبر عدد من البطاركة والأساقفة وأشهر الرهبان، ومنهم: الأنبا مقار الكبير مؤسس الرهبة المسيحية في وادي النطرون، والأنبا مقار السكندري، والأنبا كيرلس الأول، والأب متى المسكين؛ فكان وادي النطرون أو صحراء الإسقيط، من أهم المواقع المسيحية للرهبان في القرنين الرابع والخامس الميلادي.

وقد عُرف وادي النطرون بأسماء عدة: «سخت حمات» في المصرية القديمة؛ أي: حقل الملح، أو «إنتت حسمن»، وتعني حرفيًا وادي النطرون، وسُمِّيت باليونانية «سكيتيس»؛ أي: مكان النساك، ومنها اشتُق اسم «إسقيط»، كما سُمِّيت «برية شيهيت»؛ أي: ميزان القلوب لشهرة المنطقة بعبادة سيرابيس.

ووادي النطرون الذي لفت انتباه الرحالة عبر العصور، جذب انتباه الباحثين، ومنهم الأمير عمر طوسون، الذي زاره وقَدَّم عنه دراسة مستفيضة، وبيَّن أن: «التنسك في العصور الأولى لم يكن على شكل تجمُّع في أديرة محاطة بسور، بل كان الرهبان يعيشون منفردين في قلالي منفردة في الجبل، أو صوامع من القصب والجريد، وحتى بعد غزوات البربر بدءوا ينتظمون في شرازم لكل منها دير قائم بذاته يتكون من كنيسة يصلي فيها الكل، ومائدة كبيرة يتناولون فيها الطعام كل أسبوع، وحصن يلجأون إليه في غارات البربر».

ويذكر (روفينوس) الذي زار مصر عام ٣٢٧ م في كتابه (آباء الصحراء) أنه كان يوجد خمسون ديرًا أصبحت عند الفتح العربي مئة دير حسب شهادة المقريزي.

حاليًا لا يوجد في وادي النظرون سوى أربعة أديرة، هي:

- دير براموس (معربة عن الكلمة القبطية باروميئوس بمعنى الروم)، هذا الدير هو أول تجمعٌ رهباني تحت قيادة القديس مقاريوس ٣٤٠ م.
- دير الأنبا مقار.
- دير الأنبا بيشوي، يحمل اسم الأنبا بيشوي الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، وهو الدير الذي دُفن فيه البابا شنودة الثالث، بابا الإسكندرية بطريرك الكرازة المرقسية الأسبق؛ بناءً على وصيته؛ حيث إنه المكان الذي تحددت إقامته فيه إثر أزمته مع الرئيس السادات عام ١٩٨١ م.
- دير السريان، وهو أصغر أديرة وادي النظرون، وكما ذكر عمر طوسون فهذا الدير لم يبق بنائه السريان، ولكن المعروف أنه في عام ٩٨٤ م حضر جماعة من الرهبان وتوطنوا في أحد الأديرة الموجودة؛ فعندما أتى السريان أعطاهم الرهبان القبط كنيسة هذا الدير؛ ليقوموا الصلاة فيها بلغتهم.

مصر تُصدّر الرهبنة للعالم

عرفت مصر الرهبنة تحديدًا أواخر القرن الثالث الميلادي، وازدهرت في القرن الرابع الميلادي؛ حيث انتشرت الأديرة والقلالي (القلالية: مسكن الراهب)، وكان من بينها أديرة مخصصة للراهبات أُطلق عليها «بيوت العذارى»، وشُيِّدت على أطراف المدن لا في الصحراء كأديرة الرهبان.

وكانت الرهبنة في بادئ الأمر تقتصر على مجموعة من الموحدين الذين يسكنون الصحراء فرادى أو يخرجون إلى التعبد؛ ففي عام ١٥٠ م خرج أحد أثرياء الإسكندرية (فرنطونيوس) ليتعبد ومعه أربعون مسيحيًا تقيًا. وفي مطلع القرن الثالث الميلادي

دخل الأنبا بولا الطيبي بالأقصر البرية حوالي ٢١٨ م هربًا من الاضطهاد في عهد الإمبراطورين الرومانيين (ديكوس) و(فاليريان)، وكان الله -كما تنص المراجع الكنسية- يرسل له نصف رغيف خبز يوميًا مع الغراب، ويشرب من نبع ماء، ويلبس أوراق النخيل الجاف، حتى بلغ من العمر ١١٣ سنة.

إلا أن تأسيس الحركة الرهبانية بشكلها المعروف إنما يرجع -حسب المصادر الكنسية- إلى القديس أنطونيوس الكبير. وحسب شهادة القديس جيروم أبو الكنيسة اللاتينية في القرن الرابع الميلادي: «إذا كان بولس الراهب المصري (بولا الطيبي) أول من وضع نسق الحياة الرهبانية، فإن أنطوني هو المؤسس الحقيقي والرائد للنظم الرهبانية».

وكما ورد في (بستان الرهبة) وُلِدَ الأنبا أنطونيوس ٢٥١ م في بلدة قمن العروس التابعة لبني سويف. كان والده غنيًا، وقد اهتز أنطونيوس لوفاته؛ فتركه دون أن يدفنه، ومضى هائمًا على وجهه، تاركًا ثروته للفقراء، إلا جزءًا خصصه من أجل شقيقته التي سلمها إلى بيت العذارى في الإسكندرية، وانطلق إلى شاطئ النهر واتخذ موضعه عند جميزة، حتى عنفته مجموعة من الفتيات جئن للاستحمام عند النهر وخشين أن يكشف سترهن، فانطلق إلى الصحراء، ومكث بها، وذات يوم أصابه الضيق، وهاجمته الأفكار؛ فصرى للرب أن يهديه؛ فأرسل الرب له ملكًا عليه رداء طويل متوشحًا بزناار صليب، وعلى رأسه قلنوسة تشبه الخوذة، وكان جالسًا يضر الخوص، ثم قام يصلي، وعاد ليضر الخوص، ثم قال لأنطونيوس: «اعمل هكذا وأنت تستريح»، فاتخذ أنطونيوس ذلك الزي للرهبنة، وصار يصلي ويشغل في تضيير الخوص، وكرس الأنبا أنطونيوس نفسه لحياة الزهد في مغارة (وادي عربة) الواقعة على منحدر المرتفعات الجنوبية لـ(جبل الجلالة) على بعد ستين كم من شواطئ البحر الأحمر.

وكانت حياته نموذجًا لنظام (الوحدة)، وفيه يعيش الراهب حياته منفردًا، إلا أن تلامذته أقاموا حوله وبالقرب منه، وبعدها قاموا بنشر حياة الرهبنة في مختلف الأرجاء، ومنهم القديس مكاريوس في الإسقيط، والأنبا باخوميوس في صعيد مصر. وتحيي الكنيسة القبطية ذكرى القديس أنطونيوس في ٢٢ من طوبة (٣٠ يناير)، بينما تحتفل به الكنيسة الغربية في ١٧ من يناير؛ حيث يُعرَف بـ(سانت أنطوني).

\*\*\*

جاء القديس (باخوم) ليضع نظامًا وقواعد لحياة الرهبنة خلال القرنين الخامس والسادس. وبعدها تأسست عشرات الأديرة في صحاري مصر وعلى امتداد وادي النيل في القرن الخامس، كانت هناك اثنتا عشرة كنيسة، وعشرة آلاف راهب، واثنتا عشرة راهبة في مدينة (البهنسة).

كان والد الأنبا باخوميوس أو باخوم من سكان الصعيد عابدًا للأصنام، وباخوم من جنود الملك، وذات يوم وبينما كان مسافرًا مع الجنود وهم بحال سيئة أتاهم أهالي إسنا بطعام، فسأل باخوميوس عن سر تصرفهم؛ فقبل له إنهم مسيحيون، وهم يفعلون ذلك من أجل إله السماء؛ فأخذ عهدًا على نفسه أن يعتنق المسيحية، ويخدم المحتاجين.. ولما غلب الملك أعداءه قام بتسريح الجيش، وانطلق باخوميوس ليعتمد، وبعد ثلاث سنوات أعلن ترهبته على يد القديس (بلامون).

شيد باخوم عددًا من الأديرة، أولها عام ٣٢٣ م، وأسس تسعة أديرة للربان وديرين للراهبات. ضمت تلك الأديرة حوالي عشرة آلاف راهب.

نظم باخوميوس قوانين الرهبنة: «الصوم بمقدار، والصلاة بمداومة، وعفة الجسد، وطهارة القلب، وسكوت اللسان، وحفظ النظر، والتعب بقدر الإمكان، والزهد في كل شيء». وكان الأنبا يشاطر رهبانه في العمل في الحقول لتأمين المأكل.

ويُحسب للأبنا باخوم أنه أول مَنْ أسس نظام (الشركة) في الرهبة؛ حيث يحيا الرهبان جماعات يصلون معًا، وينام كل ثلاثة منهم في قلاية واحدة.. يمارسون الصلوات معًا، ويقسمون العمل فيما بينهم، وهو ما يُدكرنا بنظام الخانقاوات وتكايا للمتصوفة.

في سنة ٣٤٨ م تفشى وباء الطاعون في مصر، ووصل إلى الأديرة في الصحراء، وأصيب به الأبا؛ مما أدى إلى وفاته.

الشخصية الثالثة المهمة في تاريخ الرهبة المصرية: الأبا شنودة (رئيس المتوحدين) ٣٤٨-٤٦٦ م.

هو أيضًا صعيدي من قرية شندويل التابعة لمركز المراغة محافظة سوهاج، هو أهم شخصية تمثل رهبة الشركة في مصر بعد القديس باخوميوس. كان جميع رهبانه من المصريين، ولم يقبل في ديره أجنبيًا، ولم يستعمل في كتاباته سوى اللهجة المصرية الصعيدية؛ إذ كان معتزًا بالتراث القبطي. وقد وضع نظامًا للرهبنة أكثر حزمًا من النظام الباخومي.. وكان أبا للعديد من الرهبان والراهبات.

### وانتشرت الرهبة من مصر إلى العالم

يعود الفضل في ذلك أولاً إلى تلامذة القديس أنطونيوس الذين انتشروا في ربوع الأرض، ومنهم: الراهب أوكين المصري الذي نشر حياة الرهبة في العراق، وهيلاريون الذي نقل حياة الرهبة إلى فلسطين، وقد كان هيلاريون من إحدى القرى القريبة من غزة، أرسله والداه إلى الإسكندرية لتعلم النحو، ولما سمع عن الأب أنطونيوس اتجه إلى خلوته في الصحراء الشرقية (مكان دير الميمون الآن في منتصف المسافة بين أطيح وبني سويف)، ولما عاد هيلاريون إلى فلسطين تنازل عن جزء من أملاكه لإخوته وتصدق بالباقي؛ مقتدياً بأبي الرهبان أنطونيوس.

كما زار مصر نساك من أوروبا، ونقلوا حياة الرهبان الأقباط إلى بلدانهم، ومنهم (روفين) الذي وصف صحراء مصر في امتلائها بالرهبان والراهبات كأنها تحولت إلى سماء مرصعة بالنجوم. ومنهم: القديس باسيليوس الكبير منظم الحركة الرهبانية في آسيا الصغرى، والقديس (جيروم) الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية. والقديس أرسانيوس (معلم أولاد الملوك) الذي اختير ليعلم ابني الملك ثيو دوسيوس حتى جاءه هاتف يومًا: «اهرب من الناس وأنت تخلص»؛ فترك بلاط الملك إلى حياة الرهبنة في إسقيط مصر ٣٩٤ م. وفي مغارة بعيدة عاش أربعين سنة، ثم انتقل إلى جبل طرة، وأمضى به نحو اثنتي عشرة سنة، وثلاث سنوات قرب كانوب بالإسكندرية.

إلا أن الزيارة الأهم كانت في القرن الخامس الميلادي؛ حيث جاء ملك أيرلندا إلى مصر؛ بحثًا عن شفاء لمرض ابنه العضال، في ماء البحيرة الموجود بجانب جسد مارمينا بديره، ولما شفي الابن اعتنق الملك المسيحية، واصطحب إلى بلده عددًا من الرهبان المصريين؛ للتبشير بالمسيحية. ومن أيرلندا انتشرت المسيحية في كل البلدان المجاورة، وحتى الآن ما زالت توجد في أيرلندا الشمالية مدينة باسم (مارمينا)، وفي أيرلندا الجنوبية تم اكتشاف مقبرة للرهبان الأقباط السبعة من دير المحرق الذين اصطحبهم الملك معه.

وجاءت الخطوة المهمة في تعريف العالم بتعاليم الرهبانية للقديس أنطونيوس، على يد أثناسيوس الرسولي السكندري الذي تتلمذ على يد الأنبا أنطونيوس ولازمه زمناً طويلاً، وعنه كتب (حياة القديس أنطونيوس الأكبر)، وفيها تحدث عن انتصارات القديس على الشيطان وعن رسائل القديس وكتاباته، وكلماته الموحية: «الطاعة مع الزهد يهبان البشر سلطاناً على وحوش البرية».

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى اليونانية وغيرها، وكانت موضوعاته موحية للفن والأدب الغربي، حتى رسم مايكل أنجلو لوحته الشهيرة عن إغواء القديس أنطونيوس،

واللوحة محفوظة في متحف كيمبل للفن في تكساس.

كما رسم الفنان فرا أنجيليكو (١٣٩٥-١٤٥٥) لوحة عن إغراء القديس أنطونيوس بقطعة ذهب، وهي محفوظة في متحف الفنون الجميلة بهيوستن.

ثم كانت الصداقة بين (باسيليوس الكبير) أسقف قيسارية في إقليم كبادوكيا بآسيا الصغرى مع الأسقف السكندري إثناسيوس، رافداً آخر انتقل عبره فكر الرهبانية إلى آسيا الصغرى.

\*\*\*

أسهم كثير من النساء اللواتي أتين إلى مصر في نشر الرهبنة، منهن القديسة باولا الرومانية التي تنقلت بين قبرص وأنطاكية، ثم استقرت في فلسطين، وأسست بها ديراً ترأسته ابنتها بعد وفاتها.

وهناك القديسة ميلانيا الإسبانية التي جاءت الإسكندرية ٣٧٣ م، ومكثت في وادي النطرون، وبعد نفيها توجهت إلى فلسطين لتؤسس ديراً ضم أربعين عذراء.

# الفصل الرابع

## عالم القديسين والقديسات

القديسون والقديسات في المسيحية هم المقابل لظاهرة الأولياء لدى المسلمين، وهم مثلهم أصحاب كرامات ومعجزات، ولهم موالد تحمل أسماءهم.

والقديسون أنواع - كما ذكر موقع الأنبا تكلا هيمانوت الخاص بتراث الكنيسة القبطية الأرثوذكسية - نقلاً عن كتاب القمص تادرس يعقوب ملطي (سلسلة آباء الكنيسة وقديسيها):

- **شهداء المسيحية الأوائل:** وهم من استشهدوا في عصر الاضطهاد الروماني، بدايةً من نيرون ٦٤ م، وحتى دقلديانوس ٣١٢ م، وهو أكثر إمبراطور روماني نكل بالمسيحيين، حتى لُقّب عصره بـ«عصر الشهداء»، واشتهر في أيامه ثلاثة ولاة بمصر كانوا يتفنون في التعذيب، هم: أريانا أو أريانوس والي أنصنا (بجوار ملوي)، وانتهت حياته باعتناق المسيحية واستشهاده، وأرمانوس والي الإسكندرية، وبومبيوس والي الفرما.
- **المعترفون:** وهم من لاقوا صنوف العذاب من أجل مسيحتهم، لكنهم لم يصلوا إلى مرحلة الاستشهاد.
- **السواح:** وهم الرهبان الذين قضاوا حياتهم في التسبيح والصلاة، ويعيشون في الصحراء، وقد يتنقلون بين مكان ومكان.
- **المتوحدون:** الوحدة هي درجة عالية في الرهبة.
- **الرهبان:** الراهب هو من يعيش بتولاً لا يتزوج، ولا يأكل إلا الضروريات.
- **الكهنة:** وتطلق على رجل الدين الذي يقوم بخدمة الناس ويسعى لمصالحهم.

- **الأساقفة:** وهي من الكلمة اليونانية (إيبي سكوبو)، ومعناها: ناظر من فوق أو رقيب.
- **البطاركة:** والبطيريك هو أب الآباء، أو رئيس الآباء.

القديس -حسب الكتاب المقدس- هو الإنسان المخصص للرب؛ كما ورد في سفر الخروج ١٣: ٢ عندما كلم الرب موسى قائلاً: «قُدِّس لي كل بكر، كل فاتح رحم من الناس ومن البهائم، إنه لي».

والقداسة مرتبطة بالقدرة على صُنْع العجائب، وهناك القديس الشفيح أو الوسيط أو المحامي في السماء الذي يقوم بحماية بلدة أو أمة أو قرية. وشفيح المكان يكون هو مَنْ ولد أو عاش فيه أو نقل رفاتة إليه، فالقديس بندكت النيرسي شفيح القارة الأوربية، والسيدة غوادالوبي راعية الأمريكيتين، موسى الحبشي شفيح أفريقيا، والقديس بيتر كلافير شفيح العبيد، وسركيس وباخوس شفعاء المسيحيين العرب، وكانا جنديين في الجيش الروماني إبان القرن الثالث، ولما كُشِفَت مسيحيتهما تم تعذيبهما حتى استشهدا في سوريا.

وفي حين أن السيدة العذراء هي شفيحة المؤمنين، وأهم مَنْ يلجأ إليه المسيحي بل والمسلم على حد سواء، فلكل قديس شفاعة في أمر محدد؛ فالقديس الأنبا ونس شفيح المتضايقين وشفيح الأشياء الضائعة والمفقودة، والقديس برسوم العريان لصيد الثعابين، والقديس أبو سيفين شفيح الأمراض المستعصية، والقديس أبانوب شفيح الأطفال والمتعسرات في الولادة، ومارجرجس طارد الشياطين، الأنبا شنودة رئيس المتوحدين لصيد العقارب، القديسة أبولينا شفيحة مرض الأسنان، والقديسة مارينا شفيحة السيدات المتعثرات في الولادة، والقديسة ريتا شفيحة الحالات المستعصية.

هكذا ظهر القديسون والقديسات مع النشأة الأولى للمسيحية، وحسب المؤرخ د. مجدي جرجس؛ فقد ظهرت في القرن الرابع عشر الميلادي سير جديدة لقديسين محليين في الوقت نفسه الذي ظهر فيه أولياء مسلمون؛ مسترشداً بما ذكرته د. نيللي

حنا حول سقوط الدولة العباسية عام ١٢٥٨ م، وما أحدثه من تغييرات على كافة الأصعدة، ومنها: الثقافة والنظرة إلى العالم، فسقوط الشخصية المركزية التي ترمز إلى وحدة العالم الإسلامي أحدث ميلاً نحو المحلية والانكباب على الشأن المحلي.. جانب من هذا برز في ظهور أولياء محليين خاصين بكل إقليم في مقابل الأولياء والصالحين الذين يمثلون قيمة لكل العالم الإسلامي، وشهدت مصر بروز أولياء محليين: (عمر بن الفارض، وإبراهيم الدسوقي، وأبو الحجاج الأقصري، وأبو الحسن الشاذلي، وأحمد البدوي).

وعلى المنوال نفسه يذكر مجدي جرجس أنه: «ظهر قديسون محليون في القرن الرابع عشر، وهم على الترتيب: (برسوم العريان، فترة ولايته ١٢٥٧-١٣١٧، ومرقس الأنطوني، فترة ولايته ١٢٩٦-١٣٨٦، وإبراهيم الفاني من دير الأنبا أنطونيوس، فترة ولايته ١٣٢١-١٣٩٦، والقديس رويس، فترة ولايته ١٣٣٤-١٤٠٤».

في القرن الثالث عشر توالى المدونات الكنسية لتوحيد نُظم الكنيسة، وحسب د. مجدي جرجس، كان الهدف توحيد القراءات والطقوس في كل أرجاء مصر بعد أن تميز كل إقليم بقراءات خاصة به وبسير قديسين خاصة به أيضاً، فتم توحيد القراءات والطقوس وتدوينها وتعميمها، منها كتاب (السنكسار)، وهو السجل الرسمي لسير القديسين التي تُتلى في الكنيسة قبل الإنجيل مباشرةً. (السنكسار) كلمة يونانية معناها الجامع أو الحاوي.

\*\*\*

القديسون في المسيحية لا قباب لهم ولا أضرحة كتلك المعروفة عند الأولياء المسلمين. والموالد المسيحية ليست مرتبطة بوجود أضرحة لأصحابها، فالسيدة العذراء، ومارجرجس، وغيرهما ليسوا مدفونين في مصر، ولكن للقديسين كنائس

تُشَيِّد بأسمائهم ورفات يتم الاحتفاظ به في أسطوانات زجاجية؛ من أجل التبرك به، وأيقونات مقدسة تحفظ صورهم وسيرهم.

والموالد المسيحية يتم تحديدها وفقًا للتقويم القبطي؛ بحيث توافق يوم نياحة القديس (وفاته)، وليس يوم مولده، والاحتفال بالمولد بموعد ثابت ومحدد، وليس وفق الدورة الزراعية كما يحدث في بعض الموالد الإسلامية.

ولا يوجد تعداد رسمي بعدد موالد الأقباط، وإن ذكر الباحث عرفة عبده عرفة أنه يمكن حصرها في ستين أو اثنين وستين مولدًا. كما يمكن أن يُقام أكثر من مولد باسم قديس واحد، خصوصًا السيدة العذراء، أو القديس مارجرحس، ولعل أكثر الأماكن شهرةً بإقامة الموالد تلك الواقعة بطول رحلة العائلة المقدسة في مصر.

\*\*\*

الأولياء في المسيحية يتم تكريم رفاتهم، وهو تقليد غير موجود بالنسبة للأولياء المسلمين.. والبعض يرى عملية تكريم الرفات امتدادًا وراثيًا لعادة المصري القديم في تكريم أجساد موتاه بتحنيطها وتطيبها وإن اختلفت الأهداف؛ فالمصري القديم كان يفعل ذلك حتى تهتدي الروح إلى الجسد في العالم الآخر.. أما القديسون فيتم التعامل مع رفاتهم بوصفها (ذخائر) أو مقتنيات مقدسة لا بد من تكريمها، وهو تقليد يعود إلى العصور الأولى للمسيحية؛ حيث يتم التعامل مع الأجساد على أنها نفوس حية وليست عظام موتى؛ حسب تصريح للقس أنطونيوس فهمي كاهن كنيسة مارجرحس للمصري اليوم بتاريخ ٦ من يوليو ٢٠١٩؛ حيث قال: «يقول الله: (أنا إله أحياء وليس إله أموات)، فحتى لو انتقلت نفوسهم فعظامهم مكرمة»؛ مستشهدًا بأن موسى النبي ويشوع عندما خرجا مع الشعب من أرض مصر أخذًا معهما عظام يوسف العفيف؛ لأنه لا يليق أن تُترك في مصر.

وهناك طقس معروف في الكنيسة يخص تطيبب الرفات، ويتم في احتفالات وله طقوس؛ حيث يصنع الكاهن حنوط البركة من زيت عطري وزيت الناردين؛ بوصفه أحد العطور المقدسة لدى المسيحيين؛ حيث سكبته امرأة على وجه المسيح ففرح به، ويؤصَع المزيج مع مواد عطرية أخرى لتصنع ما يشبه العجينة التي تُتلى فوقها الصلوات والتراتيل، ويُدهن بها الأنبوب الأسطوانى الذي يُحفظ داخله الرفات. وتطيبب الرفات مأخوذ من فكرة قيام ثلاث من النساء يحملن اسم مريم بتطيبب قبر المسيح.

**«وبعدما مضى السبت، اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطًا لياأتين ودهننه». مرقس ١- ١٦.**

وفي أثناء تطيبب الرفات في الاحتفال بالكنيسة يقوم الناس بإلقاء مناديلهم لتلتصق بالحنوط؛ لينالوا شيئًا من بركته.

\*\*\*

تحيط سير القديسين والقديسات الكثير من الحكايات حول الكرامات والمعجزات شأن الأولياء المسلمين، منها ما جاء في سيرة البابا خيال الثالث (٨٨٠-٩٠٧ م) عن الشهيد تادرس وخدامويه بن أحمد بن طولون، وتقول الرواية إن خمارويه في أثناء زيارته لدير الأنبا مقار أبصر صورة الشهيد تادرس، وكان في يد خمارويه ريحانة، فرمى بها إلى الصورة، وقال: «خذها يا فارس يا شجاع». فخرجت يد من الصورة وأخذت الحزمة وأقمتها في يده حتى أبصرها الكل، وأمر خمارويه بعمل صليب في الصورة لتمييزها. وقيل إن الريحانة في اللغتين اليونانية والقبطية ترمز إلى الملك؛ أي أن خمارويه تنازل عن الملك للشهيد تادرس، والذي قبل منه الهدية.

وفي القرن الحادي عشر وفي سيرة الأنبا زخرياس ال(٦٤) (١٠٠٤-١٠٣٢ م) نقرأ أن الأنبا مرقورة أسقف شلبانة أصابه البرص؛ فذهب إلى الأب زخرياس وشكا له، فنصحه بالصلاة، فخرج الأنبا مرقورة إلى كنيسة السيدة العذراء، وأسند رأسه إلى الحائط الموجود عليه صورة العذراء، فرأى وكأن يدها قد مسحت جسمه؛ فاستيقظ معافى من مرضه.

وفي سيرة البطريرك خويستونلوس (١٠٤٧-١٠٧٧ م) أن صورة مارمينا الشهيد الموجودة في (أبو مقار) سال منها دم وعلامته باقية إلى الآن.

وهناك المعجزات الخاصة بالقديس مينا العجائبي، وتدور حول قدرته على الشفاء، ويُقال في ذلك إن المسيح تجلى له قبل استشهاده، وقال: «إنك سوف تُوهب ثلاثة أكليل: إكليل من أجل استشهادك، وإكليل من أجل بطولاتك، وإكليل من أجل توحُّدك في الصحراء»، وحتى الآن يزور الكثيرون من مصر وخارجها ديرها؛ بحثًا عن معجزاته؛ لشفائهم من الأمراض المستعصية.

\*\*\*

العذراء البتول دومًا القديسة الطاهرة مريم أهم القديسين قاطبة؛ فهي في المعتقد المسيحي أم الله، وقد استنها أمر مشترك بين المسلمين والمسيحيين؛ ففي اليقين الإسلامي هي أظهر نساء العالمين التي خصها الله بسورة قرآنية كاملة، وهي في الوجدان الشعبي شافية كل الأمراض وشفيعة المتألمين. والمصريون لا يتحدثون عنها إلا بقولهم: «ستنا مريم»؛ فهي في وجدانهم القريب أم النور التي تشبه «ستنا زينب» أم العواجز، وفي وجدانهم البعيد امتداد لأهمهم إيزيس التي منحتهم دموعها (النيل) واهب الحياة. يُقام من أجل «ستنا مريم» في مصر أكثر من مولد، أحدها في مسطرد؛ لأنها إحدى المناطق التي زارتها العائلة المقدسة، وبها بئر شربت منها العائلة، ويُقام المولد في منتصف شهر أغسطس من كل عام؛ تزامنًا مع صيام العذراء. وهناك

مولد درنكة بأسيوط؛ حيث عاشت العائلة المقدسة لبعض الوقت ومولد العذراء في جبل الطير بالمنيا.

\*\*\*

القديس مرقس الرسول من أهم القديسين في المسيحية؛ بوصفه من التلاميذ السبعين الذين اختارهم السيد المسيح للتبشير بالمسيحية حول العالم. ويُقال إن منزل أسرته هو الذي شهد عشاء المسيح الأخير مع تلاميذه الذي أسس فيه أول قداس إلهي. وبالنسبة للمصريين هو الأهم بين القديسين؛ فهو مَنْ بَشَّرَ بالمسيحية على أرض مصر؛ لذا يُعرَف بـ«كاروز الديار المصرية»؛ أي المبشر، وهو مؤسس الكنيسة الأرثوذكسية، وأول بطريرك لها، وهو كاتب أول إنجيل، وصاحب فضل إنشاء المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية التي أضحت لها مكانتها في العالم بأسره، وكان يدرس فيها اللاهوت والفلسفة والمنطق والطب والهندسة. وتحتفل الكنيسة بذكرى استشهاده حسب التقويم القبطي في ٨ من مايو الذي يوافق ٣٠ من شهر برمودة لعام ١٧٣٦ قبطيًا، ٦٨ ميلاديًا.

وُلد القديس مرقس في القيروان بليبيا من أبوين يهوديين، وهاجرت أسرته إلى أورشليم. بدأت رحلته التبشيرية في كل من أنطاكية وقبرص ثم آسيا الصغرى، برفقة القديس بولس، وقاما بتأسيس عدة كنائس في أوروبا، وفي مقدمتها كنيسته في روما. ثم وصل إلى الإسكندرية، وقد اختلفت المراجع التاريخية حول موعد دخول القديس إليها، ففيها مَنْ حددها بسنة ٥٥ ميلادية، وهناك مَنْ قال ٦٠، أو ٦١، أو ٦٢ ميلادية. وأيًا كان التاريخ فالظروف في المدينة كانت واحدة خلال تلك السنوات، فالمدينة كانت مجرد ولاية رومانية منذ خضعت للإمبراطور يوليوس قيصر ٤٨ قبل الميلاد، وكان أهلها يعانون من الضرائب الباهظة والاستبداد والظلم، وفي ظل ذلك جاء مرقس إلى المدينة بالمسيحية مبشرًا بالخلاص، كان أول مصري يفتح قلبه

للدين الجديد (أنيانوس) الإسكافي، وكان بيته النواة الأولى للكنيسة المسيحية في مصر، الكنيسة المرقسية، التي ظلت مقرًا لبطريك الكنيسة لمدة ألف عام، ثم انتقل المقر عدة مرات إلى أن أصبح الآن في القاهرة بالعباسية.

أما القديس مرقس فقد استشهد على يد مجموعة من الوثنيين كانوا يحتفلون بعيد العجل أبيس، استفزهم احتفال أصحاب الديانة الجديدة بـ«عيد الفصح»؛ فهجموا على المكان المعروف باسم (كنيسة بوكاليا)؛ أي (دار البقر)، بيت الإسكافي القديم، وألقوا القبض على القديس مرقس الذي كان في تلك اللحظة يرفع القربان، فربطوه بحبل وسحلوه في طرقات المدينة صائحين: «جروا التنين في دار البقر». وزحفوا بالقديس على الأرض حتى تناثر لحمه ودمه على الطرقات، ثم وضعوه في سجن مظلم حتى استشهد في اليوم الثاني، فعزم الوثنيون على إحراق جسده، ولكن الأمطار هطلت يومها بشدة؛ فانطفأت النيران. أخذ المؤمنون جسد القديس مرقس من بين الرماد، ومضوا به وصلوا عليه وكفنوه، وحفروا له قبرًا ودفنوه في كنيسة (بوكاليا) دار البقر. ولما كان جسد مرقس قد انفصل عنه الرأس، حدث أن جاء أحد تجار البندقية فاستولى على الجسد، وذهب به إلى روما حيث أُقيمت له كاتدرائية كبيرة لا تزال موجودة إلى اليوم؛ لأن مدينة البندقية تعد أن شفيعها وحاميها القديس مارمرقس، ولذلك نجد أن رمز مدينة البندقية (الأسد المجنح) رمز القديس مارمرقس. وحسب المراجع الكنسية فإن ارتباط مارمرقس برمز الأسد إما لأن ذلك يتعلق بأولى معجزاته حينما قتل أسدًا ولبؤة باسم الرب، أو لأن إنجيله يبدأ بصراخ الأسد «صوت صارخ في البرية».

وقد ظل رأس مارمرقس موجودًا في الإسكندرية. وفي عام ٦٤١ م دخل أحد البحارة العرب الكنيسة التي بها رأس مارمرقس، ووجد صندوقًا مزيّنًا؛ فظن أن به جواهر، لكن في الحقيقة كان الصندوق يحتوي على رأس القديس مارمرقس. وعند رحيل الأسطول العربي تحركت كل المراكب ما عدا مركبًا واحدًا، فاندesh عمرو بن العاص، وأمر بتفتيش المركب، وأخرج هذا الصندوق؛ فوجد المركب قد سار. وبدأ عمرو بن

العاص يبحث عن سر هذا الصندوق، فعرف من البحار أنه سُرق من الكنيسة؛ فأمر بحضور البابا بنيامين وسلمه رأس القديس مارمرقس، وتبرع له بمبلغ ١٠٠٠٠ دينار؛ كي يرمم كنيسة القديس مارمرقس.

بعد انضمام الكنيسة القبطية إلى مجلس الكنائس العالمي في العام ١٩٦٣م، طلب البابا كيرلس السادس من بابا روما بولس السادس، استعادة رفات مارمرقس. وفي سنة ١٩٦٨ م، عاد إلى القاهرة رفات القديس في احتفالية ضخمة حضرها عدد من رؤساء الكنائس والسفراء في جميع أنحاء العالم في مشهد مهيب، وأصر البابا كيرلس على الصعود إلى سلم الطائرة لاستلام الرفات بنفسه، وحمله على كتفه وسط تراتيل الشمامسة. وتم إيداع رفات القديس مارمرقس في مزاره الحالي تحت الهيكل الكبير في شرقية الكاتدرائية.

\*\*\*

رغم أنه لم يُولد في مصر أو يعيش بها؛ فإن مارجرس هو الأشهر بين القديسين وأيقونته جزء لا يتجزأ من البيوت المسيحية في مصر. وله عدة موالد، أشهرها تُقام في ميت دمسيس والزريقات بالأقصر. وهذا القديس (٢٨٠-٣٠٣ م) وُلد في فلسطين لأبوين مسيحيين، ولما بلغ السابعة عشرة التحق بالجنديّة، وترقى إلى رتبة قائد ألف في حرس الإمبراطور الروماني دقلديانوس أكثر من اضطهد المسيحيين. ولما عرف الإمبراطور اعتناق مارجرس للمسيحية حاول أن يرده عن عقيدته، فلما فشل قام بتعذيبه حتى استشهد وهو صاحب لقب (أمير الشهداء)، ويُعرف في الكنيسة الغربية بـ(سان جورج)، وهو الاسم الذي اختاره كثير من الملوك البريطانيين. أما قصته مع التنين فيقال إنه كان هناك تنين بنى عشًا عند مدخل نبع ماء كان هو الوحيد في المدينة؛ فاضطر الأهالي إلى استدراجه بعيدًا عن النبع بتقديم خروف يوميًا؛ فلما نفدت الخراف كانوا يُقدّمون له شخصًا مختارًا بالقرعة، وحدث أن كانت

الضحية أميرة، وحينها تشفع والدها بالقديس جرجس الذي ظهر وأنقذ الأميرة وقام بقتل التنين محتمياً بالصليب.. ويرى البعض أن التنين هو الشيطان، وأن الأميرة هي زوجة الإمبراطور دقلديانوس التي اعتنقت المسيحية وأمر دقلديانوس بقطع رأسها.. ويقال إن هذه القصة دارت في بيروت، ولذا تُوجَد كنائس بها عديدة تحمل اسم القديس مارجرجس. كما أن مارجرجس هو الشفيح للعديد من المدن الفلسطينية، ومنها بيت لحم، وفي إنجلترا أكثر من ١٥٠ قرية تحمل اسمه ونقش صورته على الجنيه الذهب الإنجليزي. وفي روسيا وسام يحمل اسمه (جاورجيوس) يُمنَح للقادة العظام. كما اختير القديس شفيحاً لروسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

### قديسون مصريون بشهرة عالمية

في مصر قديسون مصريون مولدًا ونسبًا، ولهم شهرة عالمية ومريدون في مصر وخارجها بمئات الآلاف، منهم: القديس ودامون الأرمني (١٨مصرى)، ومعنى اسمه في اللغة المصرية (الخاص بآمون)، أول شهيد مصري وأول شهيد في الصعيد.

تذكر المصادر المسيحية قصة استشهاده كالتالي: سمع (ودامون) من الوثنيين أن امرأة وصلت إلى بلاد الأشمونيين ومعها طفل صغير يشبه أولاد الملوك؛ فذهب لرؤية الصبي الذي ما إن رآه تبسم في وجهه، وقال له: «السلام لك يا ودامون، قد تعبت وأتيت إلى هنا لتحقيق ما سمعت من حديث ضيوفك عني؛ لذلك سأقيم عندك ويكون بيتك مسكنًا لي للأبد؛ لأنك إذا عدت من هنا، وسمع عابدو الأوثان أنك كنت عندنا؛ يعز عليهم ذلك ويسفكون دمك في بيتك، فلا تخف؛ لأنني أقبلك عندي في ملكوت السماوات إلى الأبد مكان الفرحة الدائم الذي ليس له انقضاء، وأنت تكون أول شهيد في بلاد الصعيد».

فقام الرجل وسجد للسيد المسيح؛ فباركه، ثم انصرف راجعًا إلى بيته. فلما عاد (ودامون) إلى أرمنت سمع عابدو الأوثان بوصوله، وشاع الخبر في المدينة، فرؤى لهم ما حدث؛ فأشهروا سيوفهم عليه؛ فاستشهد. ولما انتشرت المسيحية جعلوا بيته

كنيسة على اسم العذراء، وتُعرَف باسم (الجيوشنة)؛ أي: كنيسة الحي، وما زالت قائمة.

وكما يتوزع الأولياء المسلمون على كافة محافظات مصر، نجد الكثير من القديسين في مختلف المحافظات، ففي مدينة قلين بمحافظة كفر الشيخ، يتداول الأهالي قصة القديس أبسخيرون الذي وقف في مواجهة الإمبراطور دقلديانوس الذي أذاق المسيحيين صنوف العذاب، فكان جزاء القديس الحبس والتعذيب، ثم قطع رأسه بحد السيف، ونقل رفاته إلى دير الأنبا صموئيل، ومنها إلى دير الأنبا مقار. وله أيقونة في كنيسة أبي سيفين بمصر القديمة من رسم إبراهيم الناسخ، وفيها يقف القديس وقد ارتدى ملابس جندي روماني وعلى رأسه تاج وأمامه مبنى بصليب مكتوب عليه «الكنيسة المنقولة»؛ حيث يقال إن القديس بُنيت له كنيسة في بلدته ومسقط رأسه قلين، لكن الناس كانوا أشرارًا، فظهر القديس على حصانه إلى أناس كانوا يحتفلون بعرس في قرية (البهو) مركز سمالوط، وقال إنه يريد قطعة أرض، فلما وافقوا انتقلت الكنيسة من قلين إلى البيهو.

وفي الأقصر يُقام احتفال سنوي في السابع من شهر كيهك (١٧ ديسمبر) بدير جبل أصفون، وهو عيد القديس متاؤس الفاخوري الذي وُلِد بالأقصر من أبوين مسيحيين في القرن الثامن الميلادي. تعلّم من والده صناعة الفخار؛ فعُرف بـ(الفاخوري). مات والداه وهو صغير فعرف طريق الرهبنة، وعاش في مغارة حتى تآنست به الوحوش وصارت تعيش معه في المغارة؛ لذلك تُرسم صورته ومعه الضبعان اللذان أقاما معه لمدة اثنتي عشرة سنة؛ فعُرف باسم (صديق الوحوش). كان يحيا حياة المسكنة الروحية؛ فسُمي (مثنى المسكين)، أعطاه الله موهبة شفاء المرضى، وإخراج الشياطين، ومعرفة الغيب.. ويُعد دير جبل أصفون من أهم الأديرة الأثرية بالصعيد، فيرجع تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي، وفي القرن الثامن عاش فيه القديس متاؤس، وقام بتعميره، وقد ذكره العديد من الرحالة.

وفي المنوفية تظل بائيسة القديسة التائبة هي الأهم والأشهر، فهي من مواليد منوف في القرن الرابع الميلادي، والقصة المتداولة عنها تشير إلى أنها بعد وفاة والدها وزعت أموالها على الفقراء. أغواها الشيطان فاستسلمت للخطيئة، فسمع الآباء بذلك، فصلوا من أجلها، وذهب إليها أحد القديسين يسألها التوبة، وطلب منها أن تترقد، وبينما هي في ذلك الوضع رأى القديس عمودًا من النور نازلًا من السماء متصلًا بالأرض وملائكة الله حاملين روح بائيسة، ولما اقترب منها وجدها قد ماتت؛ فسجد وصلى بحرارة؛ لأن توبتها قبلت.. ويُقام للقديسة عيد سنوي في ٢ مسري (٨ أغسطس) من كل عام.

وفي المنوفية قديس آخر وُلد بها حوالي سنة ٢٨٥ م هو القديس مينا العجائبي، كان والده حاكمًا للمدينة، وقد رُزق به بعد فترة من عدم الإنجاب، فوالدته كانت عاقراً؛ فأخذت تصلي للعدراء وتتوسل إليها حتى أنجبت ولدها مينا؛ أي: (أمين).

لقنه والداه تعاليم الكتاب المقدس، لكنهما توفيا وتركاه وحيدًا. بعد سنة من وفاة والدته عُيّن جنديًا وهو في الخامسة عشرة من عمره. قام الحاكم الجديد بتولية الجندي مينا الفرقة الرومانية بشمال أفريقيا؛ تقديرًا لوالده. وفي أيام الإمبراطور دقلديانوس أعلن القديس مينا بشجاعة عن إيمانه؛ فتم القبض عليه وتعذيبه بجلود سيور مصنوعة من جلد الثور اللين وكشط جلده؛ فظهرت عظامه، ومُزق جسده بأوتاد حديدية، ودلكوا جراحه بملح، وإذا بالمسيح يظهر له في السجن، ورشم جسمه بالزيت؛ فانتعش جسد القديس، فأمر الوالي بنشر جسده؛ فذاب المشنار، وأخيرًا أمر بقطع رأسه وحرق جسده بالنار التي ظلت مشتعلة ثلاثة أيام دون أن يحترق الجسد، واستشهد في ٢٥ من نوفمبر ٣٠٩ م.

ويُذكر أنه خلال خروج القائد أثناسيوس ليحارب البربر الذين كانوا يهاجمون مدينة مريوط، أصر أن يأخذ معه جسد القديس، فلما وصلوا إلى الإسكندرية، حملوا الجسد على جمل إلى مريوط وهزموا البربر، وعند عودتهم رفض الجمل القيام والسير معهم؛

بالرغم من الضرب الشديد، فنقلوا الجسد على جمل آخر أقوى منه فلم يتحرك، وهكذا تكرر الأمر؛ فأدرك القائد أثناسيوس أن إرادة الله تقضي بأن يبقى جسد القديس في مريوط.

تم الكشف عن مقبرة القديس مينا خلال التنقيب من قِبَل المعهد الألماني للآثار بالقاهرة في الفترة ما بين ١٩٦١ وحتى عام ٢٠٠٢. وقد عُثِرَ أيضًا على ما يُعرَف بـ(قارورات مارمينا)، وهي مصنوعة من الفخار ومتعددة الأحجام، وكانت لحفظ الماء المبارك الذي نبع من عين بجانب القبر، وكان يشفي الكثير من المرضى.

وقد نال هذا القديس المصري شهرة عالمية، وله كنائس باسمه في: إيطاليا، وألمانيا، وإحدى قري إسبانيا، ويُقام له احتفال في يوغسلافيا.

\*\*\*

كنيسة قرب بلقاس بمحافظة الدقهلية شمال الدلتا شيدها الإمبراطورة هيلانة والدة الملك قسطنطين؛ من أجل القديسة دميانة التي نشأت من أبوين مسيحيين أواخر القرن الثالث الميلادي، وكان أبوها مرقس واليًا على البرلس والزعفران. رفضت الزواج وتفرغت لحياة العبودية؛ فبنى لها والدها قصرًا في الزعفران، والتف حولها أربعون عذراء وهبن جميعهن حياتهن للصلاة والتعب. استجاب والدها لتهديدات دقلديانوس، وقام بتبخير الأوثان؛ فغضبت دميانة، وحثت والدها على التراجع ففعل؛ فقطع دقلديانوس رأسه، ولما علم دقلديانوس بالأمر أرسل إليها مَنْ يطلب منها التراجع عن مسيحيته، ولما رفضت قام جنود دقلديانوس بتعذيبها، وألقوا بها في غياهب السجن؛ فجاءها رئيس الملائكة ميخائيل في منتصف الليل وسمع كل جراحاتها؛ فبدءوا يعذبونها بطريقة جديدة بقلع العين وسلخ الجلد، لكن حمامة بيضاء نزلت وحلقت فوقها؛ فصارت معافاة؛ فاضطر إلى ضربها بالسيف هي ومَنْ

معها من العذراوات.. كان ذلك في ١٣ طوبة (٢١ يناير) الذي أصبح موعدًا سنويًا للاحتفاء بها.

وفي كتاب معجزات وظهورات القديسة دميانة للأبنا بيشوي مطران دمياط والبراري، حكايات عن سيدة مصابة بالسرطان وضعت حنوط القديسة على معدتها؛ ففوجئت أنها تعافت من الورم، وفي رواية لسيدة أخرى من الفيوم تسجيل لمعجزة وقعت سنة ٢٠٠٥ م؛ حيث تركت السيدة ربع كيلو جرام من الذهب في منديل يحمل صورة القديسة دميانة، فعادت ولم تجد الذهب؛ فعابت القديسة دميانة، وقالت لها: «يبقى الذهب معاكي ويتسرق؟!». وحررت محضرًا، وفي اليوم نفسه عاد الذهب بعظمة القديسة دميانة. وهناك قصة رجل من الإسكندرية كان ابنه لا يسمع جيدًا، وبعد إجراء عملية جراحية وعلاج مكثف، ذهب إلى دير القديسة دميانة بالبراري، وقام نيافة الأبنا برشم الولد بالزيت، ونفخ في أذنه اليسرى؛ فشفي ببركة القديسة.

\*\*\*

سان إستيفانوس: رغم أنه ليس مصريًا؛ فإنه القديس الوحيد الذي أُطلق اسمه على حي عريق في مدينة مهمة هي الإسكندرية.. إنه القديس إستيفانوس أول شهيد في المسيحية ٣٤ أو ٣٥ م؛ حيث رجمه يهود القدس بالحجارة، وكان ضمن أول سبعة شمامسة لخدمة الكنيسة هناك. نُقلت رفاتة في عصور تالية من القدس إلى روما؛ حيث شُيِّدت له كاتدرائية سانتو إستيفانو، وهي من أكبر وأقدم الكنائس دائرية الشكل في مدينة روما.

سان إستيفانو.. هو الاسم الذي اختاره الكونت إستيفان زيزينيا للكنيسة التي شيدها بالمنطقة عام ١٨٦٣، ليخلد اسم القديس المسيحي الوحيد الذي سُمِّي به أحد شواطئ الإسكندرية الشهيرة، إلا أنه -ورغم هدم كنيسته بالإسكندرية في منتصف الثمانينيات- ظل اسمها الذي أُطلق بعد ذلك على المنطقة اسم (سان ستيفانو).

أما مقر قصر الكونت إستيفان زيزينيا، المطل على كورنيش بحر الإسكندرية، تم هدمه وتحويله إلى فندق كبير أطلق عليه لوكاندة وكازينو سان إستيفانو، قام ببنائه المهندس المعماري بوغوص نوبار، ابن نوبار باشا أول رئيس لوزراء مصر.

وقام الخديو توفيق بافتتاح الفندق، ليصبح واحدًا من أهم المنتجعات السياحية حاملاً اسم القديس إستيفانو.

\*\*\*

وفي سيناء يعلو دير سانت كاترين علم أبيض اللون يحمل حرفي (A. K)، وهما الحرفان الأولان من اليونانية (أجينا كاترينا)، وهي القديسة كاترينا التي يتم الاحتفال بذكرى استشهادها في كل أنحاء أوروبا.. وهي قديسة سكندرية اعتنقت المسيحية؛ فأمر مكسيميانوس الثاني بصنع آلة تعذيب خصيصاً لها؛ عبارة عن عجلات يبرز منها مسامير وريوس سكاكين مدببة؛ ليضعوها فيها، ولما لم يؤثر هذا على إيمانها، أمر بقطع رأسها ٣٠٥ م، ولذا فإن صور الشهيدة التي يتم رسمها تظهر عادةً وبجوارها عجلة التعذيب، ويُقال إن موقع كنيستها في الإسكندرية هو مكان استشهادها.

بعد هذه الواقعة بخمسة قرون تقول الرواية إن راهباً رأى مجموعة من الملائكة تحمل جثمانها وتضعه فوق جبل في سيناء، فتم نقله إلى كنيسة التجلي في الدير، وإن كان بعض الباحثين شككوا في حقيقة وجود شخصية كاترينة، وقالوا إنها مجرد تجسيد لقصة استشهاد الفيلسوفة هيبتايا.

أما الدير فهو -وفقاً للرواية المسيحية- يحتفل يوم ٢٥ من نوفمبر كل عام بذكرى استشهاد كاترينة، ومن طقوس إقامة الاحتفال قطف العنب المزروع داخل الدير وتوزيعه على الحاضرين، وفي المساء يُفتح صندوق رفات القديسة ليُقبل الزوار

يدها اليسرى وجمجمتها، ويلقون خواتهمهم في صندوق القديسة ويعودون لأخذها بعد ثمانية أيام. وفي الثالث عشر من مارس سنويًا يحتفل الرهبان بذكرى العثور على جسدها.

زفة الأيقونة

أرواح القديسين تسكن الأيقونات

أجراس الكنيسة تدق، ورائحة البخور تنطلق في المكان وتتسلل من خلف منمنمات الأرابيسك في الهيكل، وعلى الجانبين لوحات خشبية تطل منها ملامح وجه صافية هي أقرب للملائكة منها إلى البشر، وعينان متسعتان تكاد من فرط تجسيدهما تشعر أنهما تحدقان فيك، وتأخذانك إلى عالم مغاير تُحلق فيه بعيدًا عن الأرض.. مشهد كالسحر في كل كنائس مصر، العتيقة منها بالذات؛ حيث تمتلئ بلوحات فنية تحمل صورًا للسيد المسيح والسيدة العذراء والملائكة والقديسين والقديسات تُعرّف بـ(الأيقونات).

الأيقونة هي مظهر ينفرد به عالم القديسين المسيحيين عن عالم الأولياء المسلمين، والأيقونات هي صور مكرمة لها قدسيتهما ويتم التبرك بها، وبعض الأقباط يحرصون على زيارتها واقتناء نسخ منها في بيوتهم. و(زفة الأيقونة) من أهم طقوس الموالد المسيحية؛ حيث يحمل الأيقونة الشماسون بزيتهم الخاص وهم يحملون الصلبان والآلات الكنسية.

والأيقونة هي خير ما أنجب الفن القبطي العتيدي الذي ظل طويلاً؛ ربما لوجوده -كما قال ثروت عكاشة- بين حقبتين عظيمتين من الفن هما العصر الفرعوني والعصر الإسلامي.

ومما لا شك فيه أن الفن القبطي يبقى صاحب الفضل في حفظ التراث الفرعوني بكل مفرداته، ومنها: ترانيم الكنيسة التي تردد صداها منذ قرون في المعابد

الفرعونية، وقواعد الفن التشكيلي المصري الذي تجلى في الأيقونات، بدءًا من اختيار الألوان واستغلال الخط في التصميمات.

الأيقونة فن مصري شعبي صرف، نشأ هنا على ضفاف النيل منذ النشأة الأولى للمسيحية. ولنقرأ ما كتبه المستشرق الألماني (فانسيليب) عندما زار مصر في القرن الـ١٧: «إن الأقباط ليس عندهم تماثيل في كنائسهم، ولكن صور، مثل: العذراء، والمسيح، ومارجرجس، والملائكة ميخائيل وجبريال، وغيرهم، وهم يوقرون الصور ويُقبّلونها ويوقدون أمامها الشموع، وعندهم إيمان أن الله يصنع البركات من خلالها. وفي مصر القديمة في دير مارجرجس يُوجد صورة لهذا القديس وقد أتوا بمجنون أمام الأيقونة؛ لأنهم يعتقدون أن المجنون يُشقى، وكذلك الحال بالنسبة لصور العذراء وهم يزينون الأيقونات بالورود والأقمشة».

وفي كتابه عن رحلته إلى مصر، يذكر (فانسيليب) ظهور للعذراء والقديسين في دير السيدة دميانة بالدلتا، وعند أيقونة الملاك ميخائيل في كنيسة مارمرقص بالإسكندرية.

يعود أصل كلمة (أيقونة) إلى الكلمة اليونانية (أيكون) بمعنى: أنا أشبه وأماثل، وهي ما تبقى من الفن الشعبي المصري الذي مارسه المصريون بعيدًا عن السلطة الرومانية، وهو فن شعبي يميل للبساطة. ويمكننا القول إن فكرة الأيقونة تطوير لما يُعرف بـ(بورتريهات الفيوم) التي كانت تحمل صورة وجه المُتوفى لتعرف الروح طريقها إلى الجسد، وقد ظهرت بورتريهات الفيوم في أواخر العصر الروماني. ومع دخول المسيحية مصر بدأ الفن القبطي الوليد يتأثر بفكرة البورتريهات؛ فكانت الأيقونة.

\*\*\*

موضوعات الأيقونات دينية مسيحية مأخوذة من الكتاب المقدس. لكن أهم الأيقونات على الإطلاق أيقونة السيد المسيح n التي يظهر فيها في مشهد الصلب، أو تلك التي تصور العشاء الأخير للمسيح مع تلاميذه. وهناك رواية معروفة حول طريقة الاحتفاظ بصورة السيد المسيح، وهي أن القديسة (فيرونيكا) مسحت وجه السيد المسيح بدافع من حبها له وإشفاقها عليه، أثناء سيره على طريق الآلام حاملاً الصليب على ظهره، وعند عودتها إلى منزلها وجدت أن صورة وجه السيد المسيح ظهرت على هذا المنديل.

وفي كتاب (المسيح مشتهى الأجيال) للأبنا بيشوي، أن السيد المسيح قد ترك صورته مطبوعة على المنديل وعلى الكفن المقدس، وعنها أخذ الفنانون عبر العصور مثال صورة وجه السيد المسيح، فقد سبق أن قال المسيح لتلاميذه: «إن أنبياء وأبرارًا كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا، ولكن طوبى لعيونكم؛ لأنها تبصر ولاذانكم؛ لأنها تسمع». (إنجيل متى ١٣-١٧)

والفنان القبطي يرى أن وجه المسيح هو ذلك الموجود في المتحف القبطي وجداريات الكنائس المصرية القديمة بملامح شرقية كما توضح صورته على الكفن المقدس، وليس كما تُرسم في الكنائس الغربية بملامح غربية، لكن من الواضح أن كل فنان رسم المسيح وفق صفات الجمال في ثقافته، فنجد المسيح في أفريقيا ذا بشرة سوداء وشعر مجعد وشفاه كبيرة، وهو ما نراه في كنيسة الحبشة، في حين رسم فنانو أوروبا المسيح ببشرة بيضاء وعيون ملونة، إلا أنه في عام ٢٠١٨ م أعلنت الباحثة إيما مايان فنار من جامعة حيفا أنها عثرت على رسم جداري لوجه المسيح يعود إلى القرن السادس الميلادي على قبة كنيسة في صحراء النقب جنوب فلسطين المحتلة، يؤكد الملامح الشرقية للمسيح.

أما أقدم صورة للمسيح فقد رُسمت بين القرنين السادس والسابع وموجودة في دير سانت كاترين بجنوب سيناء، ويظهر فيها المسيح يرفع يده اليمنى كالمعلم ويحمل الإنجيل في يده اليسرى.

وردت قصص كثيرة في التراث المسيحي عن كرامات أيقونة المسيح. وفي كتب التراث أن أبجر ملك الرها بعث إلى المسيح قبل صعوده يعلن إيمانه وخضوعه؛ فباركه المسيح، وأرسل له منديلاً بعد أن مسح صورته عليها، ويُقال إنه من الذخائر لدى ملوك الروم.. وقيل إن ملك الرها أرسل للمسيح بغرض الشفاء؛ فأرسل له المسيح المنديل الذي انطبعت عليه صورته، فلما استخدمه (أبجر) شُفي تمامًا.

وقد تكررت قصة (أبجر) في كثير من كتابات اللاهوتيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وظهرت القصة أساسًا في القرن الرابع الميلادي، وذكرها (يوسابيوس القيصري) أبو التاريخ الكنسي في تاريخ الكنيسة.

ويذكر المؤتمن بن العسال في كتابه (مجموع أصول الدين ومحصول اليقين)، أن قومًا من اليهود كانوا يضعون صور المسيح مصلوبًا في كنيسة بطبرية ليهزءوا بها، ومنهم من طعن الصورة في جنبها، فجرى منها دم وماء؛ فتعجبوا، وحضر رجل أعمى، فلما سمع ما حدث، قال لهم: ضعوا يدي على موضع الطعنة؛ ففعلوا، فأخذ بيده الدم والماء فمسح عينيه مؤمنًا أن المسيح يفتحهما فانفتحا، ثم أخذ من الماء ونقله إلى مواضع بُنيت عليها أديرة وهياكل، وأمن يومئذٍ بالمسيح كثيرون، وانتهى الخبر للتلاميذ؛ فأمروا بتصوير صورة المسيح.

\*\*\*

أيقونة السيدة العذراء لا يخلو منها بيت مسيحي، وتجدها في بيوت عدد كبير من المسلمين، خصوصًا تلك الموجودة في أحياء جغرافية تجاور فيها سكن المسلم

والمسيحي لسنوات طويلة؛ كما في أحياء: الظاهر، وشبرا، والعباسية.

ونقرأ أن السيدة العذراء قالت لـ (لوقا الإنجيلي): «يا لوقا، تصورني في لوح؛ حتى تبقى تذكرة لصورة وجهي بعد الانتقال من هذا العالم». فقال لها لوقا: «نعم يا سيدتي». فصورها وهي قائمة، فقالت له: «صورني على غير هذا المثال». فصورها وفي يدها مغزل صوف؛ فلم تعجبها أيضًا. فسألها لوقا عن الصورة التي تحب أن تظهر بها؛ فقالت: «صورني وأنا جالسة وابني الحبيب في حضني وثندي في فمه المجيد».

وتظهر السيدة العذراء في الأيقونة القبطية وقد وُضِعَ على ملابسها ٣ نجوم على الرأس والكتفين؛ لأنها دائماً بتول. ومن أهم المشاهد للعذراء في الأيقونات مشهد البشارة والملاك يبشرها بميلاد السيد المسيح. وهناك صورة الميلاد والعذراء مضطجعة ويوسف النجار بجوارها والملائكة تظهر في المشهد.

\*\*\*

من أشهر الأيقونات القبطية أيقونة مارجرجس راكبًا على حصانه، ويطعن التنين في رمزية للشيطان، وتُوجَد في الكثير من الكنائس وقد رسمها إبراهيم الناسخ ويوحنا الأرمني. ويراهما الكثيرون من دارسي التراث الشعبي انعكاسًا لصورة الإله حورس فوق حصانه وهو يقتل الثعبان، أو (ست) إله الشر والموجودة في جدارية على معبد هيبس.

ومن صور الأيقونات المهمة صور الشهداء الخمسة (قزمان، ودميان، ولاديوس، وأنتيموس، وإيرابيوس)، وكانت والدتهم تقية حرصت على أن يتعلم أبنائها الطب؛ كي يعالجوا الفقراء، ولما ارتد الإمبراطور دقلديانوس إلى الديانة الرومانية عارضته ثيودوا وأولادها، وحرصوا على حث الناس على التمسك بدينهم؛ فأمر دقلديانوس

بالقبض عليهم وتعذيبهم، وقد وبخته الأم؛ فأمر بقطع رأسها، وبقي جسدها في العراء لا يجرؤ أحد على مواراته التراب، حتى نادى أحد أبنائها أهل المدينة يستحثهم على دفن جسدها؛ فأقدم أحدهم على ذلك فكان جزاؤه النفي. أما أولادها فقد قُطعت رءوسهم في اليوم التالي، وبعد انتهاء عصر الاضطهاد بنى الناس الكنائس بأسمائهم.

\*\*\*

الطبقة الثانية من القديسين: الرهبان، ومنهم البابا الراحل كيرلس السادس الذي دُفن في سرداب بدير القديس إميناس أبو مينا. وفي الموالد المسيحية تنتشر التذكارات التي تحمل صورته، وفي أيام الجُمع والآحاد يشهد الدير حشدًا غفيرًا، وعلى القبر الرخامي وُضعت أوراق وأقلام لمن يرغب في تحقيق أمنية أو رجاء من القديس كيرلس الذي جُمعت معجزاته في عدة مؤلفات؛ حيث تُنسب إليه القدرة على شفاء أمراض: القلب، والصرع، والشلل، والكلى، والحمى الشوكية، والربو، وأمراض الرئة، والأمراض العقلية، وطرد الأرواح الشريرة.

\*\*\*

أقدم الأيقونات القبطية وأهمها يوجد في دير سانت كاترين، وبه نحو مئة وخمسين أيقونة مختلفة، من بينها أيقونات نادرة الوجود صُنعت في القرن السادس الميلادي، ومجموعة أخرى تنتمي إلى القرون من الحادي عشر وحتى الخامس عشر الميلاديين.

تضم كنيسة أبي سيفين في مجمع الأديان الشهير بمصر القديمة، حوالي ٢٥٠ أيقونة، منها ما يعود إلى الفترة من القرن ١٣ حتى القرن ١٧، لكن معظمها يعود للقرنين ١٨ والـ ١٩، فصناعة الأيقونة تأثرت بتلك الحرب التي شنتها السلطات الدينية

والإمبراطورية خلال القرنين الثامن والتاسع الميلادي ضد تبجيل الأيقونات التي وصلت إلى مرحلة العبادة. وعُرفت تلك الحرب بـ«حرب الأيقونة»، وفيها تم إحراق أعداد هائلة من الأيقونات. لكن فن الأيقونة عاد لينتعش في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على يد الفنانين الوافدين من سوريا وفلسطين، ومنهم: يوحنا الأرمني الذي يزين اسمه معظم الأيقونات في كنائس مصر القديمة، وإبراهيم الناسخ. وفي عام ١٩٥٤ أنشئ معهد الدراسات القبطية في القاهرة، حتى ظهر د. إيزاك فانوس، وتعلّم فن صناعة الأيقونة القديم على يد فنان روسي، وبدأ يعيد إنتاجها.

لم يتبقّ في العالم من يصنع الأيقونة بطرازها القديم بخصوصيته المصرية سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، كان أبرزهم الفنان العالمي الراحل عادل نصيف الذي تُزيّن أعماله من الأيقونات والجداريات الكنائس داخل مصر وخارجها.

\*\*\*

في الأيقونات نجد إلى جانب الصور عددًا من الرموز، منها: السفينة، وترمز للكنيسة، والعنب أو الكرمة، ويمثل دم المسيح، والطاووس، ويرمز لجمال الفردوس بألوانه.

وتكوين الأيقونة فنيًا شاهد ودليل على تأثر الفن القبطي بالفن المصري القديم، فالصليب القبطي ذو العروة وريث علامة عنخ (علامة الحياة)، كما أن من المشاهد المؤثرة في الفن القبطي الموروثة عن الفن الفرعوني مشهد صيد السمك في الأحرش.

في الأيقونة أيضًا نجد صور المسيح أو القديسين على هيئة قامات شامخة وبجوارها قامات صغيرة من التلاميذ والرهبان، وهو التقليد الذي نراه في المعابد حيث قامة الفرعون الشامخة وبجواره قامات صغيرة تسقط عليها مهابة.

كما أن اعتناق فكرة الثالوث ما هو إلا تجسيد لثالوث الآلهة القديمة، ومريم العذراء وطفلها يسوع ما هما إلا تجسيد لإيزيس وحورس.. والأيقونات التي تحمل صورة مارجرجس قاتل التنين؛ كأنها انعكاس لأوزيريس وهو يقتل ست إله الشر.

وبعد دخول العرب إلى مصر، حدث نوع من الامتزاج بين الفن الأصيل الموجود في مصر، وهو الفن القبطي، وبين الفن الوارد؛ فقد دخلت على الأيقونة بعض الكلمات العربية، مثل: (عوض عبدك يا رب).. أو كما نجدها في أيقونة رئيس الملائكة ميخائيل بالمتحف القبطي التي نفذها إبراهيم الناسخ، وكتب عليها بالعربية (تشفع لنا أيها الملك ميخائيل! إلهي جاز خيرًا في ملكوت السماوات من رسم هذه اللوحة. من تنفيذ العبد المتواضع إبراهيم الناسخ).

# الفصل الخامس

## كيف عرفت مصر التصوف؟

- كيف جاءت وترسخت ظاهرة الأولياء في مصر التي تُمثّل مع الموالد صلب التصوف الشعبي الذي عرفه المصريون؟ كيف ترعرع في وادينا ودلتانا وقرانا في بحري وقبلي كل هذا العدد من الشفعاء وأصحاب الكرامات؟!

إذا أردنا تقديم إجابة شافية لهذا السؤال؛ فعلينا أن نعود إلى نقطة البداية، وهي التصوف الذي خرج من عباءته بعد قرون طويلة من تطوّره كحركة روحية فكرية وما مر به من كبوات، هذا اللون من التصوف الشعبي الذي تُرجم في ممارسات وسلوكيات، منها ما أساء إلى التصوف؛ لذا لا بد أن نعرف أولاً ماهية التصوف كفكر: كيف بدأ؟ ومن أين؟ وأين كانت مصر منه؟ وأين كان أقطابه من مصر؟

\*\*\*

عرفت مصر الإسلام على يد العرب الفاتحين ٦٤٠ م. كان أغلب سكانها يدينون بالمسيحية، وقليل منهم يعتنقون اليهودية التي كانت مصر مهدها وموطنها الذي نبتت فيه على يد موسى (n). ثم جاءت اللحظة الفارقة لاعتناق الإسلام الدين الجديد جنباً إلى جنب للديانتين اليهودية والمسيحية.

كانت مصر جزءاً من كل التحولات الفكرية والسياسية في الدولة الإسلامية، وحين ضاقت الأرض بما رحبت بآل بيت النبوة بعد أحداث الفتنة الكبرى، كانت مصر حضناً وملجأً رأى في استضافة أولئك الكرام شرفاً وعزّة وهبةً سماويةً ونفحةً نبويةً. جاء

آل البيت إلى مصر وعاشوا بها معززين مكرمين مقربين. وظلت -إلى يومنا هذا- مكانتهم محفوظة بوصفهم الأشراف المبجلين، ولأنهم في اليقين الشعبي هم الأولياء المتشفعون، فصارت أضرحتهم قبلة التائبين وموالدهم الحج الأصغر الذي يشفي قلوب الحائرين. ورغم كل هذا الحب؛ فإن المصريين ظلوا على هواهم لآل البيت، في حين كان المذهب السني معتقدهم، فصدق عليهم الوصف (سنيي المذهب شيعيي الهوى).

وعندما لاح التصوف كحركة روحية نشأت كرد فعل لتلك الانتكاسة التي نالت من الدولة المدنية التي أسسها الرسول ﷺ في المدينة. كانت مصر من أول العواصم الإسلامية التي عرفت هذا الفكر واعتنقته واحتضنت تياراته من المشرق والمغرب، وأسهمت في تجديد منابعه وأضافت إلى أفكاره ومدارسه، وتوالت المتغيرات التي أفرزت ما نعرفه بالتصوف الشعبي الذي استمر جنبًا إلى جنب مع التصوف الفكري. واتسعت دائرة الأولياء لتشمل أصحاب الكرامات وأقطاب العلم.. واختلط الحابل بالنابل في أوقات التردّي السياسي والفكري، ليظهر شيوخ المشي على الماء وترويض الأفاعي.

كانت بداية استغلال الصوفية للدين واستخدام الساسة للصوفية بداية النهاية.. وكان التحول الأكبر حين بدأت السلطة في رعاية الصوفية رعاية أبوية.. الخطوة الأولى ابتدعها صلاح الدين الأيوبي حين أسس بيوتًا للمتصوفة (الخانقاوات) التي تحولت مع مرور الزمن إلى بيوت للدروشة.. وبدأ التصوف كفكر وفلسفة وإنتاج أدبي ثري عبّر عن روح الإسلام يتراجع، بعد أن توأمت جيل المتصوفة العظماء بثقافتهم الموسوعية، فالحلاج كان يعرف الكيمياء والطب، والجيلاني كان يستعين بالفلسفة اليونانية كما ابن عربي، وغيرهما.. وظهر بدلاً منهم جيل من الدراويش مدعي الكرامات والخرافات ومرتكبي الفواحش.

وكما يقول د. زكي مبارك: «كان للصوفية أدب هو أعلى وأشرف من أدب البحتري والمتنبي وأبي علاء، ولكن طافت بالناس طائفة من الجهل؛ فتوهموا أنه لا صلة في الأدب والدين».

فالتصوف نشأ كثورة ضد الفساد الأخلاقي، ورأى المتصوفة أن الإصلاح إنما يبدأ بالفهم الصحيح للدين، وإدراك مقاصد النصوص الدينية؛ فنشأت لديهم لغة خاصة رمزية متعمقة. لكن تحولت تلك الثورة الروحية إلى نظام اجتماعي ذي ثراء وقوة سياسية ذات نفوذ متجسد في الطرق الصوفية في فترة زمنية شكلت فيها تحالفًا مع السلطة، اتخذ معه الأمر منحى آخر أسهمت فيه ظروف تردي سياسي قبعت فيه مصر تحت مطرقة الاحتلال والجهل والفقر.. وعلى الرغم من محاولات تخليص التصوف في العصر الحديث مما لحقه من آثار الشعوذة والجهل على يد مفكرين متنورين من أهل الصوفية الحققة. إضافة إلى حرص شيوخ بعض الطرق على منع أتباعها من الممارسات التي تجافي صحيح الدين؛ كما فعلت الرفاعية بمنع ضرب السيوف والحركات الاستعراضية بترويض الأفاعي خلال إقامة الموالد؛ فإن الموروث الشعبي ظل موجودًا بشكل أو بآخر، معلنا أن جذوره الممتدة زمنيًا تجلعه قادرًا على الاستمرار.

# الفصل السادس

## التصوف

### ترنيمة العشق الإلهي

ما التصوف؟

قالوا إنه اكتسب اسمه من رقعة الصوف التي يرتديها الزهاد، وقالوا إن مصدر التسمية كلمة (سوفيا) اليونانية بمعنى الحكمة، وقالوا إن مصدرها (أهل الصفة) الفقراء الذين أمر النبي ﷺ ببناء فناء ملحق بالمسجد لأجلهم، وعندهم يقول السهروردي في (عوارف المعارف): «إنهم كانوا نحو أربعين رجلاً لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المساجد، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته، وكان رسول الله يواسيهم، ويحث الناس على مواساتهم، ويجلس معهم، ويأكل معهم».

وقال القشيري: «إن المتصوفة يأتون في الترتيب بعد الصحابة والتابعين وأتباع التابعين وبعد الزهاد المعنيين بأمر الدين، فلما كثرت البدع جاء المتصوفة، وهم خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف... واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة».

ووصف ذو النون المصري المتصوفة، بأنهم قوم آثروا الله على كل شيء، وقال الجنيد هو ذكّر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع.

في حين وصف الحلاج الصوفي بأنه وحداني الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحدًا. وقال الإمام النووي: «قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس، وتحرروا من

شهواتهم؛ حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق. فلما تركوا كل ما سوى الله صاروا مالكين لا مملوكين».

وبإيجاز شديد نستطيع القول إن التصوف هو البعد الروحي للإسلام، وهو ما رآه باحثون عديدون درسوا التصوف ولغته، منهم: أبو العلا عفيفي، وأبو الوفا التفتازاني، ومحمد مصطفى حلمي، والمستشرق أن ماري شميل.

\*\*\*

كانت البداية في ظل حُكم الدولة الأموية التي دقت أول مسمار في نعش الدولة المدنية التي أسسها النبي ﷺ في المدينة المنورة، والتي أقام بمقتضاها دولة يتساوى فيها العبد والسيد، الغني والفقير، العربي والأعجمي، في الحقوق والواجبات.

جاء بنو أمية ليضعوا -ولأول مرة- حاجبًا بين الحاكم والرعية، بعد أن كان الناس يقصدون أيًا من الخلفاء الراشدين الأربعة دون موعد، وبلا وسيط يحاجونهم ويجادلونهم، ولا يجد واحد من الخلفاء -وهم صحابة النبي ﷺ المقربون- حرجًا في الاعتراف بالخطأ، حتى جهر الفاروق ذات مرة: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».. لكن ولت تلك الأيام مع أحداث الفتنة الكبرى التي وأدت الحلم في مهده، وكانت أول ثورة مضادة على الدولة المدنية التي تدين بدين الإسلام وتحترم أصحاب الديانتين اليهودية والمسيحية في إطار ما لهم وما عليهم من حقوق وواجبات المواطنة.. ترحم المسلمون على أيام الخليفة العادل عمر بن الخطاب h الذي كان يخشى أن يُسأل لم لم يمهد للدابة الطريق. فلم يأتهم مثله في زمن بني أمية ولا بعده، اللهم إلا عمر بن عبد العزيز حفيد ابن الخطاب، والذي سرعان ما تخلص منه أصحاب المصالح الذين أضرهم عدله، وأخرجهم تقشُّفه، وأتعبهم سموه وتعالیه على متاع الدنيا وزخرفها.

ثم كان الصراع الطويل بين الفرق التي أفرزتها أحداث الفتنة الكبرى من الخوارج والشيعة والمرجئة، كافيًا لإحداث جرح غائر في جسد الدولة الإسلامية.. كما أن الفتوحات الممتدة

والثراء الفاحش أدى إلى تراجع ما كان عليه السلف من الزهد والتقشف. كان هذا كافيًا كي تظهر حركة الزهد في القرن الأول الهجري بعد انتهاء عصري الصحابة والتابعين.

نشأ التصوف وانتشر في ظل الظروف السياسية والثقافية السائدة، ففي ظل الحكم العباسي حيث تكونت الدولة الإسلامية من الأمم المختلفة التي تسكن تلك المساحة الشاسعة الممتدة من بلاد المغرب إلى بلاد الصين، أنتج التزاوج بين تلك العناصر المختلفة جيلًا جديدًا يحمل خصائص الجنسين من مميزات وعيوب؛ ففي الوقت الذي تلاقت فيه الأفكار والتقت ثمرات العقول بما كان له فضله على اللغة العربية والحضارة الإسلامية، كان لسيادة العنصر الفارسي في الدولة العباسية وتغلغله في قصور الأمراء أن ظهرت عادات فارسية من اللهو واللعب وكثرة أنواع الجواري في قصور الأمراء والأغنياء؛ فسادت الخلاعة في الوقت الذي لم تكن فيه نزعة العنجهية القبلية قد اختفت من قلوب العرب، فنشأ صراع بينهم وبين مواليهم من جانب، وبينهم وبين الفرس الذين أفزعهم أن يتغلب العرب عليهم مع ما كان لهم من جاه وسلطان، وكان هذا من عوامل الإسراع بسقوط الدولة العباسية، وظهر في هذا العصر القرامطة وثورة الزنج، وزادت الفوارق المادية بين طبقات المجتمع، كما انتشرت طائفة الزنادقة ممن يدعون إلى المجون والخلاعة وشرب الخمر ويسخرون من البعث والحساب، وطائفة أخرى تدين بالإسلام ظاهرًا والتدين بدين الفرس القديم في الخفاء. وفي ظل ذلك الجو المضطرب برز تأثير كتب الإسرائيليات على الإسلام، وظهرت مشكلة خلق القرآن والأحاديث الملققة. وأسفرت هذه الحياة عن اتجاهين؛ الأول: سلبي ومثله الزهاد والعباد الذين انقطعوا للصلاة، والآخر: إيجابي تصدى أصحابه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

\*\*\*

بدأت حركة الزهد دون تخطيط أو تنظيم، فقد كان الأمر في البداية مجرد رغبة في الالتزام بتعاليم الكتاب والسنة النبوية كمنهج فردي، ثم أصبح لكل زاهد بعض التلاميذ الذين التفوا حوله، وقد أُطلق على أولئك الزهاد أسماء عديدة، منها: العباد، والنسك،

والبكاءون؛ لأنهم يُكثرون من البكاء على ذنوبهم.. ولم تظهر كلمة الصوفية سوى في القرن الثاني الهجري.

كانت مدارس الزهد في خمس مناطق: في المدينة، ومن أشهر زهادها: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو ذر الغفاري، مدرسة البصرة، ومن أشهر زهادها: الحسن البصري، ورابعة العدوية، ومالك بن دينار، مدرسة خراسان، ومن زهادها: داود الطائي، ومعروف الكرخي، مدرسة الكوفة، من أشهر زهادها: سعد بن جبير الذي قُتِل على يد الحجاج الثقفي، وسفيان الثوري.

وفي مصر نشأت مدرسة للزهاد، أشهر رموزها: سليم بن عتر التجيبي، وعبد الرحمن بن حجيرة، وحياة بن شريح الفقيه المصري، والليث بن سعد، وأبو عبد الله بن وهب بن مسلم المصري.

هكذا بدأت الحركة الروحية في القرن الأول الهجري مع حركة العباد والزهاد الأوائل أمثال الحسن البصري (١١٠ هـ - ٧٢٨ م)، وتطورت تلك الحركة الروحية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، مع التعمق في خبرة الحب الإلهي من أمثال رابعة العدوية البصرية (١٨٥ هـ - ٨٠١ م)، ومع فكرة الفناء والبقاء من أمثال الجنيد (٢٩٨ هـ - ٩١٠ م). وفي المعرفة وأحوالها ذو النون المصري، الفناء والمعراج الصوفي عند أبي يزيد البسطامي.

وبعد مأساة الحلاج اتجهت تلك الحركة الروحية اتجاهين: التصوف السني في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وأنتج هذا الاتجاه تراثاً صوفياً مهماً، منه: الرسالة القشيرية للإمام عبد الكريم القشيري (٤٦٥ هـ - ١٠٧٢ م)، وإحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي.

الاتجاه الثاني توغل في مجالات أكثر نظرية وفلسفية، خاصةً عند أصحاب مدرسة (وحدة الوجود) بدءاً من القرنين السادس والسابع الهجريين عند الصوفية أمثال ابن عربي (٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م)؛ فاجتهد أصحاب تلك المدرسة في إيجاد صيغة توافق بين التصوف وبين (باطن الشرع)؛ أي معناه العميق ومقصده الأعلى.

\*\*\*

ومنذ القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، ظهر التصوف في ثوب فلسفي يستمد عناصره من الأفلاطونية الحديثة والغنوصية؛ كما نجده عند السهروردي. وفي هذا التوقيت أيضًا بدأ ظهور الطرق الصوفية.

كان القرن السابع الهجري القرن الذهبي للتصوف الإسلامي، حيث ظهر أعظم شخصيات التصوف الإسلامي، والمؤسسون الأوائل للطرق الصوفية، منهم: عبد القادر الجيلاني (٥٦١ هـ - ١١٦٦ م) مؤسس الطريقة القادرية، وأحمد الرفاعي (٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م) مؤسس الطريقة الرفاعية، وأبو حفص السهروردي مؤسس الطريقة السهروردية، وجلال الدين الرومي مؤسس الطريقة المولوية. وظهر أعظم المفكرين في التصوف، ومنهم: فريد الدين العطار، ومحبي الدين بن عربي، وشهاب الدين السهروردي.. وكان التصوف ذا نظرة فلسفية متعمقة؛ نظرًا لتأثره بالكثير من التيارات الفكرية والدينية المنتشرة في العالم الإسلامي.

\*\*\*

انقسم المستشرقون في دراستهم للتصوف الإسلامي، وضمن الكثيرون منهم على الإسلام بأن يكون التصوف نابغًا من تعاليمه، فنجد أن (تولك)، وهو صاحب أول مؤلف في التصوف ظهر في أوروبا، رأى أن التصوف الإسلامي مأخوذ عن أصل مجوسي، وأكد البعض الآخر أن التصوف مأخوذ من الفلسفة اليونانية وتأثر بمؤثرات مسيحية، خصوصًا فيما يتصل بنظام الرهبة، ومن هؤلاء: المستشرق المعروف رينولد نيكلسون. بينما رأى ريتشارد هارتمان وماكس هورتن أن التصوف الإسلامي في القرن الثالث الهجري جاء مشبعًا بالأفكار الهندية.

في حين رأى مستشرقون منصفون، ومنهم لويس ماسينيون، الذي أكد أن التصوف مصدره الأول هو القرآن، فهو فهم رؤية وتفسير لحقائق الإيمان في الإسلام وقاموس التصوف هو قاموس قرآني. أيضًا الأحاديث النبوية الشريفة مصدر مهم للحياة الروحانية في الإسلام.

وهو ما رآه أيضًا ألكسندر كنيش صاحب المؤلف المهم (أبعاد الصوفية في الإسلام)، وأنا ماري شميل، والمستشرق الايطالي جوزيبي سكاتوليني الذي رأى أن التصوف هو جزء لا يتجزأ من الإسلام، فأكبر مفكر في الإسلام، وهو أبو حامد الغزالي، كان عالمًا بالعلوم الدينية وله إنتاج مهم جدًا فيها، حتى لُقّب بـ(حجة الإسلام)، وكان في الوقت نفسه صوفيًا، والتصوف في الإسلام أفرز إنتاجًا ثقافيًا علميًا عظيمًا في الأدب والشعر؛ كما عند جلال الدين الرومي، وعمر بن الفارض. وقال سكاتوليني إنه من الإنصاف العلمي القول بأن مذاهب الصوفية في العلم ورياضاتهم العملية تُرد إلى مصدر إسلامي. إلا أنه بمرور الوقت، وبحكم التقاء الأمم واحتكاك الحضارات، تسرب إليها شيء من المؤثرات المسيحية أو غير المسيحية؛ فظن بعض المستشرقين خطأً أن الصوفية أخذوا أول ما أخذوا عن المسيحية، ومن الإنصاف العلمي إثبات الأصالة الإسلامية لظاهرة التصوف، مع تأثره عبر الزمان والمكان بالتيارات الدينية المختلفة التي تعامل معها؛ شأن كل العلوم الإسلامية الأخرى، فالمصدر هو الأصل، والتأثر هو الفرع.

\*\*\*

تطورت حركة التصوف وتوسعت فيما يُعرَف بظاهرة الطرق الصوفية. وكان أول صوفي يضع نظام الطريقة هو الصوفي الإيراني محمد أحمد الميهي المتوفى ٤٣٠ هـ حين بنى بجوار منزله بيتًا للصوفية، ووضع نظامًا لها.. وبعدها تتابع ظهور الطرق في المشرق العربي كله.

ازدهرت وانتشرت الطرق الصوفية في العالم الإسلامي كله، وكان لها دور إيجابي أحيانًا؛ حيث أسهمت في نشر الدين الإسلامي، وفيما بعد كان لها دور في مقاومة الظلم والاستبداد كما كان الحال في الجزائر؛ حيث لعبت الصوفية دورًا فارقًا في مقاومة الاحتلال. وإن كان للطرق في فترات تاريخية مختلفة دور سلبي حين كانت مجرد أبواق للنظام الحاكم أو داعمًا لتحقيق أغراضه الإمبريالية؛ كما كان الحال في ظل الدولة

العثمانية، كانت ييارق الطرق الصوفية تسبق ييارق الحملات العسكرية، كما كانت الطرق مطية بعض الحكام للسيطرة على العامة وإخضاعهم بإدخالهم دوائر الشعوذة والدجل.

لكن هذا لا يعني أبدًا نفي التصوف كونه حركة روحية علمية وفلسفة حياة تهدف إلى رقي النفس، وكما لخصها أبو الوفا التفتازاني أحد أهم الدارسين المعاصرين للتصوف: «الصوفية -على اختلافهم- يتصورون طريقًا إلى الله يبدأ بمجاهدة النفس أخلاقيًا، ويتدرج السالك له في مراحل متعددة تُعرَف عندهم بالمقامات والأحوال، وتنتهي بمعرفة الله».

فالتصوف هو روح الدين الإسلامي؛ كما أجمع العديد من الباحثين والمستشرقين، ومنهم الباحثة الألمانية آنا ماري شميل، والباحث العراقي الأب اليسوعي بولس نويا أكد أنه: «بفضل المتصوفة وُلدت لغة جديدة في لسان العرب، هي لغة الخبرة الروحية الذاتية».

كانت طبقة المتصوفة والعلماء أيضًا صمام الأمان الأخلاقي في ظل الاضطرابات الاجتماعية التي عرفتها المجتمعات الإسلامية، خصوصًا في ظل الحكم العباسي، وفي فترات الاحتلال الصليبي، ثم الغزو المغولي. إلى جانب دور المتصوفة المجتمعي، ونذكر هنا (الخركوشي) أحد صوفية القرن الرابع الذي ربما يكون أقل شهرة، ويعود الفضل في إلقاء الضوء عليه ودراسة كتبه إلى كُُلِّ من المستشرق الإيطالي د. جوزيبي سكاتليني، ود. أحمد حسن أنور، فقد كان الخركوشي يهتم ببناء الدروب والطرق ودور الفقراء والمدارس والمكتبات لطلاب العلم.

ذو النون المصري

بوابة مصر إلى عالم التصوف

هو النافذة العريضة التي أطلت منها مصر على عالم التصوف، وأول مَنْ وضع القواعد والإطار العلمي للتصوف، واستخدم الرمز في عبارات الصوفية، وسبق شامبليون في محاولة فك بعض رموز الهيروغليفية على جدران أخميم، وسبق غيره من المتصوفة في العمل بالكيمياء.

اختلف المؤرخون حول تاريخ مولده ووفاته، لكنهم اتفقوا، ومنهم العلامة البريطاني نيكلسون، على أنه أول من وضع الأساس العلمي للتصوف، ومنه عرفت مصر التصوف قبل ظهور الطرق الصوفية بأربعة قرون، وهو القائل: «كيف لا أبتهج بك سرورًا وقد كنت أكدح ببابك حتى جعلتني من أهل التوحيد؟!».

\*\*\*

ثوبان بن إبراهيم كنيته (أبو الفيض)، ولقبه (ذو النون)، من أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري. وُلِدَ في أخميم حسب أشهر الروايات (٧٩٦ م - ١٧٩ هـ)، كان أبوه نوبياً مولى لقرشي من أهل أخميم، وكان ذو النون (كما ورد في رسالة القشيري): «أسمر اللون، شديد السمرة، تعلوه حمرة، وليس بأبيض اللحية، وكان جسمه نحيفاً».

رحل إلى الفسطاط طلباً للعلم، واختلف الناس حول سر تصوفه، فمنهم من قال إنها رحلة الحج. في حين يذكر علي مبارك في (الخطط التوفيقية): «سُئِلَ ذو النون عن سر تصوفه، فقال: خرجت من مصر إلى بعض القرى، فنمت في بعض الصحاري، ففتحت عيني؛ فإذا بقبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض، فانشقت الأرض؛ فخرج منها سكرجتان؛ إحداهما ذهب، والأخرى فضة، وفي إحداهما سمس، وفي الأخرى ماء، فجعلت تأكل من هذه، وتشرب من تلك؛ فقلت حسبي قد تبت ولزمت الباب إلى أن قبلني».

ويذكر كلُّ من القشيري والمستشرق البريطاني (نيكلسون)، أن ذا النون أول من عرف التوحيد بالمعنى الصوفي، وأول من وضع تعريفات للوجد والسماع والمقامات والأحوال.

الصوفية في يقينه قوم آثروا الله على كل شيء؛ فأثرهم الله على كل شيء. تكلم عن المحبة المتبادلة بين العبد وربّه، فقال: «إلهي، أدعوك في الملاء كما تدعي الأرباب، وأدعوك في الخلا كما تدعي الأحباب، أقول في الملاء: يا إلهي، وأقول في الخلا: يا حبيبي».

كان يرى أن المعرفة بالله تأتي من الله مباشرةً، ودون وساطة: «عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي». والمعرفة عنده تنقسم ثلاثة أنواع: أولها معرفة عامة للمسلمين، وثانيها معرفة خاصة بالمتكلمين والحكماء، وثالثها معرفة خاصة بأولياء الله، وكان يرى أن توبة العوام تكون من الذنوب، وتوبة الخواص تكون من الغفلة.

كان المسعودي أول من تحدث عن ذي النون المصري في كتابه (مروج الذهب)، وذلك بعد ١٠٠ سنة من رحيل ذي النون المتوفى عام ٢٤٥ هـ. وذكر أن ذا النون كان عاكفًا على سبر أغوار النقوش المصرية القديمة الموجودة على جدران المعابد في أخميم، وزعم المسعودي أن ذا النون ترجم طائفة منها.

يفسر ذلك رينولد نيكلسون: «كانت مصر القديمة في نظر المسلمين مهد علوم الكيمياء والسحر وعلوم الأسرار، فقد كان هيرميس البابلي أول من تكلم في الكيمياء، ثم صار فيما بعد ملكًا لمصر، ودُفِن في سفح أحد أهرامها». ويروي بعض الكتاب أن هيرميس كان أحد الكهنة السبعة الذين كانوا سدنة لمعابد الكواكب السبعة. فلما جاء المسلمون قالوا إن هيرمس هذا هو النبي إدريس (أخنوخ)، واعتبروه أول واضع لأصول الفن والعلم والدين، وذكروا أنه بنى هياكل الأهرام، ومدائن البرابي في صعيد مصر، وخاف زهاب العلم بالطوفان؛ فبنى البرابي، وصوّر فيها جميع الصناعات وصانعيها نقشًا، وصوّر جميع آلات الصناعات، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده خشية أن يذهب رسم تلك العلوم. (البرابي هي البيوت المصنوعة من الحجارة العظيمة مفرطة الكبر).

ولما قال ذو النون إنه استطاع قراءة رموز الهيروغليفية اشتكاه الناس لحاكم الفسطاط الذي اتهمه بالزندقة، إلا أن ذا النون استطاع الفرار منه، وعندما عاد للظهور تم إرساله إلى خليفة بغداد المتوكل مغلولًا مقيدًا، وتوسط له متصوفة بغداد، واستمع له الخليفة واقتنع بحكمته. ويتردد أن الخليفة المتوكل قال: «إذا دُكر أهل الورع فلا ولن أنسي ذا النون.. إنه أفضلهم».

أما الإمام يوسف بن الحسين الرازي أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، فيقول: «حضرت مع ذي النون مجلس المتوكل وكان مولعًا به، يفضله على الزهاد. فقال: صف لي أولياء الله. قال: يا أمير المؤمنين، هم قوم ألبسهم الله النور الساطع من محبته، وجللهم بالبهاء من إرادة كرامته، ووضع على مفارقهم تيجان مسرته».

ويقال إن المتوكل طلب منه أن يكتب له دعاء، فكتب له: «ربِّ، أقمني في أهل ولايتك، مقام رجاء الزيادة في محبتك، واجعلني ولهاً بذكرك في ذكرك إلى ذكرك، وفي روح بحابح أسمائك لاسمك، وهيبى لي قدمًا أعادل بها بفضلك أقدام من لم يزل عن طاعتك، وأحقق بها ارتياحًا في القرب منك، وأحف بها جولاً في الشغل بك، ما حييت وما بقيت رب العالمين. إنك رءوف رحيم. اللهم بك أعوذ، وبك ألوذ، وأؤمل البلغة إلى طاعتك، والمثوى الصالح من مرضاتك، وأنت ولي قدير».

عاد ذو النون إلى مصر من بغداد معززًا مكرمًا، واحترمه الجميع.

\*\*\*

اشتغل ذو النون بالكيمياء، وذكر له ابن النديم في (الفهرست) كتابين في الكيمياء: (الركن الأكبر) و(السرف في الصنعة). ويقول المؤرخ القفطي (ذو النون الأحميمي): «من طبقة جابر بن حيان في انتحال صناعة الكيمياء، وتقلد علم الباطن، والإشراف على كثير من علوم الفلسفة».

ويقول نيكلسون: «من الراجح أن ذا النون كان يستخدم الأدوية، ويستعمل البخور أو على الأقل كان يفعل ذلك؛ كما أخبرنا رجل زاره ذات يوم، فرأى بين يديه طستًا من ذهب وحوله الند والعنبر يُسجَر؛ فصاح به ذو النون قائلاً: هل أنت ممن يدخل على الملوك في حال بسطهم؟».

كان ذو النون إذن أول الصوفية الذين دمجوا بين الكيمياء والصوفية، ومنهم محيي الدين بن عربي، الذي تحدث في (الفتوحات المكية) عن كيمياء السعادة؛ أي تدبير النفس وإعدادها لمعراجها نحو شهود الله، مشبهاً التحول الذي يصيب النفس في هذا المعراج بالتحول الذي يُجرى على المعادن الخسيسة لتصير ذهباً.

وكان البعض يزعم أن الحسن الشاذلي كان يُحوّل المعادن الرخيصة إلى ثمينة بمجرد النظر. كما حرص الكثيرون من علماء الصوفية على تأليف الكتب في الكيمياء، منهم: (الجنيد)، وله كتاب (تدبير الحجر المكرم)، والحلاج، ومن أبرز رسالاته (رسالة في الإكسير رسالة في الصنعة).

وبسبب ما تحمله الكيمياء القديمة من رمزية وأسرار؛ أدخل الصوفية المصطلحات الكيميائية في أشعارهم الباطنية، ومنهم: ابن الفارض، وأبو يزيد البسطامي.

\*\*\*

لم يخجل ذو النون أن يقول إن أستاذته كانت امرأة، وهي فاطمة النيسابورية التي جاءت من خراسان، فقال عنها: «ولية من أولياء الله e، هي أستاذتي؛ حيث سمعتها تقول: مَنْ لم يكن الله e منه على بال؛ فإنه يتخطى في كل ميدان، ويتكلم لكل لسان، وما كان الله منه على بال أخرسه إلا عن الصدق، وألزمه الحياء منه والإخلاص». وقد التقاها ذو النون في بيت المقدس؛ كما روى أبو يزيد البسطامي؛ حيث قال لها ذو النون: «عظيني». قالت له: «الزم الصدق، وجاهد الله في أفعالك».

\*\*\*

نسبت كتب التراث إلى ذي النون العديد من الكرامات، فيذكر الشعراني في طبقاته أن ذا النون قال: «جاءتني امرأة، فقالت: إن ابني قد أخذه التمساح، فلما رأيت حرقتها على ولدها أتيت النيل، وقلت: اللهم أظهر التمساح، وخرج إليّ فشقت عن جوفه، وأخرجت ابنها حيّاً

صحيحًا، وأخذته ومضت، وقالت: اجعلني في جِلٍّ؛ فإنني كنت إذا رأيتك سخرت منك، وأنا تائبة إلى الله e».

وذكر بكر بن عبد الرحمن: «كنت معه في البادية، وجلسنا تحت شجرة أم غيلان، فقلت: ما أطيب الموقع لو كان فيه رطب! فحرك الشجرة، وقال: أقسمت عليك بالذي ابتدأك وخلقك شجرةً ألا نثرت علينا رطبًا جنياً. وتساقط علينا الرطب وشبعنا، ثم نمت وقمت وحركت الشجرة ونثرت شوغًا».

\*\*\*

تُوفِّي ذو النون في الجيزة -حسب أغلب الرويات- سنة ٢٤٥ هـ، وقيل إن جنازته لازمها طيور خُضْر حتى وصل إلى قبره، ولم تغب إلا بعد دفنه، ويقول الشعراني إنه حُمِل في قارب؛ مخافة أن ينقطع الجسر من كثرة الناس. ويقال إنه في ليلة وفاته شاهد سبعون رجلاً الرسول ﷺ في المنام وهو يقول: «جئت لألقى ذا النون خليل الله».

بينما قال السلمي: «كان أهل مصر يسمونه الزنديق، فلما مات أظلت الطير الخُضْر جنازته، فلما دُفِن غابت؛ فاحترم أهل مصر قبره، والضريح ما زال موجودًا في جبانة الإمام الليث بجوار مسجد سيدي عقبة بن عامر».

\*\*\*

شارك ذو النون المصري في غرس جذور التصوف في مصر شخصان مهمان، هما الصوفيان: أبو بكر الدقاق، وأبو الحسن بن بنان الحمال. أما أبو بكر أحمد بن نصر الدقاق الكبير فكان من أقران الجنيد وأكابر مشايخ مصر، قال الكتاني: «لما مات الدقاق انقطعت حجة الفقراء في دخولهم إلى مصر».

إلى جانب هذين الاسمين كان هناك عدد من رجال الصوفية الذين أسهموا في غرس فكر التصوف بمصر، منهم: أبو علي الروزبادي (مُتوفَى ٣٣٢ هـ)، وأبو الخير القطع التيناني

(مُتَوَفَّى ٣٤٣ هـ)، وأبو القاسم الصامت (مُتَوَفَّى ٤٢٧ هـ).

ومن ثم استمرت حركة التصوف في مصر إبان القرنين الرابع والخامس الهجريين. ثم ظهرت أكبر مدرسة صوفية في مصر لمؤسسها عبد الرحيم القنائي في القرن السادس الهجري، وتوالى ظهور الطرق إبان القرنين السادس والسابع الهجريين.

الحمال وابن طولون

ما زلنا في القرن الثالث للهجرة، ومصر تخطو بثقة نحو عالم التصوف الواسع؛ بفضل ذي النون المصري نوبي الأصل أحميمي النشأة..

في هذا التوقيت ظهر فقيه آخر، أهم كراماته قول الحق في وجه سلطان جائر. أما الفقيه فهو أبو الحسن بنان الحمال، وأما السلطان فكان أحمد بن طولون.

أبو الحسن بنان الحمال -كما تقول عنه التراجم- صحب أبا القاسم الجنيد، وكان (الحمال) شيخًا لأبي الحسين النووي.. سألوه عن أجلِّ أحوال الصوفية، فقال: «الثقة بالمضمون، والقيام بالأوامر، ومراعاة السر، والتخلي عن الكونين بالتشبه بالحق».

وقال: دخلت البرية وحدي على طريق تبوك، فاستوحشت؛ فإذا هاتف يهتف: يا بنان! نقضت العهد، ألم تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش؟ وهو يقول: أنا جليس من ذكرني. وتكلم يومًا في المحبة، ثم أنشد:

لحاني العاذلون فقلت مهلا

فإني لا أرى في الحب عارا

فقالوا قد خلعت فقلت: لسنا

بأول عاشقٍ خلع العذارا

وقال أبو سعيد بن يونس عن (الحمال): «كان له بمصر موضع ومنزلة عند العامة والخاصة، وكانت العامة تضرب بعبادته وزهده المثل، وكان لا يقبل من السلطان شيئاً».

جاء رجل إليه فقال: ادع لي؛ فإنني مُضَيِّقٌ عليّ في رزقي، والله لقد بعث اليوم صينية بأحد عشر درهماً لها عندي أربع عشرة سنة. فقال: يا قوم، أرايتم أعجب من هذا؟ قد رزقه الله رزقها من أربع عشرة سنة، وهو يشكو الفقر، اذهب حتى تأكله.

\*\*\*

من درر أقواله: «مَن كان يسره ما يضره متى يفلح؟».

«إن أفردته بالربوبية أفردك بالعبادة».

«الحر عبد ما طمع. والعبد حر ما قنع».

«الوحدة جلسة الصديقين».

وكان يقول: «إن الله (تعالى) خلق سبع سماوات، في كل سماء له خلق وجنود وكُلُّ له مطيعون، وطاعتهم على سبع مقامات: فطاعة أهل السماء الدنيا على الخوف والرجاء، وطاعة أهل السماء الثانية على الحب والحزن، وطاعة أهل السماء الثالثة على المنة والحياء، وطاعة أهل السماء الرابعة على الشوق والهيبة، وطاعة أهل السماء الخامسة على المناجاة والإجلال، وطاعة أهل السماء السادسة على الإنابة والتعظيم، وطاعة أهل السماء السابعة على المنة والقربة».

\*\*\*

ونأتي إلى قصته مع ابن طولون، ونسمع كيف رواها ابن قتيبة للروزبادي: (تلميذ بنان) الذي جاء إلى مصر بسبب ما سمعه عن تلك القصة العجيبة.

أخذ ابن قتيبة يحكي للروزبادي عن طبائع أحمد بن طولون وأخباره وشخصيته العجيبة، وكيف كان له عقل كأنه عقلاان في رجلين مختلفين، فله يد مع الملائكة ضارعة، ويد مع الشياطين ضاربة، فهذا الرجل ينفق الأموال الطائلة على الفقراء والعلماء، ويكثر من قراءة القرآن الكريم والاعتكاف، وهو مع ذلك رجل طائش السيف، يحمل الناس على الجور والعسف، حتى بلغ عدد من قتلهم أو ماتوا في سجنه ثمانية عشر ألفاً أو يزيدون!

وقال ابن قتيبة: «لما ذهب شيخك أبو الحسن بنان إلى ابن طولون يعظه، طاش عقل الحاكم؛ فأمر بإلقاء الشيخ إلى الأسد، فجيء بأحد الأسود من قصر (خمارويه) ابن طولون، الذي كان يهوى صيد الأسود واقتناءها. الأسد كان جسيماً رهيباً هراساً فراساً يتلهب في عينيه الدم، وفي هيئته الفزع، أهزت الشدق (واسع الفم)؛ كأن فمه كهف ينبئ أن وراءه مقبرة، فإذا واجهك أحسست أنه -لفرط وحشيته- يوشك أن ينقذف على من يراه فيحيله في لحظة بقايا قصة حزينة!».

ووضعوا الشيخ في قاعة وراحوا يشرفون عليها من عل؛ لينظروا. فُتِحَ باب القفص من أعلاه، وزجروا للأسد، فانطلق يزار زئيراً يوشك أن تنخلع له جدران القاعة؛ كأنه الرعد ليس وراءه إلا الصاعقة، فتجمع الأسد في نفسه واقشعر؛ فأدركنا أنه ما بقي من عمر الشيخ إلا طرفة عين، والشيخ مع ذلك ساكن لا يطرف ولا ينظر إلى الأسد، وما من الحاضرين إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الرعب والإشفاق على الشيخ بنان، ولم يرعنا إلا صمت الأسد وسكونه؛ كأنما ذهل فجأة عن وحشيته، فألقى الأسد على ذنبه، ثم نهض نهضةً أخرى، فمشى مترفعاً ثقيل الخطو، تسمع لمفاصله قعقعة من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ هادئاً، وراح يحتك به ويشتمُّ كما يصنع الكلب الأليف مع صاحبه، وكان الأسد يعلن بهذا السلوك العجيب أن ما نراه سوف لا يكون مصارعة بين هذا التقى والأسد، وإنما يصبح مبارزة بين إرادة الله وإرادة ابن طولون.

فلما سأله ابن طولون عما كان يفكر. قال الحمالي: إنه تحصن بقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾. وكان يفكر: هل لعاب الأسد نجس أو طاهر؟

\*\*\*

قيل إن الحمال تُوفِّي ٣١٠ هـ، وقيل ٣١٦ هـ.. ويقول ابن يونس عن يوم وفاته: «خرج في جنازته أكثر أهل مصر، وكان شيئاً عجيباً من ازدحام الخلائق».

# الفصل السابع

## الطرق الصوفية في مصر

منذ القرن الثالث الهجري بدأ الصوفية يرتبون أنفسهم جماعات وطرقًا منظمة، فظهرت طرق: السقراطية نسبةً إلى السري السقطي، والطيفورية نسبةً إلى أبي يزيد طيفور البسطامي، والجنيدية نسبةً إلى الجنيد، والنورية نسبةً إلى أبي حسين النوري. وعلى الرغم من أن هذه الطرق لم تستمر كثيرًا؛ فإنها كانت التمهيد لظهور الطرق الصوفية في القرنين السادس والسابع الهجريين.

وفي مصر كان إنشاء الخانقاوات في مصر بداية ظهور التصوف العملي في مصر أو الطرق الصوفية، فأصبح هناك نظام للطريقة بوصفها عهدًا بين الشيخ والمريد الذي يريد أن يصحبه في طريق الله. وخلال القرن السابع الهجري اتضحت معالم الطرق الصوفية بحيث كان لكل منها أوراها وحلقات الذكر التي تُقام بطريقة دورية، والأحزاب والأوراد التي تتردد في تلك الحلقات، وكان لكل طريقة علم وزي.

\*\*\*

في القرن السابع الهجري عرفت مصر أسماء صوفية عديدة عاشت على أرضها، من بينهم: الحسن الصوفي بن عبد الرحيم القنائي، وابن الصباغ القوصي تلميذ الشيخ عبد الرحيم القنائي، وأبو الحجاج الأقصري، والقباري، والشاطبي، والجنيد، وعمر بن الفارض، وإبراهيم الدسوقي، والششتري. ونستطيع القول إن القرن السابع هو قرن التصوف في مصر، وكان لهذا أسبابه التاريخية:

كان سقوط بغداد حافزًا دفع الكثير من العلماء إلى مصر التي كان المناخ فيها مهيئًا لاستقبال هذا الفكر الروحي القادم من العراق ومن المغرب.

في هذا القرن نجحت مصر في صد جحافل التتار ودحر الصليبيين، وانتقل مركز الخلافة العباسية إلى مصر، وهو ما رحب به الظاهر بيبرس؛ لإكساب المماليك تلك الشرعية التي كانوا يفتقدونها للجلوس على كرسي الحكم.

وكان الشعب المصري يعاني من أزمات اقتصادية طاحنة خلال هذا القرن وتردي الأحوال الاجتماعية..

كل هذه الضغوط والأحداث الجسام دفعت العديد إلى الاحتفاء بألوية الطرق الصوفية، وكما يقول د. عامر النجار في مؤلفه (نشأة الطرق الصوفية): «التصوف الفردي النظري واكب الحضارة الإسلامية في أوجها. أما التصوف العملي تصوّف أصحاب الطرق الصوفية، فجاء مواكبًا لضعف الحضارة الإسلامية».

هكذا كانت المفارقة التاريخية، خصوصًا وأن من انضموا إلى تلك الطرق منهم من أراد إجازة شيخ ليكون له مريدون، وبمجرد حصوله على الإجازة استغلها أسوأ استغلال.

كانت التربة في مصر مهيئة لاستقبال هؤلاء الشيوخ القادمين من المغرب والعراق تحديدًا، والذين نشروا الطرق الصوفية في مصر، ومن هؤلاء: أبو الفتح الواسطي الذي جاء إلى الإسكندرية، وبشّر بالطريقة الرفاعية، ومهد لها الطريق، وبعد وفاته ٦٣٢ هـ بالإسكندرية، أرسل خلفاء الرفاعي بالعراق السيد أحمد البدوي ليخلفه في زعامة أتباع الرفاعي. أما ابنة أبي الفتح الواسطي فقد أهدت التصوف أحد أقطابه الأربعة إبراهيم الدسوقي. ومن الشخصيات الصوفية التي نشرت الطرق في مصر، بطريق غير مباشر، أبو مدين التلمساني، أحد مواليد قرية تقع بالقرب من إشبيلية، والذي نرح إلى الغرب، ثم إلى الشرق، يأخذ عن العلماء، ثم إلى مكة؛ حيث التقى عبد القادر الجيلاني. ثم عاد ليعلم الطريقة الصوفية ببلاد

المغرب.. وكان من أبرز تلاميذ التلمساني الشيخ عبد الرازق الجزولي أستاذ عبد الرحيم القنائي والأقصري، ومن تلامذته أيضًا عبد السلام بن مشيش أستاذ أبي الحسن الشاذلي.

وبينما ظهرت الرفاعية والجيلانية في العراق خلال القرن السادس الهجري، فإنهما انتشرا في مصر منذ القرن السابع الهجري الذي ظهرت فيه الطرق الصوفية الرئيسة التي ما زالت حية حتى الآن، وتفرع عنها العديد من الطرق.

الطرق الصوفية الرئيسة الأكثر انتشارًا في مصر منها ما هو منسوب إلى الأقطاب الأربعة: البدوي، والجيلاني، والرفاعي، والدسوقي. إضافة إلى الطرق الأخرى: الشاذلية نسبةً إلى أبي الحسن الشاذلي، والنقشبندية نسبةً إلى محمد بهاء الدين نقشبند، وإن كان أتباعها يرون أن طريقتهم في الأصل ترجع إلى أبي بكر الصديق، والقنائية نسبةً إلى سيدي عبد الرحيم القنائي.

وعن تلك الطرق تفرعت طرق صوفية أخرى.

\*\*\*

### الطريقة القنائية

تُنسب إلى السيد عبد الرحيم القنائي، وهو من مواليد سبتة بالمغرب ٥٢١ هـ. أمضى طفولته في تحصيل العلم على يد والده في جامع ترغاي الكبير، وحفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره، ولشدة تعلقه بوالده تأثر بوفاته ومرض مرضًا شديدًا؛ فأرسلته والدته إلى أخواله بدمشق؛ حيث أمضى بها عامين تعلم فيها على يد كبار العلماء والفقهاء، قبل أن يعود إلى ترغاي وقد بلغ العشرين من عمره ليحل محل والده مدرسًا في مسجد ترغاي، وقد اجتذبت دروسه أهل سبتة قاطبة. ثم اتجه لأداء فريضة الحج فبقي في الحجاز تسع سنوات متنقلًا بين مكة والمدينة، وهناك التقى الشيخ مجد الدين القشيري من مدينة قوص بصعيد مصر الذي أصر على أن يصحبه معه إلى مصر، وبالفعل صحبه إلى مدينة

قوص؛ حيث كان القشيري إمام المسجد، ولكن الشيخ عبد الرحيم رحل إلى قنا؛ حيث التقى الشيخ القرشي وحدث ألفة بينهما. وبقي الشيخ عبد الرحيم في قنا ومارس فيها عمله بالتجارة.

وكان للسيد عبد الرحيم مدرسته الصوفية الخاصة التي تسمح للطرق الصوفية بالأخذ منها من غير الخروج على طرقها. وقد ترك الشيخ العديد من المؤلفات، منها: كتاب الأصفياء، وتفسير القرآن الكريم، ورسالة في الزواج.

ثم أصدر الملك العزيز بالله ابن صلاح الدين الأيوبي قرارًا بتعيين الشيخ عبد الرحيم شيخًا لمدينة قنا، فأصبح الشيخ مغربي الجذور يُعرَف بـ(القنائي).

وقد تزوج بابنة الشيخ القشيري، وبعد وفاتها تزوج ثلاثًا أخريات، وأنجب منهن تسعة عشر ولدًا وبنثًا. وكانت له زاوية بجوار ضريحه الحالي ظل يلتقي فيها الوافدين للنيل من علمه حتى تُوفِّي ٥٩٢ هـ، وفي النصف الأول من القرن العشرين حل المسجد محل الزاوية.

#### الطريقة الرفاعية

تُنسَب إلى الإمام أحمد الرفاعي الكبير (٥١٢ - ٥٧٨ هـ)، وقد وُلد بقريّة أم حسن التي تُعرَف بـ(أم عبيدة) في محافظة البصرة بالعراق، وخلف خاله الصوفي الكبير الشيخ منصور البطائحي. كان حريصًا على العمل وكسب قوت يومه، فكان يعمل بالاحتطاب وأعمال أخرى، وكان يشترط على كل من يستمع إلى درسه أن يكون له عمل، وكان يعمل بنفسه على خدمة اليتامى والفقراء، قائلًا: «إن تجارتي خدمة النساء والأرامل واليتامى، وأحب أن أشهد نفسي في خدمتهم دائمًا، وإذا رأيت يتيماً يبكي تهتز مفاصلي، وترتعد أعضائي حنانًا له وشفقةً عليه وأخاف منه بكاءه».

وكان يقول: «طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل».

تقوم الطريقة الرفاعية على العمل بمقتضى الكتاب والسنة، وأخذ النفس بالمجاهدة، والإكثار من الذكر. كان أول مَنْ بَشَّرَ بالرفاعية في مصر أبو الفتح الواسطي.

لم يتفرع من الرفاعية فروع في مصر، ولكنها تنتشر في كل محافظات مصر، ويكثر أتباعها في الصعيد، وحسب مصادر الطريقة؛ فإن أتباعها يصل عددهم نحو ٦ ملايين مريد.

### الطريقة البدوية

تُنسَب إلى السيد أحمد البدوي الذي ينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب، ويوجد في شجرة نسب البدوي تسعة من الأئمة الاثني عشرية، وُلِدَ بفاس المغربية ٥٩٦ هـ، وفي عام ٦٠٣ هـ هاجر صبيًا مع أسرته إلى مكة، وفي أثناء تلك الهجرة مروا بمصر وأقاموا بها مدة ثلاث سنوات. وفي مكة كان يلجأ إلى مغارة في جبل أبي قبيص قرب مكة للتعبد، وفي عام ٦٣٤ هـ سافر إلى العراق وعاد منها إلى مكة أكثر إقبالًا على العبادة والتأمل وقيام الليل، حتى قرر عام ٦٣٥ هـ الرحيل إلى مصر وطنطا تحديدًا؛ حيث أقام فوق سطوح دار التاجر (ابن شحيط)، وحوله أتباعه الذين عُرفوا بـ(السطوحيين).

لم يترك السيد البدوي كتبًا أو تراثًا فكريًا، لكنها تلك النصائح التي تركها لتلميذه عبد العال، وفيها يصف طريقته بأنها مبنية على الكتاب والسنة والصدق والصفاء وحُسن الوفاء وحمل الأذى وحفظ العهد. كما أوصاه بحمل الراية الحمراء التي اختارها البدوي اقتداءً بجده النبي ﷺ، وقال البدوي: «إن مَنْ يحملها ينبغي ألا يكذب ولا يأتي بفاحشة، وأن يكون غاض البصر عن محارم الله تعالى، طاهر الذيل، عفوف النفس، خائفًا من الله تعالى، عاملاً بكتاب الله تعالى، ملازمًا للذكر، دائم الفكر».

بعد وفاة السيد أحمد البدوي ٦٧٥ هـ، وانتشار تلاميذه، تفرعت الطريقة البدوية إلى ست عشرة طريقة: المرازقة- الإنبائية- الكناسية- الحمودية- المنايفة- الحلبية- السلامية- الزاهدية- البيومية- التسفانية- السناوية- العربية- السطوحية- المسلمية- البندارية- العنيسبية.

## الطريقة الشاذلية

أجمعت كتب الطبقات والسير على أن أبي الحسن الشاذلي الذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن، وُلِدَ في مدينة سبتة المغربية ٥٩٣ هـ - ١١٩٧ م، وقد اتجه إلى مدينة فاس ولبس الخرقة على يد الشيخ عبد الله بن حرازم، وهو أكبر تلامذة الشيخ أبي مدين التلمساني.

ورحل الشاذلي إلى تونس؛ حيث تفقه على مذهب مالك، والتقى فيها بعدد من أعلام التصوف، من بينهم: أبو سعيد الباجي، وأبو محمد المهدي.

تجول الشاذلي في معظم أنحاء المغرب العربي، ثم العراق؛ حيث التقى أبا الفتح الواسطي تلميذ الإمام الرفاعي الكبير الذي أرسل الواسطي لنشر الطريقة الرفاعية في الإسكندرية. ثم عاد الشاذلي إلى المغرب ليصاحب شيخه ابن مشيش، والذي نصحه بعد فترة بالرحيل إلى قرية شاذلة في تونس، هناك التقى الشيخ الحبيبي، ثم اتخذ مغارة في الجبل مسكنًا ومقامًا للتعب، وقصده الناس، والتفوا حوله لسماع دروسه؛ مما أثار ضده ضغينة أبي القاسم بن البراء قاضي الجماعة في تونس؛ فكاد له لدى السلطان مدعيًا أنه جاسوس فاطمي، وعقد له السلطان مجلسًا ليناقشه العلماء والفقهاء؛ فقرر الشاذلي أن يترك تونس، لكن ابن البراء استمر يكيده، فأرسل إلى سلطان مصر الملك محمد الأيوبي، يكيده للشاذلي الذي ما إن وصل إلى مصر حتى قبض عليه وعُقد له مجلس من العلماء والفقهاء، فلما اكتشف الجميع علمه وورعه أفرج عنه السلطان وأكرمه. وبعد برهة حج الشاذلي إلى مكة، ثم عاد إلى تونس ليلتقي تلميذه العباس المرسي، ويصحبه معه إلى الإسكندرية وعددًا من أتباعه، وعاش في منزل بالقرب من كوم الدكة حبسه عليه السلطان وعلى ذريته. وبدأ الشيخ يلقي الدروس في جامع العطارين، وظل الشاذلي بمصر حوالي أربعة عشر عامًا، حتى تُوفِّي (٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) في صحراء عيذاب وهو في طريقه للحج، وخلفه في رئاسة الطريقة تلميذه وزوج ابنته أبو العباس المرسي.

كان الشاذلي من مدرسة لا تجعل التقشف مرادفًا للتصوف؛ فكان يلبس أفضل الثياب، وكان يقول: «اعرف الله وكن كيف شئت».

وكان يقول أيضًا: «ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا بقبقة الصناعة، ولكن بالصبر على الأوامر، واليقين في الهداية».

وكان يدعو إلى العمل والهمة، وتصوّفه قائم على الكتاب والسنة. وكان يعتبر أن سمات الصوفي الصحيح: «التخلق بأخلاق الله، وحسن المجاورة لأوامر الله، وترك الانتصار للنفس حياءً من الله، وملازمة البساط بصدق الفناء مع الله».

الكرامات في يقينه: «ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة».

ولخص الشاذلي طريقته بقوله: «طريق القصد إلى الله الذكر وبساطة العمل الصالح وثمرته النور والتفكر، وبساطه الصبر وثمرته العلم، والفقر وبساطه السكر، وثمرته المزيد منه، والحب وبساطه بغض الدنيا وأهلها وثمرته الوصول للمحبوب».

فروع الطريقة الشاذلية بمصر: البكرية- السلامية- الخواطرية- القاوقجية- الوفاية- الحامدية- الجوهريّة- العزمية- الفيضية- الهاشمية- السمانية- العفيفية- القاسمية- العروسية- الهندوشية.

وللطريقة فروعها في المغرب العربي، منها: الجازولية- العلوية.

الطريقة الدسوقية البرهامية

تُنسب إلى برهان الدين إبراهيم بن أبي المجد، وُلِدَ في ٦٣٣ هـ، وتُوفِّيَ في ٦٧٦ هـ.

والدته ابنة أبي الفتح الواسطي خليفة الرفاعي في مصر، تفقه في علوم الدين صغيرًا، ويقال إنه دخل الخلوة وهو في الخامسة من عمره، ولم يخرج منها إلا حين تُوفِّيَ والده.

لم يتزوج الدسوقي، ووهب كل وقته للتصوف والتعبد والتأمل، وكان يجيد عدة لغات إلى جانب العربية، مثل: السريانية، والعبرية. وأشهر كتبه: الجوهر أو الحقائق، جزء منه موجود

في دار الكتب المصرية، وجزء آخر في جامعة ليدن بهولندا، ونقل المستشرقون بعض مؤلفاته إلى ألمانيا، وله قصيدة محفوظة في المتحف البريطاني بلندن.

ولما سمع السلطان بيبرس عن علمه عينه شيخًا للإسلام؛ فوافق الدسوقي، ووهب راتبه من الوظيفة لفقراء المسلمين، وبنى له السلطان زاوية؛ كي يلتقي فيها بمريديه وهي الزاوية التي دُفِن بها عند وفاته وهو في الثالثة والأربعين من عمره. وقد أُقيم على مقبرته بعد وفاته ضريح فوقه قبة، وألحق به مسجد حُبِس عليه كثير من الأملاك والعقارات يُصَرَف ريعها على المسجد والعاملين فيه وطلاب العلم، وقد أُدخِل على المسجد والضريح العديد من الإصلاحات، خصوصًا في عهد السلطان قايتباي. أما المسجد الحالي فشُيِّد في القرن التاسع عشر.

مركز الطريقة الدسوقية دسوق بمحافظة كفر الشيخ، ومن فروعها: الشرنوبية- السعيدية الشرنوبية- الشهاوية- المجاهدية.

الطريقة القادرية الجيلانية

مؤسسها عبد القادر بن موسى وُلِد (٤١٧ هـ- ١٠٧٧ م) بجيلان في بلاد فارس.. وله مصنفات عديدة، منها: فتوح الغيب، والفتح الرباني، وجلاء خاطر.

تقوم الطريقة على الذكر الجهري في حلقة الاجتماع، والرياضة الشاقة بالتدرج في تقليل الأكل. تُوجد الطريقة في القاهرة، وأغلب محافظات مصر، وتفرعت عنها الطريقة الفارضية، والقاسمية، والشرعية، والنيازية. ويتجاوز عدد منتسبيها مليون مرید.

\*\*\*

أحدث الطرق التي أقرتها مشيخة الطرق الصوفية بمقتضى القرار رقم ١١ لسنة ٢٠١٧ م، الكردية النقشبندية، والرضوانية الخلوتية.

• **الرضوانية الخلوئية:** تأسست على يد الشيخ أحمد رضوان عام ١٩٣٠ م، ولم تسعَ للحصول على الإشهار الرسمي سوى عام ٢٠١٧ م، وتُعدّ الساحة الرضوانية بالأقصر المقر الرسمي للطريقة، وكان الشيخ رضوان على علاقة وطيدة بالرئيس عبد الناصر. ولما اشتد المرض على الشيخ رضوان أرسل الرئيس طائرته الخاصة لنقل الشيخ إلى القاهرة للعلاج في المستشفى العسكري، ولما تُوفّي الشيخ في ١٠ من يونيو ١٩٦٧ م، أمر الرئيس القصر الجمهوري بتغسيل الشيخ وتجهيزه وتكفينه والصلاة عليه بالقاهرة، وتم إعداد عربات الدرجة الأولى بالسكة الحديد لنقل المعزين من القاهرة إلى الأقصر؛ نظرًا لتوقف حركة الطيران عقب ٥ يونيو ١٩٦٧ م.

• **الكردية النقشبندية:** تُنسب للشيخ محمد أمين الكردي، وهو من مواليد النصف الثاني من القرن الثالث عشر من الهجرة بمدينة إربل بالعراق، وشب على الطريقة النقشبندية. سافر إلى المدينة، وأقام بها سنوات عاكفًا على تلقي الدرس، وبرع حتى ألقى الدروس في المسجد النبوي، ثم جاء إلى مصر وانتسب برواق الأكراد في الأزهر الشريف، وأقبل على تلقي العلم وأخذ الفقه على الشيخ مصطفى عز الشافعي.

وظل أتباع الطريقة لعقود يحيون جلساتهم الأسبوعية والمولد بداية كل عام هجري حتى مايو ٢٠١٧ م، حين منع الأمن إقامة المولد السنوي إلا بعد ترخيص أوضاعها، فتم إشهارها رسميًا.

الشاذلية المحمدية

في عام ٢٠١٨ م أعلن الشيخ علي جمعة عن طريقة صوفية جديدة يرأسها تحت مسمى الشاذلية العلية المحمدية، ويعتمد منهجها على إحياء الطريقة الشاذلية الأولى. وهي أحدث وآخر الطرق الصوفية التي تم الإعلان عنها حتى كتابة هذه السطور.

ليصبح لدينا في مصر نحو ٧٨ طريقة صوفية تم إشهارها رسميًا وتباعًا؛ وفق قانون تنظيم الطرق الصوفية رقم ١١٨ لسنة ١٩٧٦.. وهو يُعدّ رقمًا كبيرًا نسبيًا إذا ما علمنا أن

مصر كان بها عام ١٩٤٠ م (٢٤ طريقة صوفية فقط)؛ حسب تقرير مجلة المصور  
الصادر في ١٠ من مايو ١٩٤٠ م، وهو ما يعني أن الطرق الصوفية زادت خلال ٨٠ عامًا  
بمقدار الضعفين.

## الفصل الثامن

### إسكندرية ماريا وهواها صوفي

إذا كانت مصر قد استقبلت الأولياء من المشرق، فإن نسمات الأولياء الأكثر أثرًا هبت عليها من المغرب، وكانت الإسكندرية هي محطة أولئك الأولياء في رحلتهم الطويلة من وإلى الحج. فلما لاقت نسماتها هوى في أنفسهم ووجدوا فيها شبهًا من مدنهم الساحلية في المغرب العربي والأندلس التي أضحت فردوسهم المفقود؛ اتخذوا من الإسكندرية سكنًا ومسكنًا ومدفنًا. وشكلوا -إلى جانب الأولياء الذين جاءوها من بلدان أخرى، مثل: سيدي ياقوت ابن الحبشة، وأبو الدرداء ابن المدينة المنورة، والحافظ السلفي عالم الحديث الذي أتى من بلاد فارس، وكان صلاح الدين الأيوبي يحرص على قضاء شهر رمضان من كل عام بالإسكندرية؛ ليسمع منه الحديث النبوي- شكلوا جميعًا منظومة روحانية غلفت المدينة المفتوحة بملء ذراعها على البحر ومختلف الثقافات. ثم أضافت المدينة العتيقة بصمتها بوليها إسكندراني الأصل والنشأة (سيدي القباري).

كان لأولياء الإسكندرية كرامة العالم الفقيه الذي يهب حياته للعلم والفضيلة ولا يخشى في الحق لومة لائم ولا صاحب سلطان.. وإن تدخلت الرواية الشعبية في بعض الأحيان لتضع لمستها بقصص عن كرامات أسطورية أراد بها الوجدان الشعبي أن تكون ملجأً ينقذها من الشتات، فلم يجد أفضل من أضرحة أولئك البررة لتعلق عليها الآمال المؤجلة والأحلام البعيدة.

\*\*\*

أشهر أولياء الإسكندرية على الإطلاق هم الثلاثي الذين جسدتهم الأغنية السكندرية الشهيرة، في ترنيمة عشق لسيدي أبي العباس الأندلسي، وسيدي ياقوت الحبشي، وسيدي

أبي الدرداء ابن المدينة المنورة. ورغم اختلاف أصولهم، فإنهم في الوجدان أولياء  
سكندريون بامتياز:

«اقرأ الفاتحة لأبو العباس، يا إسكندرية يا أجدع ناس..

الفاتحة الثانية لسيدي ياقوت، واللي يعاديننا يطق يموت..

الفاتحة الثالثة لأبو الدردار، اللي يعاديننا يولع نار».

في منطقة بحري بحي الجمرك وفي إطلالة على البحر، مسجد وضريح (المرسي أبو  
العباس)، أهم أولياء المدينة، الشيخ الأندلسي الذي صار يُنسب إلى الإسكندرية وتُنسب  
هي إليه، وصار القسم به «وحياة المرسي أبو العباس» على لسان الإسكندرية قسماً لا  
يمكن التشكيك فيه.

المرسي أبو العباس ثاني خلفاء الطريقة الشاذلية، ساقه القدر إلى قدره حين ترك مرسية  
حيث وُلد وعاش في كنف أبيه وتعلم أصول الفقه، مصطحباً والده في رحلة الحج فركب  
مع أسرته السفينة من شواطئ الجزائر، إلا أن السفينة غرقت في البحر ولم ينجُ إلا أبو  
العباس وشقيقه محمد اللذان وصلا إلى شواطئ تونس وعاشا بها، وهناك عمل شقيقه  
محمد بالتجارة كوالدهما.

أما أبو العباس فقد التقى أستاذه أبو الحسن الشاذلي. واختار التفقه في أمور الدين على  
يديه، ثم رحل معه إلى مصر واستقرا معاً في الإسكندرية وتحديداً بحي كوم الدكة؛ حيث  
اتخذ الشاذلي المسجد الغربي (جامع العطارين) مكاناً لمجلسه ودروسه، إلا أن السماء  
قدرت للشاذلي أن يموت ويُدفن بعيداً عن مدينته حيث وافته المنية في وادي حميثر  
جنوب مرسى علم في أثناء توجُّهه إلى الأراضي الحجازية. وأصبح مقامه بالبحر الأحمر  
قبلة للزائرين.

وفي الإسكندرية وبعد وفاته أكمل الشيخ أبو العباس المرسي المسيرة، وتلقى عنه العلم الكثيرون منهم: الإمام البوصيري، وابن عطاء الله السكندري، وياقوت العرش، وابن اللبان، والعز بن عبد السلام، وابن أبي شامة.

«الفاتحة الثانية لسيدي ياقوت»

وتتكرر مجددًا علاقة الحب والعلم وأخذ العهد والمصاهرة بين الأستاذ وتلميذه، فكما كان العباس الأقرب لأستاذه الشاذلي، اصطفى العباس ياقوت العرش تلميذًا ومريدًا وخليفةً له في مجالس العلم، بل وزوجه ابنته (بهيجة) التي أنجبها من زوجته ابنة أستاذه الشاذلي.. وكان ياقوت العرش يُقدّر زوجته، حتى قيل إنه كان إذا دخل عليه أحد من الأكابر وهو يكلمها لا يقطع حديثها حتى تكمله، ويقول: «بنت شيخي، اعذروني».

كان ياقوت صبيًا حبشيًا اختطفه أحد التجار، وشحنه على مركب متجهًا إلى الإسكندرية، وفي الطريق كادت المركب تغرق بسبب عاصفة شديدة، فنذر صاحب المركب نذرًا إن نجوا أن يهدي الشيخ المرسي عبدًا، ولما نجت السفينة أراد الرجل أن يفِي بالنذر؛ فاختر ياقوت العرش، إلا أنه تراجع لما وجد به حكمة، فاختر صبيًا آخر.

وهناك في الإسكندرية كان المرسي في انتظار خليفته، فقد تنبأ بقدومه لتلاميذه الذين شاهدوه يُعَد العصيدة، فلما سألوه قال إنه يحتفل بمولد ولده ياقوت العرش.

فلما جاءه التاجر بال عبد، قال له المرسي: «العبد الذي معك ليس العبد الذي عينته، فأحضر التاجر ياقوت العرش فورًا، وقال له: والله يا سيدي استحييت أن أعطيك إياه وهو على هذه الحالة».

نهل ياقوت العرش العلم عن أستاذه وخلفه في مجلس العلم، ويُحكى أن السلطان حسن جاء لزيارته، فلما أبصره خطر بباله: عبد أسود أعطي هذا! فلما دنا منه ضربه الشيخ على

رأسه سبع ضربات، وقال: يا حسن! **{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ}** (سورة الزخرف، جزء من الآية ٥٩)، فعاش السلطان بعدها سبعة أشهر فقط.

وعندما تُوقى ياقوت العرش دُفن بجوار (المرسي أبو العباس). وفي ٢٥ من رمضان كل عام تقيم له الطريقة الشاذلية مولدًا يجتذب مريديه من كل حدب.

«الفاتحة الثالثة لأبو الدردار»

ليس لنا أن ننسى «الإفيه» الشهير في فيلم (فجر الإسلام) للكاتب عبد الحميد جودة السحار، عندما قام أحد المسلمين (الذي كان يقوم بدوره الممثل محمد فرج) بتكسير أحد الأصنام أمام كفار قريش، فإذا به يصرخ: «شُلت يدي» مدعيًا قيام الآلهة بالانتقام منه، ليصول الكفار ويجولوا هاتفين باسم اللات والعزى، قبل أن يعود (محمد فرج) قائلاً بضحكة ساخرة محاولاً إغاية الكفار: «إنها سليمة».

هذا المشهد يكاد يكون نسخة مكررة من قصة يتندر بها الإسكندرانية ويؤمنون بها، مع اختلاف النهاية في القصتين. تقول الرواية السكندرية إنه بينما حاول موظفو الحي إزالة المسجد الذي يتوسط خط الترام في كرموز، إذا بالعامل الذي بدأ بالهدم وقد أصيب بالشلل.. فكان ذلك نذيرًا لمن تُسوّل له نفسه الاقتراب من مسجد وضريح الصحابي الأنصاري أبو الدرداء.. ثالث أولياء الإسكندرية الذين لا بد من قراءة الفاتحة له بعد (سيدي أبو العباس، وسيدي ياقوت).

الولي الصحابي الذي استخدمه السكندريون للتحذير من موجات البرد القارسة، مستشهدين بالحديث النبوي: «اتقوا شر البرد فقد قتل أخاكم أبا الدرداء».. ورغم أن هذا الحديث لا أصل له كما رأى معظم العلماء باعتبار أن أبا الدرداء مات بعد النبي ﷺ بكثير فإن أهل الإسكندرية ما زالوا يرددونه.

وهكذا ما زال شارع أبي الدرداء يحتفظ بمقام الشيخ الذي مر حوله الترام، رغم أن بعض المراجع تذكر أن المقام يخلو من شيخه وأن القبة «مفيش تحتها شيخ»، وأن أبا الدرداء إنما دُفِن في دمشق. لكن أهل المدينة يابون أن يصدقوا ذلك وما زالوا يتحاكون بكرامات الشيخ الذي أنقذ حي كرموز من طوربيد موجه إليهم إبان الحرب العالمية الثانية؛ حيث يروون أن الشيخ قام من مرقدته وصد الطوربيد بيديه المجردتين.

وإن كان لـ (المرسي أبو العباس) عند أهل الإسكندرية حظوة العلم، فإن لأبي الدرداء مكانة مهمة نابغة من كونه أحد صحابة النبي ﷺ، بل ومن صحابته المقربين؛ حيث قال عنه النبي ﷺ: «هو حكيم أمتي» فقد كان ممن جمعوا القرآن بعد أن أشهر إسلامه في غزوة بدر، وفي يوم أُحُد كان ممن وقفوا ليدافعوا عن النبي ﷺ بأجسادهم، وكان ذلك من موافقه التي دعت الرسول ﷺ ليقول عنه: «نعم الفارس عويمر». كان قبل الإسلام يعمل بالتجارة فلما أسلم تفرغ للعبادة، وقد قال عنه الرسول ﷺ: «إن الله وعدني إسلام أبي الدرداء».

وظل خلفاء المسلمين يحفظون لأبي الدرداء مكانته حتى اختاره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قاضيًا للمدينة. وقد شارك في فتح مصر، وقيل إنه قضى وقتًا في الإسكندرية ثم رحل إلى الفسطاط. وفي عهد عثمان بن عفان عُيِّن قاضيًا على دمشق.

\*\*\*

ما زلنا في ساحة المساجد بحي الجمرك وحضرة الأولياء العارفين بالله العالمين بشريعته، العاملين بها وبسنة نبيه ﷺ، ما زلنا حيث يحط الحمام أهلاً وسهلاً، ويغدو بين قباب أبدعت زخارفها أيادٍ متبتلة خاشعة متطهرة.. ما زلنا في الساحة المباركة ببركة العلم والعلماء، وبين أضرحة الشيخ (المرسي أبو العباس) وتلامذته المقربين المخلصين.

وها نحن في حضرة أحد التلامذة الأثيرين، «لسان الشعر»؛ كما سماه أستاذه المرسي أبو العباس، حين خلع عليه هذا اللقب. بينما منح تلميذه الآخر الأثير لديه أيضًا، ابن عطاء

السكندري لقب «لسان النثر».

نحن في مسجد الإمام البوصيري، ابن الصعيد ميلادًا وسكنًا، المغربي أصلًا ونسبًا وحسبًا،  
والذي اتخذ لقبه من مدينة (بوصير) الواقعة بين الفيوم وبني سويف.

وأمام ضريح صاحب «البردة» أعظم قصيدة في المدح النبوي، التي ما زالت بعض أبياتها  
تزين مسجده القريب من مسجد أستاذه، أبيات هي خير معين ومنهل للمداحين والمنشدين  
في ليالي الاحتفال بالمولد النبوي الشريف المنيرة المبهجة كمشكاة زجاجها كالكوكب  
الدري، أبيات يصدح بها المبتهلون حتى الصباح، وهم يتمايلون في وله، ويغيبون مع  
الكلمات في عالم صوفي الأبعاد روحاني الوجدان، يُحلقون فيه بعيدًا عن الأرض وهم  
يرددون:

محمدٌ سيدُ الكونينِ والثقلينِ

والفريقينِ من عُرْبٍ ومن عَجَمِ

نَبِيُّنا الأَمْرُ النَّاهِي فلا أَحَدٌ

أَبْرُ في قَوْلٍ لا منه ولا نَعَمِ

هُوَ الحَبِيبُ الذي تُرَجَى شِفاعَتُهُ

لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوالِ مُقْتَحِمِ

هذه هي قصيدة (الكواكب الدرية في مدح خير البرية).

التي سُميت بـ«البردة»؛ نسبةً إلى البردة النبوية الشريفة التي رآها البوصيري في منامه  
وقد خلعها عليه النبي ﷺ. ليفيق البوصيري من نومه وقد شُفي من الشلل النصفي الذي  
كان قد أصابه ودفعه لكتابة أبيات القصيدة تقربًا وتضرعًا للسماء عليها تريحه مما ألمَّ به،

فجاءه الرسول ﷺ في المنام وألقى عليه برده؛ لذا سُميت «البراءة»؛ نسبةً إلى براءته من المرض. كما عُرفت بـ«الميمية»؛ لأن آخر قافيتها حرف الميم. القصيدة التي ترجمها الكثيرون ونهل منها الأكثر، ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقي الذي استوحى منها «نهج البردة»، وشدت بها كوكب الشرق أم كلثوم.

\*\*\*

ومن صاحب البردة إلى صاحب الكرامات (سيدي أبو الفتح)، خال شيخنا إبراهيم الدسوقي؛ حيث يردد الزائرون: «الله حي.. ومدد يا سيدي أبو الفتح.. وعمار عمار يا أبو الفتح جيتلك.. وقصدتك وأنت الدوا والطبيب».

هنا ضريح (سيدي أبو الفتح) خليفة سيدي الرفاعي، العراقي الذي أتى الإسكندرية ناشراً ومبشراً بالطريقة الرفاعية، وبجواره ضريح السيدة فاطمة والدة سيدي إبراهيم الدسوقي، وبجوارها خادمهما بركات.. ويقال بين المتصوفة إنه أُطلق على السيدة فاطمة اسم «رقية»؛ لأنها مبروكة كالرقية الشرعية، وأُطلق عليها «ليلي»؛ لما لها من ليالٍ بها نفحات وبركة.

يخبرك الزائرون الذين تتزايد أعدادهم بالمسجد في ليلة مولد الشيخ خلال شهر رمضان، عن كرامات (سيدي أبو الفتح)، الذي تطايرت جثته بعد وفاته في الهواء، تلك الكرامات التي رفعت اسمه على إحدى الحارات المجاورة في حي الجمرك يُقال إنه كان يسكن بها. وفي ليلة الاحتفال بمولد الشيخ يفد المريدون أفواجاً يُقدّمون النذور على اختلاف ألوانها، يوزعون المياه المحلاة بماء الورد، ويحرصون على تلاوة الفاتحة وسورتي (يس، والواقعة)؛ أملاً في طرد الغم، وطمعاً في فك الكرب.

\*\*\*

جاء سيدي الطرطوشي إلى مصر بعد أن استنجد به أهالي الإسكندرية الذين كانوا يعانون الأمرين: آثار القحط والجذب، وضيق الرزق الناتج عن (الشدة المستنصرية) أشهر المجاعات التي عرفتتها المحروسة في ظل الحكم الفاطمي، وبطش الوزير الأفضل بأهالي المدينة التي احتضنت ابن الخليفة الهارب (نزار).

القصة دارت أحداثها في القرن الخامس الهجري، وبدأت عقب وفاة الخليفة المستنصر الفاطمي؛ حيث بادر وزيره الأفضل بإعلان تولي (أبي القاسم) أصغر أولاد الخليفة المستنصر، عرش البلاد؛ مما أثار حفيظة الابن الأكبر؛ ففر إلى الإسكندرية، فما كان من الوزير الأفضل إلا أن حاصرها ونصب عليها المجانيق؛ انتقامًا من أهلها، كما أقدم على قتل كثير من العلماء والفقهاء بها.

هنا علم أهالي الإسكندرية أن العالم الجليل سليل مدينة طرطوشة الأندلسية (أبو بكر الطرطوشي)، وصل إلى مدينة رشيد، فذهب إليه وفد يطلب منه المجيء إلى الإسكندرية لنشر العلم على مذهب الإمام مالك؛ فاستجاب سيدي الطرطوشي لطلبهم.

كان سيدي أبو بكر الطرطوشي قد بدأ رحلة العلم من الأندلس، وتلقى العلوم في مسجدها الكبير، ثم نهل من علماء سائر المدن في الأندلس، حتى انتهى به المطاف في (سرقسطة) بالأندلس؛ حيث التقى فيها العالم القاضي (أبو الوليد الباجي) شيخ علماء الأندلس بعد رحيل ابن حزم، فأخذ الطرطوشي عن الباجي العلم قبل أن يتجه إلى تأدية فريضة الحج ويستقر بمكة قليلاً، ومنها إلى بغداد حاضرة العلم آنذاك؛ حيث كانت المدرسة النظامية تعج بالعلماء. وبعد أن كوّن الطرطوشي لنفسه فلسفة خاصة اتجه للشام يُفقه الناس، ومنها شد الرحال إلى مصر.

في مصر تزوج سيدة من أكبر بيوت الإسكندرية هي خالة تلميذه وخليفته (أبي الطاهر).

لم يقتصر دوره في الإسكندرية على تفقيه الناس وتعليمهم، بل امتد أيضًا إلى نصرتهم وانتقاد أي ظلم يقع عليهم والسعي لرفع تلك المظالم، وكانت النتيجة أن أمر الوزير الأفضل

بالقبض عليه واقتياده إلى جامع المرصد بالفسطاط، إلا أنه لم يبقَ في السجن سوى شهر واحد؛ حيث تُوفِّي الوزير الأفضل، وتولى الوزارة بعده الوزير البطائحي الذي أمر بالإفراج عن الطرطوشي.

في الإسكندرية وضع الطرطوشي العديد من المؤلفات في الفقه والسياسة وتُوفِّي، -كما قال المقرئزي- (٥٢٠ هـ)، وجاء في النجوم الزاهرة أنه كان في السبعين من عمره.. وإلى الآن ما زال ضريحه بحي الباب الأخضر بمنطقة الجمرك من أهم مزارات الأولياء.

\*\*\*

ومن الأندلس عرفت مصر أيضًا الشيخ الشاطبي.. وإن كان المدفون في مدينة الإسكندرية هو ولده (محمد) الذي عُرف حي الشاطبي نسبةً له.

أما الشاطبي الأب فهو القاسم بن فيره بن خلف الرعيني، الذي ينتمي إلى مدينة (شاطبة) التي وُلِدَ بها عام (٥٣٨ هـ)، وقد كُفَّ بصره صغيرًا، فأقبل على حفظ القرآن وتلقي العلوم الدينية، ودرس الحديث والنحو والتفسير. وقد تولى الشاطبي الخطابة في مدينة (بلنسية) مع صغر سنه، وترك الأندلس وهو في الرابعة والثلاثين من عمره؛ يريد الحج، فدخل مصر ونزل بالإسكندرية، والتقى هناك بعالم عصره الحافظ عالم الحديث، ورافقه لفترة قبل أن يرحل إلى القاهرة، وهناك استقبله القاضي الفاضل بحفاوة، وطلب منه أن يكون شيخ مدرسته الفاضلية.

# الفصل التاسع

## الخرقة المستنيرة

كانت الطرق الصوفية في نشأتها الأولى نبراس علم وهداية يغرس الأخلاق، ويؤكد مبدأ الاهتداء بالكتاب والسنة، وكان أتباعهم الأوائل يسيرون على نهجهم، وكانوا أهلاً للتصوف بجوهره الحقيقي الذي لا يروج لخزعبلات الطير في الهواء، والسير على الماء، وترويض الأفاعي. ولا يميل إلى التواكل أو فقدان الهمة، فقد كان كل الأولياء يؤكدون قيمة العمل وعدم التواكل، فكان الرفاعي يعمل بالاحتطاب وأعمال أخرى، وكان يشترط على كل من يستمع إلى درسه أن يكون له عمل. وكان الأولياء يهتمون لأحوال الناس ويقومون بدورهم في خدمة المجتمع، فكان الرفاعي يعمل بنفسه على خدمة اليتامى والفقراء، قائلاً: «إن تجارتي خدمة النساء والأرامل واليتامى، وأحب أن أشهد نفسي في خدمتهم دائماً، وإذا رأيت يتيماً يبكي تهتز مفاصلي، وترتعد أعضائي حنائاً له وشفقةً عليه، وأخاف منه بكاءه».

وكان يقول: «طريقي دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل».

دافع أرباب الطرق الصوفية وأتباعهم الصالحون آنذاك عن المظلوم دون الالتفات إلى جور الحاكم أو جبروته، فوجد الدسوقي يرسل رسالة شديدة اللهجة إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون؛ بسبب ظلم اقترفه ضد الشعب، ولما غضب منه السلطان وطلب منه الحضور، أبا الدسوقي، وقال: «إني هنا، ومن يريدني فعليه الحضور للقائي». فلم يجد السلطان مفراً من الاستجابة للشيخ ذي المكانة الرفيعة في قلوب الناس.

كذلك كان عبد القادر الجيلاني جريئاً في قول الحق، فلما ولي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله القاضي ابن المزاحم الظالم، قال الجيلاني على المنبر: «وليت على المسلمين أظلم

الظالمين، فما جوابك عند رب العالمين أرحم الراحمين؟». فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي.

وفي مواجهة الاستعمار سجل التصوف موقفًا حازمًا، فها هو أبو الحسن الشاذلي وهو في أواخر حياته حين كُفَّ بصره ووهن عظمه يذهب إلى ميدان المعركة مع جند مصر في مواجهة جيش لويس التاسع مع أعظم الرجال في العلم والدين: العز بن عبد السلام، ومجد الدين القشيري، ومجد الدين الإخميمي، ليكون وجودهم حافزًا لرفع الروح المعنوية لدى الجنود.

وكان لألوية الطرق الصوفية دورها في نشر الإسلام في بقاع مختلفة من الأرض، وما زال لتلك الطرق وجودها القوي فيها.

\*\*\*

كان هذا شأن أقطاب التصوف، وسار على نهجهم رجال عرفوا أن لهم دورًا في خدمة دينهم داخل وخارج حلقات الدرس في المساجد والزوايا.

الإمام الدردير قاد ثورة وطنية على الأمراء المماليك (١٢٠٠ هـ - ١٧٨٦ م)، وكان من نتائجها اعتراف المماليك أن الأمة مصدر السلطات، وأقروا بعدم فرض ضرائب جديدة إلا برأي الشعب واعترافهم الكامل بحرية الأمة وكرامتها.

الشيخ حسن القصبي الشهير بأبي حامد الأزهري الخلوتي، ويصل نسبه إلى الإمام الحسن ابن الإمام علي (كُرِّمَ الله وجهه)، وهو حفيد السيد عيسى طلحة أول من حضر إلى مصر من طرابلس بالمغرب؛ حيث توطن أجداده منذ عصر الشريف السيد إدريس، وهو من كبار علماء الأزهر، وقد أخذ القصبي العهد على الطريقة الخلوتية من الشيخ عبد الله الشرقاوي، وقد اشترك معًا في التصدي للحملة الفرنسية والمشاركة مع أبناء الوطن للدفاع عن البلاد.

الشيخ أحمد الصاوي مؤسس الطريقة الصاوية الخلوتية، وأحد كبار علماء الأزهر الشريف،  
التف حوله تلاميذه من طلاب العلم، وكان له عمود بالجامع الأزهر يُسمّى بعمود الشيخ  
الصاوي، وكان يُعلّم أبناءه من طلاب الأزهر القرآن الكريم وتفسيره وأحكامه، وأحاديث  
الرسول ﷺ.

وقد ذكر الشيخ الجبرتي أن الشيخ الصاوي كان له دور كبير في مقاومة الحملة الفرنسية  
على مصر مع الشيخ عمر مكرم نقيب السادة الأشراف سابقًا، فكان الصاوي إمامًا عالمًا  
مربيًا مجاهدًا مدافعًا عن وطنه وبلده ضد أي عدوان، وللشيخ الصاوي مؤلفات عديدة، من  
أشهرها: الفائدة والإيجاز ونفع السائل، وحاشية الصاوي على مختصر البخاري، وشرح  
الصلوات الدرديرية.

\*\*\*

ومن أبرز مشايخ الطريقة الغنيمية الشيخ محمد الغنيمي التفتازاني (١٨٩٣- ١٩٣٦ م)، وكان  
صحفيًا لبقًا وخطيبًا مفوهًا ومحاضرًا وعالمًا مدققًا، أتقن اللغات الإنجليزية والفرنسية  
والتركية، وسافر إلى أوروبا دارسًا، وكان له دور مشهود في الحركة الوطنية في عصره؛  
حيث كانت لمقالاته وخطبه في الأزهر والجامع السياسية والوطنية أبلغ الأثر في مقاومة  
الاستعمار، كما كان مؤسسًا للرابطة الشرقية، وهي رابطة دولية كان لها دور مشرف في  
القضايا الإسلامية والعربية.

وللشيخ التفتازاني العديد من المؤلفات، كما أصدر عام ١٩٠٩ م مجلة البشائر لخدمة الدين  
والتصوف والأدب، وله كم هائل من المقالات، من أبرزها: (حديث الصيام)، وهو باب يومي  
ثابت في جريدة الأهرام كان يُنشر خلال شهر رمضان من كل عام، بدءًا من عام ١٩٢٢ م،  
وبصفة متصلة حتى وفاته، كان يُحدّث القارئ عبره في مختلف أمور دينه ودنياه.

ومن أشهر مشايخ الطريقة أيضًا الدكتور أبو الوفا التفتازاني (١٩٣٠ - ١٩٩٤ م)، نائب رئيس  
جامعة القاهرة وشيخ مشايخ الطرق الصوفية الأسبق، والذي أدى دورًا كبيرًا للأمة

الإسلامية والعربية، فهو الوحيد الذي جمع بين أستاذه للفلسفة الإسلامية والتصوف أكاديميًا والتصوف السني منهجًا وعملاً، وتلمذ على يد كبار الفلاسفة، مثل: الشيخ مصطفى عبد الرازق، وقد انطلق في طريقه الشاق في البحث ليغوص في التراث الفلسفي الإسلامي، ووضع تصورًا جديدًا لمنهج دراسة الفلسفة الإسلامية عامةً والتصوف خاصةً؛ مما هيأه لمكانة علمية فريدة، فُعِرِفَ في جامعات أوروبا وأمريكا وأستراليا مثلما عُرف في جامعات مصر والأمة العربية، وأسهم في إنشاء أقسام الفلسفة الإسلامية، وسعى الدكتور التفتازاني لتحويل دراسة التصوف إلى علم يخضع لمناهج البحث للوقوف على حقيقته والاستفادة منه في خدمة قضايا العصر، وكانت قضيته الأساسية تنقية التصوف من الشوائب ودحض الأباطيل والخرافات التي علقت بالصوفية عبر القرون.

# الفصل العاشر

## الخانقاوات (بيوت المتصوفة)

قد لا يعلم الكثيرون أن كلمة (الخانكة) التي ارتبطت في الأذهان بمستشفى الأمراض العقلية، هي تحريف لكلمة (خانقاه)، وهي البناء المعماري الذي شُيّد لإيواء المتصوفة ورجال العلم.. فكيف جاءت الصلة بين بناء شُيّد لمرضى العقول وآخر ارتفع لمنارة العقول؟ تلك هي المسألة!

ظل التصوف الذي عرفته مصر حركة روحية ناعمة وهادئة وفردية، فلا مؤسسات ولا جماعات ينتظم فيها المتصوفة، ولم يكن هناك دافع لتلك الحياة الروحية التي يعيشها المتصوفة سوى الرغبة الداخلية الحقيقية النابعة من المتصوف، ولكن تغيرت الحال منذ قرر صلاح الدين الأيوبي إنشاء بيوت للمتصوفة عُرفت باسم (الخانقاوات)، والتي كانت نقطة تحوّل مفصلية في تاريخ التصوف المصري؛ إذ كانت سبباً في تشويبه خلال العصرين المملوكي والعثماني بعد أن أصبحت تلك الخانقاوات بيوتاً للدراويش وخزعبلاتهم، خصوصاً بعد أن حل محلها التكايا في العصر العثماني، والتي يقول علي باشا مبارك إنها تحولت إلى بوتقة لإيواء العاطلين العثمانيين النازحين من الدولة الأم إلى الولايات الغنية، مثل: مصر والشام، ومن ثم فقد صدق المثل المأثور أن التكايا تأوي (تتأبله السلطان)، ولاحقاً حرّف المصريون كلمة (خانقاه) إلى خانكة، وأطلقت على منطقة سرباقوس نسبةً إلى الخانقاه التي شيدها الناصر محمد بن قلاوون، ولكن الخديو عباس حلمي بنى مكانها مستشفى للأمراض العقلية عُرف باسم مستشفى الخانكة. ويُقال إن المصطلح أصبح مرادفًا من ذلك الوقت في أذهان العامة لكل الدراويش والمجازيب، وكأنما اختزل الناس خلاله الواقع المزري بعد أن تحوّل ساكنو ومرتادو الخانقاوات من طلاب للعلم إلى دراويش مجازيب يدعون العلم.

\*\*\*

ولكن قبل أن نتحدث عن هذا المصير علنا نعود إلى نقطة البداية حين أراد صلاح الدين الأيوبي مواجهة بقايا المد الشيعي الفاطمي في مصر بـ(التصوف السني)؛ فلجأ إلى إنشاء الخانقاوات.

و(الخانقاه) كلمة معربة عن الفارسية تعني (بيت المتصوفة الذي يتجمعون فيه للعبادة والذكر).

وقد كانت أول خانقاه تُعرَف في العالم الإسلامي، تلك التي أسسها زيد بن صوحان في البصرة بالعراق، وحسبما يقول المقرئزي: إن زيدا قد بناها لرجال من أهل البصرة تفرغوا للعبادة، وجعل لهم مَنْ يقوم بمصالحهم من مطعم ومشرب وملبس، وكان ذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان. لكن نظام الخانقاوات لم ينتشر في العالم الإسلامي سوى في القرن السادس الهجري العاشر الميلادي في إيران وسوريا والعراق ثم مصر.

\*\*\*

أسس صلاح الدين الأيوبي أول خانقاه عرفتها مصر، وهي الخانقاه الصلاحية التي توجد حاليًا في شارع الجمالية. كانت دارًا لسعيد السعداء، وقال المقرئزي عنه: «إنه الأستاذ قنبر ويُقال عنبر، وذكر ابن ميسر أن اسمه بيان، ولقبه سعيد السعداء أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر عتيق الخليفة المستنصر قُتِل في سابع شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة، ورُمي برأسه من القصر ثم صُلبت جثته بباب زويلة.. وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة، فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك، سكنها وفتح من دار الوزارة إليها سردابًا تحت الأرض ليمر فيه، ثم سكنها الوزير شاور ثم ابنه الكامل.»

وكما يستطرد المقرئزي فإن الناصر صلاح الدين أخذ هذه الدار وجعلها بيتًا للفقراء المتصوفة القادمين من مختلف البلدان.

وقد أوقف صلاح الدين على الخانقاه العديد من الأوقاف هي -كما أخبرنا المقرئزي- بستان الحبانية بجوار بركة الفيل، وقيسارية الشراب بالقاهرة، وناحية دهمر، ومن البهنساوية. وشرط أن مَن مات من الصوفية وترك عشرين دينارًا فما دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني، ورتب للصوفية في كل يوم طعامًا ولحمًا وبنى لهم حمامًا بجوارهم، فكانت أول خانقاه عُرفت بمصر، وعُرفت بدويرة الصوفية وولى عليها شيخًا نعته بشيخ الشيوخ. وصار هذا اللقب لصيقًا بكل مَن يتولى رئاسة الخانقاه الصلاحية، وما زال يُنعت بذلك إلى أن بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سيرياقوس، فدعا شيخها شيخ الشيوخ؛ فاستمر ذلك إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمئة، وضاعت الأحوال وتلاشت الرتب، ولقب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ.

\*\*\*

كانت الخانقاوات في بداية نشأتها بيوتًا للعلم يُدرّس بها الفقه والتفسير والقراءات، وكان لمتصوفة الخانقاوات تقليد مهم في الخروج يوم الجمعة لأداء الصلاة في المساجد الجامعة، وكان الأهالي يتجمعون لرؤية شيوخ الخانقاه وهم يتوجهون إلى المسجد؛ لما تمتعوا به من هيئة فاضلة.

فصوفية خانقاه بيبرس جاشنكير كانوا يؤدون صلاة الجمعة في جامع الحاكم بأمر الله؛ لقربه منهم لذلك فقد أودع بيبرس بالجامع الحاكمي مصحفًا شريفًا مكتوبًا بماء الذهب من سبعة أجزاء؛ ليقرا فيه الصوفية قبل صلاة الجمعة.

والخانقاه كان لا يوجد فرق بينها وبين المدرسة، فيروي ابن حجر عن جامع السلطان المؤيد شيخ الذي فرغ من إنشائه (٨٢٢ هـ - ١٤١٩ م)، أنه كان يضم حلقات علمية لفقهاء المذاهب الأربعة والحديث النبوي والتفسير، وكذلك كانت الحياة العلمية في مسجد السلطان برسباي.

وكما ورد في مواعد المقريزي فإن الأمير سيف الدين شيخو العمري رتب في الخانقاة التي أنشأها (٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م) دروسًا عدة، منها: أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرس للحديث النبوي، ودرس لقراء القرآن بالروايات السبع، وجعل لكل مدرسة مدرسًا وعنده جماعة من الطلبة، وعلى حد وصف المقريزي فإن خانقاه شيخو: «ذاع صيتها في شتى الأقطار، وتخرج بها كثير من أهل العلم، وأربت في العمارة على كل وقف بديار مصر».

وكان لهجمة التتار على الشرق أثرها في هجرة الكثير من الصوفية من إيران والعراق، فانتشرت في مصر الخانقاوات. وفي القرنين الثامن والتاسع الهجري ذكر لنا المقريزي تاريخ وترجمة واحدة وعشرين خانقاه.

\*\*\*

انتشر بناء الخانقاوات في العصر المملوكي بشكل كبير، ولعل أصدق وصف لأحوالها آنذاك، هو الذي قدّمه ابن بطوطة في رحلته لمصر خلال القرن الرابع عشر الميلادي في أوج مجد دولة المماليك؛ حيث يقول: «وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدها (خانقاه)، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريق التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس. وترتيب أمورهم عجيب، ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحًا، فيُعَيِّن لكل واحد ما يشتهي من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة، وطعامهم مرتان في اليوم، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف، ومرتب شهري من ثلاثين درهمًا للواحد إلى عشرين، ولهم الحلاوة من السكر كل ليلة جمعة، والصابون لغسل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمام، والزيت للاستصباح وهم أعزب، وللمتزوجين زوايا على حدة. ومن المشترك عليهم: حفظ الصلوات الخمس، والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقبة داخل الزاوية. ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به، وإذا صلوا الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عمّ، ثم يُؤْتَى بنسخ القرآن العظيم مجزأة، فيقرأ كل فقير جزءًا، ويختمون القرآن ويذكرون، ثم

يقرأ القراء على عادة أهل المشرق، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر، ومن عوائدهم أنه يأتي باب الزاوية فيقف مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة وبيمينه العكاز ويسراه الإبريق، فيعلم خديم الزاوية بمكانه، فيخرج له ويسأله: من أي البلاد أتى؟ وبأي زاوية نزل في طريقه؟ ومن شيخه؟ فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية، وفرش له سجادته في موضع يليق به، وأراه موضع الطهارة، فيجدد الوضوء ويأتي إلى سجادته فيحبل وسطه ويصلي ركعتين، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم، ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جمع سجاجيدهم، فيذهب بها إلى المسجد، ويفرشها لهم هناك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم، فيأتون للمسجد ويصلي كل واحد على سجادته، فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عاداتهم، ثم ينصرفون إلى الزاوية ومعهم شيخهم».

\*\*\*

أصبحت الخانقاوات خلال العصر المملوكي من أهم أوقاف الخير التي يُقبل على تشييدها السلاطين والأمراء، حتى النساء أقبلن على تشييد تلك المباني، ومنهن خوند طغاي إحدى جوارى السلطان الناصر محمد بن قلاوون التي أعتقها وتزوجها، وأنجبت له ابنه المحبب إلى قلبه الأمير أنوك. ولأن خوند كانت المحببة للسلطان يروي المقرئزي أن عددًا من الأمراء كانوا يمشون بين يدي محفتها ويُقبّلون الأرض لها كما يفعلون مع السلطان. وقد أنشأت خانقاه تحمل اسمها عام ٧٤٩ هـ، ودُفنت بها، وتُعرّف الخانقاه بضريح أم أنوك، وتقع في شارع السلطان أحمد بقرافة المماليك الشرقية بحي منشأة ناصر بمدينة القاهرة، وقد اندثر معظم هذه الخانقاه حاليًا، ويروي الجبرتي أن الفرنسيين في أثناء حملتهم على مصر قاموا بهدم مئذنة تلك الخانقاه.

وهناك الخانقاه البيبرسية التي بناها السلطان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير ٧٠٩ هـ، وهو أول من ملك مصر من الجراكسة، وكان جاشنكير (متذوق للطعام) السلطان قلاوون، وخدم ابنيه، وتولى السلطنة لفترة قصيرة، حتى قتله الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ حيث أمر بخنقه، ودُفن خلف القلعة، ولم يُدفن في الضريح الذي أعده بخانقاه.

وما زالت الخانقاه موجودة في شارع الجمالية. وصفها المقرئزي بأجمل خانقاوات القاهرة، كان الشباك الكبير بها من دار الخلافة ببغداد الذي حملة الأمير إلى مصر بعد استيلاء المغول على بغداد، ويقول المقرئزي: «كانت تضم مطبخًا يوزع كل يوم اللحم والخبز والحلوى على الصوفية والفقراء المقيمين بها، وكان القرآن يُتلى فيها دون انقطاع، وكان الحديث النبوي يُدرّس تحت قبتها، وقد أغلقها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وأزال اسم بيبرس من طرازها بعد القبض على الأخير وقتله، ثم أُعيد افتتاحها بعد عشرين سنة».

ومما يلفت النظر في تلك الخانقاه وجود عتبة على مدخلها تحمل نقوشًا فرعونية وعليها مناظر للملك رمسيس التاسع راکعًا ومقدمًا لأواني الخمر. كما كان يوجد بالخانقاه جزء من مائدة قرايين من البازلت تحمل نقوشًا هيروغليفية وتعود إلى عهد الدولة المتأخرة، وقد نُقلت حديثًا إلى المتحف المصري. وشاءت الأقدار ألا يُدفن بالخانقاه من أمر بتشييدها، في حين دُفن بها محمد أمين البغدادي شيخ الطريقة الصوفية النقشبندية الذي وُلد بالعراق وختم حياته في خانقاه بيبرس.

كما شيد الأمير شيخون، وهو أحد أمراء الملك المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون، خانقاه بالصليبة (٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م). وكما يقول المقرئزي: «فإن الأمير رتب بها دروسًا عدة، منها دروس لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرس للحديث النبوي، ودرس لإقراء القرآن بالروايات السبع، وجعل لكل درس مدرسًا، وعنده جماعة من الطلبة، وشرط عليهم حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف، ورتب لكل من الطلبة في اليوم الطعام واللحم والخبز. وفي الشهر الحلوى والزيت والصابون، ووقف عليها الأوقاف الجليلة؛ فعظم قدرها واشتهر في الأقطار وتخرج فيها كثير من أهل العلم، وأربت عمارتها على كل وقف بديار مصر إلى أن مات شيخها الشيخ أكمل الدين ٧٨٦ هـ، فوليها من بعده جماعة، ولما حدث المحن كان بها مبلغ كبير من المال الذي فاض من مصروفها، فأخذها الملك الناصر فرج وأخذت أحوالها تتناقص».

وهناك خانقاه (سرياقوس)، وهي قرية من مديرية القليوبية، ويروي علي مبارك نقلًا عن خطط المقريري أن هذه الخانقاه أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون ليفي بنذر؛ ذلك أنه كان قد مر بموضع الخانقاه في أثناء خروجه للصيد، فأصيب بألم عظيم في جوفه، فنذر لله إن عافاه الله ليبين في هذا الموضع مكانًا للعبادة. وعندما عُوفي بعد أيام ركب بنفسه ومعه عدة من المهندسين، واختط على قدر ميل من ناحية سيرياقوس هذه الخانقاه، وجعل فيها مئة خلوة لمئة صوفي، وبنى بجانبها مسجدًا تُقام فيه الجمعة، وبنى بها حمامًا ومطبخًا وذلك ٧٢٣ هـ. وفي سنة ٧٢٥ هـ تم بناؤها وخرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق، ومُدَّت هناك أسمطة (موائد) عظيمة داخل الخانقاه، وقرر في مشيختها الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصري، ولقَّبه بشيخ الشيوخ، فصار يقال لكل من ولي بعده، وكان اللقب مقصورًا قبله على شيخ خانقاه سعيد السعداء. وكان يُصَرَف لكل صوفي في اليوم من لحم الضأن السليج رطل قد طُبِّخ في طعم شهوي، ومن الخبز النقي أربعة أرطال، ويُصَرَف له في كل شهر أربعين درهماً فضة، ويُصَرَف له ثمن كسوة في كل سنة، وتوسعة في شهر رمضان، وفي العيدين، ومواسم رجب وشعبان وعاشوراء، وكلما قدمت فاكهة صُرف له مبلغ لشرائها، وبالخانقاه خزانة بها السكر والأشربة والأدوية وبها الطبائعي والجراحي والكحال ومصلح الشعر، وفي كل رمضان يُوزَع على الصوفية كيزان لشرب الماء، وتُبَيِّض لهم قدورهم من النحاس. ويقول المقريري: «وأدركت من صوفيتها شخصًا يُعرَف بأبي طاهر، ينام أربعين يومًا بلياليها لا يستيقظ فيها البتة، ثم يستيقظ أربعين يومًا لا ينام ليلها ولا نهارها، وخبره مشهور عند أهل الخانقاه، وأخبرني أنه لم يكن في النوم إلا كغيره من الناس، ثم كثر نومه حتى بلغ ما تقدم ذكره».

\*\*\*

وكما تقول د. سعاد ماهر إنه في العصر العثماني ظهرت التكية لتحل محل الخانقاه، كانت مثلها من حيث الهدف والغاية، وفي كل منهما حوش لدفن الدراويش عند موتهم، وفناء متسع مكشوف تحيط به مجموعة من الخلاوي لإيواء المتصوفة. كما يحتوي كل منهما على أكثر من طابق، وفي كل طابق مجموعة من الخلاوي. ولعل الفارق بين الخانقاه

والتكية هو أن الأولى تحتوي على إيوانات متعامدة تشبه المدرسة، وفي بعض الأحيان تقتصر الخانقاه على إيوانين فقط. أما التكية فنجدها في معظم الأحيان تقتصر على إيوان واحد للصلاة. ومن حيث الوظيفة كانت الدراسة في الخانقاوات إجبارية، ويتولى مشيختها كبار العلماء والفقهاء، كما تمنح الدارسين بها إجازات علمية. أما التكية فلا التزام على المقيمين بها، ومن ثم فلا تقوم فيها فصول للدراسة المنتظمة، وإن كانت تُقام بها حلقات للذكر ومحاضرات للوعظ والإرشاد.

ومنها التكية السليمانية (٩٥٠ هـ - ١٥٤٣ م) التي تقع في شارع السروجية التي شيدها داود باشا الخادم الذي تولى ولاية مصر (٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م)، وظل واليًا عليها لمدة إحدى عشرة سنة متصلة وثوَّفِي بها.

وتكية السلطان محمود خان (١١٦٤ هـ - ١٧٥٠ م)، والتكية البكتاشية (٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م).

\*\*\*

كانت هذه حال الخانقاوات في أوج مجدها؛ بيوتًا للعلم تخرج فيها كبار المشايخ والأئمة.. لكن الحال لم يدم طويلًا، وكان للخانقاوات نصيب من حالة التدهور السياسي التي مرت بها البلاد في العصرين المملوكي والعثماني.

# الفصل الحادي عشر

## وبدأ عصر الدراويش تناهية السلطان

عندما تتجبر السلطة يصبح تغييب الوعي ضرورة لا محالة، والخرافة أفضل وسيلة لضمان الاستقرار، أو بالأحرى الاضمحلال الاجتماعي الذي يجعل الحرافيش كالبركة الراكدة لا يتحرك فيها ماء قط.

كان المجتمع المصري في عصر المماليك بعيدًا تمامًا عما يدور داخل أسوار القلعة، لا ناقة له ولا جمل في الصراعات الدائرة بين الأمراء، ولا يناله منها سوى فرض المكوث المتلاحقة، وغيرها من كافة أشكال الظلم الاجتماعي.. لقد كان العامة بين مطرقة سطوة المماليك وسندان المجاعات والأوبئة، ولم يجد العامة راحتهم إلا في الهروب من معاناتهم إلى عالم الخرافة الذي مثلته بقوة دولة الدراويش التي نشأت في أحضان الخانقاوات ومن بعدها التكايا.. لقد استخدمها الأيوبيون لنشر المذهب السني وهزيمة نظيره الشيعي، ثم أرادها المماليك ومن بعدهم العثمانيون وسيلة لتوطيد نفوذ السلطان، فالحاكم وجد في أولئك الدراويش وسيلة لمنع أي تمرد محتمل، والعامة وجدوا في الدراويش وسيطًا قويًا لدى الحكام لوقف بعض ألوان الجور والظلم.. هكذا كان الاتفاق غير المكتوب وغير المعلن، والنتيجة أن تحول التصوف إلى دروشة.

\*\*\*

كما يقول د. قاسم عبده قاسم؛ كان مقتل السهروردي بفتوى من مشايخ حلب، وبأمر من صلاح الدين ٥٨٧ هـ بداية اتجاه يناصر الدروشة على حساب العقل، وتوارى المتصوفة

الفلاسفة ليظهر المتصوفة الدراويش، وهو ما استغله السلاطين الذين قربوا المشعوذين والدراويش والمجاذيب، ومنهم الظاهر بيبرس، والمنصور سيف الدين قلاوون.

ويسرد لنا زكي مبارك في مؤلفه (التصوف) كيف عرف المجتمع المصري التصوف قبل أن يعرف حكم المماليك، ولكنه ظل تصوفًا هادئًا قليل الأثر، ولم يشتد تياره في الحياتين الاجتماعية والدينية إلا في عصر المماليك. وانقسم الصوفية إلى فرق عديدة لكل فرقة شيخها وشعارها، بل وكانت لهم قرافات خاصة؛ كما ورد لدى السخاوي.

وعند موت شيخ الطائفة يخلفه خليفة في رئاسة طائفته، وقد جرت العادة في عصر سلاطين المماليك أن تصدر تولية هذا الخليفة من السلطان. وكما يقول ابن إياس: «فيخلع عليه وينزل من القلعة في حفل كبير يحيط به سائر فقراء طائفته».

وكان ارتباط الشيخ بمريديه وثيقًا، حتى إن بعض شيوخ الصوفية في عصر سلاطين المماليك اشترطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم أن المرید لا يكون له تصرف في ماله ولا زوجته ولا نفسه.

وقد وصف الشيخ أحمد أبو العباس المرسي (الأستاذ كالطبيب، وحال المرید كالعورة، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوي). وكان عنوان إخلاص المرید لشيخه المداومة على حضور مجلسه، فإذا انقطع عنه صار ذلك كما وصفه الشعراني: «مثل الطلاق الرجعي؛ فللشيخ أن يقبله إذا رجع؛ لأن حرمة الشيخ في نفس المرید لا تزال باقية».

\*\*\*

كانت الخانقاوات التي بدأ صلاح الدين الأيوبي تأسيسها في مصر، وحذا حذوه حكام الدولتين الأيوبية والمملوكية، لتكون مقرًا للعلم والتصوف، هي ذاتها السبب في هدم دولة التصوف العلمي الحقيقي.. فكل أسباب الرفاهية التي توافرت لطلاب العلم في (الخانقاه)

كانت نفسها أسباب الفساد، فقد التحق بالخانقاه مدعون لم يكن أحدهم يبحث عن العلم، ولكن عن تلك الحياة السهلة اليسيرة «بلا شغلة ولا مشغلة».

فكما يشير المقرئزي (متحدثًا عن خانقاه سعيد السعداء):

«كل صوفي كان يُصَرَف له في اليوم رطل من لحم الضأن المطبوخ، وأربعة أرطال من الخبز النقي، علاوة على أربعين درهماً، ورطل من الحلوى، ورطلان من زيت الزيتون، ومثلهما من الصابون».

كان بديهيًا أن تجذب تلك الحياة مَنْ قال عنهم المقرئزي: «لا يُنَسَّبون إلى علم ولا ديانة، وإلى الله المشتكى»، فتحوّلت الخانقاوات التي انتشرت بكثرة في عصر المماليك البحرية والبرجية إلى أوكار لتناولة السلطان. ويضيف لنا المقرئزي عن هؤلاء: «ادعوا الزهد والتصوف، بينما امتنعوا عن أداء الصلاة؛ مدعين أنهم يؤدونها في الأماكن المقدسة، ومن هؤلاء: عبد القادر الدشطوطي، وإبراهيم المقبول، وكان لهؤلاء نفوذ على الأتباع والمريدين، حتى إن الشيخ علي وحيش المُتوفَّى ٩١٧ هـ كان كلما رأى رجلًا يركب حماره أنزله من فوقه، وقال له: أمسك رأسها؛ حتى أفعل فيها الفاحشة، فيتسمر الرجل في مكانه من كثرة اعتقاده في ولاية الشيخ، بل لقد اشترط بعض شيوخ الصوفية في عصر المماليك في العهد الذي يأخذونه ألا يبقى للمريد تصرّف في ماله أو نفسه؛ فنشأ عن هذا طائفة المجاذيب الذين قاموا بأعمال شاذة، مثل: حلق الرأس واللحية والحاجب ورموش العين؛ فأصبحت هيئتهم مرعبة».

وذكر ابن الحاج أن الصوفية تغيرت أحوالهم أو آخر عصر المماليك، فتغير وضعهم من الصلاح إلى الفساد، وتخلوا عن النظم والآداب التي عُرفوا بها بين الناس، فصارت أذكارهم بشكل مسموع، ويشترك فيها جماعة، ومن ثم سُمّيت (السماعات)، ولم تلبث أن أصبحت الشبابة والمزمار والدف والرقص والتصفيق من مظاهر تلك السماعات الأساسية، فإذا دب معه (المتصوف) الطرب قليلاً، حرك رأسه كما يفعل أهل الخمر سواء بسواء، ثم إذا تمكن منه الطرب ذهب حياؤه ووقاره، فيقوم ويرقص ويعيط وينادي ويبكي ويدخل ويخرج

ويبسط يده ويرفع رأسه نحو السماء كأنما جاءه المدد منها، ويخرج الرغوة؛ أي الزبد من فيه، وربما مزق بعض ثيابه وعبث بلحيته.

\*\*\*

وبدأ التطرف يدخل على حياة المتصوفة شيئًا فشيئًا؛ فظهرت طائفة الدراويش الذين حلقوا رءوسهم ولحاهم وشعر حواجبهم؛ فبدوا في صورة مخيفة، وهي الصورة ذاتها التي نقلها الرحالة (تافور)، وقال عن أولئك الدراويش: «فبدوا في صورة مزعجة تشبه المجانين، ويزعمون أن ذلك ضرب من التقوى والعبادة».

يقول د. سعيد عبد الفتاح عاشور في مؤلفه (المجتمع المصري في عهد سلاطين المماليك): «ويبدو أن هذه الطائفة من الصوفية هي التي تُسمى القلندرية أو القرندرية الذين شاهد ابن بطوطة زاوية لهم في دمياط، وقال عنهم: وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم. كذلك كانت لهم زاوية بالقاهرة خارج باب النصر ذكرها المقرئ في خطه، وقال إن الذي أنشأها هو الشيخ حسن القلندري الجوالقي أحد فقراء العجم القلندرية».

وقد وصف المقرئ هذه الطائفة وصفًا مسهبًا، فقال: «إنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة، واقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، والتزموا ألا يدخروا شيئًا، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا، ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا».

وقد أشار ابن خلدون إلى دراويش الصوفية بقوله: «ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء، وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين». وتحدث ابن خلدون عن سكان الخوانق: «من سكان الزوايا المنتحلين للعبادة، يشترون بها الجاه ليجيروا به على الله».

ويذكر السخاوي أن من هؤلاء مَنْ اعتاد أن يركب على قطعة خشب أو جريدة بعد أن يصور لها وجهًا وعينين وأنفًا وفمًا، ويمسك بيده شيئًا كأنه سوط ويربط الجريدة بسير أو خيط كأنه لجام، ويجري على هذه الصورة المضحكة وسط شوارع القاهرة وهو يضرب (دابته)، ومنهم -كما ذكر الذهبي في (تاريخ الإسلام)- مَنْ عاشر الحرافشة، وزعم أن ذلك من الدين. ومنهم -كما روى ابن الحاج- مَنْ حمل في عنقه طوقًا من الحديد ووضع في أذنه حلقة.

ولخص السخاوي الوضع في تلك الأبيات:

صوفية أحدثوا في ديننا لعبًا

وخالفوا الحق دين المصطفى العربِ

مَنْ اقتدى بهم قد ضل مثلهم

سحقًا لمذهبهم ولو كان من ذهبِ

أهل المراقص لا تأخذ بمذهبهم

فقد تماردوا على التمويه والكذبِ

ويذكر السخاوي أن الناس تزاحموا أمام أبواب ذوي العاهات؛ طلبًا للشفاء، فإذا دخل أحد أولئك الأولياء المزعومين الحمام وحلق رأسه تقاتل الناس على شعره يتبركون به ويجعلونه ذخيرة عندهم.

وإلى جانب الأمراض الاجتماعية التي انتشرت في عصر المماليك من الزنا وتعاطي الحشيش والشذوذ الجنسي، نجد (ابن حجر) يتهم الكتاب والفقراء (الصوفية) والقضاة، بحب الغلمان ومعاشرة الأحداث.

\*\*\*

كان أسوأ ما تمخضت عنه تلك الفترة من الاضمحلال خلال العصر المملوكي، انتشار ظاهرة التمشيخ بين النساء؛ حيث أصبحت العاهرة شيخة صوفية تدير بيتًا تنشر من خلاله الزنا بين مريديها من النساء.. وهي ظاهرة سجلها الفقيه الصوفي المغربي (ابن الحاج) في كتابه (المدخل) لدى زيارته القاهرة، وقال: «إن العجيب أنهم لا يمضين إلى موضع لعمل المنكر فيه إلا بعد دفع الرسوم المقررة لضامنة المغاني»، وضامنة المغاني هي التي تفتح بيتًا للبعاء والزنا بأجر وتدفع منها ضرائب للدولة المملوكية.

فالشيخات لم يكنن سوى مومسات في العصر المملوكي. يقول ابن الحاج: «وبعض الشيخات تلبس الصوف لمن تابت على يدها ودخلت طريقها»، أي أن العاهرة الشيخة تجتذب النساء للعمل تحت مصطلحات التصوف.

وكان بعض شيوخ الصوفية يزنون بالمريدات؛ بحجة أخذ العهد الصوفي عليهن وإدخالهن الطريقة الصوفية، يقول الشعراني: «إياك أن تمكن جاريتك أن يأخذ أحد من فقراء الأحمدية أو البرهامية عليها العهد؛ فإن كثيرًا من الفقراء يعتقدون أنه صار والدها يجوز له النظر إليها». ثم يقول: «وقد حصل ذلك لبعض إخواننا، ورأى صاحبه يفعل الفحشاء في زوجته».

ويذكر البعض أن الشيخ شمس الدين الحنفي، الذي كتب مريده مناقبه في كتابه (السر الصفي) كانت له علاقات نسائية متعددة مع مريداته.

ويتحدث ابن الجوزي عن ابن خفيف البغدادي شيخ الصوفية في شيراز، وكيف أن أحد أصحابه مات، فذهب ابن خفيف إلى داره يعزي زوجته وكان عندها عدد من النساء، فأخذ يحدثها عن ضرورة التغلب على الهموم، وانتهى الأمر إلى مخالطة من معه من الرجال لمن معها من النساء طوال الليل، ويروي أن هذا الأمر شاع؛ فقبض المعتضد على جماعة منهم وضربهم بالسياط وشردهم جمعهم.

\*\*\*

يقول الشعراني، وهو الذي حضر نهايات دولة المماليك وبداية الحكم العثماني: «كان التصوف حالاً فصار كاراً، وكان استناراً فصار اشتهاً، وكان اتباعاً للسلف فصار اتباعاً للعلف، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور، وكان تعففاً فصار تملقاً، وكان تجريداً فصار ثريداً».

وعلى الرغم من أن طبقات الشعراني احتوت من الروايات حول الكرامات التي ارتقى بعضها إلى مستوى الخرافة، ما ينال من ثوب التصوف، فإننا نجده ينتقد الكثير من مظاهر الدروشة في عصره، فيحدثنا عن الشيخ شعبان المجذوب الذي كان يجلس على كرسي المساجد أيام الجمع وغيرها، ويقراً ما يزعم أنه قرآن كريم، وقد سمعه الشعراني يقول على طريقة قراءة القرآن: «وما أنتم في تصديق هود بصادقين، ولقد أرسل الله لنا بالموثفات يضرّبوننا ويأخذون أموالنا ومالنا من ناصرين». ثم يعقب على هذا قائلاً: «اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان». ويعلق الشعراني قائلاً: «ولم أسمع أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم. وكان زميله إبراهيم العريان يصعد المنبر عارياً ويخطب في الناس قائلاً: السلطان ودمياط وباب اللوق وبين السوريين وجامع طولون، والحمد لله رب العالمين».

ويحكي الشعراني عن جهالة مشايخ الأحمديّة والبرهامية في عصره، فيقول إنه سأل واحداً منهم عن قواعد الإيمان، فقال: لا أدري. فسأله عن فرائض الوضوء، فقال: لا أدري. فسأله عن شروط الصلاة، فقال: لا أدري. ويقول الشعراني معلقاً على ذلك: مع أنه شيخ كبير يأخذ العهد ويتصدر الوعظ.

\*\*\*

ويسجل لنا الجبرتي فيما وثقه عن الوجود الفرنسي بمصر في مؤلفه (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين): «أرسل كبير الفرنسيين يسأل المشايخ عن الذين يدورون

بالأسواق ويكشفون عوراتهم ويصيحون ويصرخون ويدعون الولاية، وتعتقدهم العامة ولا يصلون صلاة المسلمين ولا يصومون- أهذا جائز في الإسلام أم حرام في الشريعة؟ فأجابوه بأن ذلك حرام ومخالف لديننا وشرعنا وسنتنا؛ فشكرهم على ذلك، وأمر الحكام بمنعهم والقبض على مَنْ يروه بهذا الوصف، فإن كان مجنوناً رُبط في المارستان، أو غير مجنون فإما يرجع عن حالته أو يخرج من البلد».

ويروي الجبرتي ما حدث من فساد في مولد عبد الوهاب المرزوقي: «يختلط به الرجال والنساء، وينصبون فيه خياماً كثيرة وصواوين ومطابخ وقهاو، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والملاعب والغوازي والباغايا والقوادين والحواة، فيطئون القبور ويتغوطون ويزنون».

كما يسرد لنا الجبرتي من أحداث عام ١٧٨٦ م، عن مجذوب يُدعى الشيخ البكري كان يمشي عرياناً وعورته مكشوفة تلمسها بعض النساء للتبرك وأملاً في الإنجاب. وتعلقت به إحدى النساء وصارت تتبعه أينما ذهب، حتى اعتقدت فيها النساء، وتمادت المرأة فصارت تكشف جسدها. واقتدى بها هي والمجذوب عدد من الناس، فصاروا يسيرون وهم يخلعون ملابسهم ويخطفون الأشياء من الأسواق. وكانت المرأة تتحدث بفاحش القول بالعربي حيناً وبالتركية حيناً. ولما استفحل أمر المرأة؛ أُرسِلت إلى البيمارستان، ثم خرجت وأصبحت شيخة يعتقد فيها الناس والنساء خصوصاً.

أما كلوت بك فيرى أن الناس عللوا أفعال المجاذيب بأن روحانيتهم اللطيفة عرجت إلى السماء ولم يبقَ من كيانهم على الأرض سوى الجزء الكثيف منها.

# الفصل الثاني عشر

## حشيشة الفقراء

في وثيقة بسجلات المحاكم الشرعية مؤرخة بـ(٥ جمادى الأولى ١١٦٧ هـ - ١٧٥٤ م)، نقرأ:

«أشهد على نفسه الحاج حماد المتسبب في الحشيش بخط الرميلة ابن المرحوم الحاج علي الفراعي، أنه وقف جميع المكان الذي أنشأه بخط الرميلة على مقام السيدة نفيسة بنت حسن الأنور».

قد تبدو تلك الوثيقة عجيبة فكيف لبائع حشيش أن يوقف إنتاج الحشيش على مقام سيدة صاحبة كرامات. لكن ماذا لو علمنا أن الحشيش كان جزءًا من ممارسات الدراويش خلال فترة زمنية طويلة!

\*\*\*

نظرات تائهة ونشوة تتمك الجسد الذي يتمايل يمينًا ويسارًا، وسحابات من الدخان تعمي الأبصار وتزكم الأنوف، الرءوس ليس فيها اتزان والقلوب ليس فيها وجل. الأجساد خاملة والعقول غائبة. حالة لم يخلقها الذكر، وإنما مفعول الحشيش الذي لا تنعقد جلسات الدروشة دونه.

مثل كل الأمراض الاجتماعية التي تفتت في العصر المملوكي تفتى شرب الحشيش وانتشر، حتى قال المقرئ: «وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولو عًا كثيرًا، وتظاهروا بها من غير احتشام، وشغف بها الصوفية حتى نُسب إليهم؛ فعُرفت باسم (حشيشة الفقراء)».

وقال المقرئزي إن الظاهر بيبرس أمر بوقف ضمان (ضريبة) الحشيش وتأديب من يأكلها. ويقول الذهبي إن بعض المفسدين اعتبروا الحشيشة (لقيمة الذكر والفكر).

ونظم أحد صوفية خانقاه سعيد السعداء شعراً في تفضيل الحشيش على الخمر:

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلها

لها وثبات في الحشا وثبات

تؤجج ناراً في الحشا وهي جنة

وثبدي مرير العيش وهي نبات

\*\*\*

ذكر المقرئزي في حوادث ٦٥٥ هـ أن طائفة الصوفية الحيدرية قدموا إلى دمشق وعلى رؤوسهم طرايطير ولحاهم مقصوصة وشواربهم بغير قص، وقال إنهم كانوا يشربون الخمر ويدخنون الحشيش.

ويقال إن الشيخ حيدر الذي نُسبت له الصوفية الحيدرية هو الذي اكتشف الحشيش، فيذكر بدر الدين الزكرشي في كتابه (زهر العريش في أحكام الحشيش) أن: «أول ظهور لنبته الحشيش جاء على يد حيدر ٥٥٠ هـ تقريباً، وذلك أنه خرج هائماً ينفر من أصحابه فمر على هذه الحشيشة، فرأى أعضاءها تتحرك من غير هواء، فقال في نفسه هذا السر فيها؛ فاقتطف وأكل منها، فلما رجع إليهم أعلمهم أنه رأى فيها سرّاً، وأمرهم بأكلها، وقيل ظهرت على يد أحمد المارجي القلندري، ولهذا سُميت القلندرية».

وفي كتابه (السوائح الأدبية في مدائح القنبية) ذكر الحسن بن محمد العكبري، القصة نفسها عن اكتشاف المتصوف الشيخ حيدر الحشيش.

وفي خطط المقرئزي أن الشيخ حيدر لم يقطع أكل الحشيش في يوم، وكان يقول لمريديه:  
«إن الله خصكم بسر هذا الحشيش؛ ليذهب بأكله همومكم الكثيفة، ويجلو بفعله أفكاركم  
الشريفة، فراقبوه فيما أودعكم، وارعوه فيما استرعاكم».

وعن نسبة الحشيشة لحيدر، يقول الأديب شهاب الدين أحمد بن محمد الحلبي المعروف  
ب(ابن الرسام):

واشكرُ عصابةَ حيدر إذ أظهروا

لذوي الخلاعةِ مذهبَ المُتحمِّسِ

وذلك أن ابن الرسام نظم شعرًا في شاب كان يهواه وكان الشاب ينفر منه ويعرض عنه،  
فلما أكل الحشيشة ذات يوم، تغير حاله، فكتب ابن الرسام:

ومهفهف بادي النفار عهده

لا ألتقيه غير معبـس

فرأيته بعض الليالي ضاحكًا

سهل العريكة ريضًا في المجلس

فقضيت منه مآربي وشكرته

إذ صار بعد التنافر مؤنسي

فأجابني لا تشكرن خلائقي

واشكر شفيحك فهو خمر المفلس

فحشيشة الأرواح تشفع عندنا

للعاشقين ببسطها للأنفيس

لكن تقي الدين أبو التقي البدري الدمشقي في كتابه (راحة الأرواح في الحشيش والراح) (٨٩٤ هـ - ١٤٨٨ م)، نفى أن يكون الشيخ حيدر أو الشيخ قلندر قد أكلا الحشيشة يوماً، مستشهداً بما ذكره الشيرازي عنهما في (رياض العارفين) بأنهما لم يأكلا الحشيشية، ولكن أهل خراسان نسبوا للشيخ حيدر؛ لاشتهار أصحابه بها بعد وفاته، وقال الدمشقي إن أول مَنْ تناولها رجل بالهند كان يعبد الأصنام، وكان يُدعى بربطن من أهل مدينة بنكالة.. فوسوس له الشيطان أن يترك ورق الحشيش في أجران حجارة ويطبخها بخشبات صلبة ثم يخمرها ببوله. وأشاع أكلها في الهند، ومنها إلى بلاد السند والصين، ثم اليمن والحبشة، فجاء رجل إلى خراسان أسود كأنه شفة شيطان فتزياً بزي الفقراء (الصوفية)، ودخل على أصحاب الشيخ حيدر فخالطهم وعرفهم بها.

\*\*\*

أياً كان صاحب براءة اكتشاف الحشيش، فقد انتشر ووصل إلى مصر. ويذكر الدمشقي ما قاله البندقي في صحيحه المسمى (صحيح الحفاظ): «ولما أن نقلوها إلى ديار مصر، صارت عزيزة بأنواع الكرم والقبول، ووزعوها بسرّاة ودراوة، فسرى لخدمتها كل مقيم، وصار بحبها مشغولاً، لا سيما وقد واقعها النيل، فحملت منه بالخيال والذهول». ويعلق الدمشقي على ذلك قائلاً: «ولم يُعلم الآن بلد من البلاد يُستعمل فيه كل يوم بعشرة آلاف نقرة حشيش، إلا مدينة مصر، وما ذاك إلا لكثرة أهلها، ولقد أخبرني بذلك أهل سرّاة ودراوة، وأنا راحل إلى دمياط، وإن غالب ما تزرع الحشيش، ووجدت بها شخصاً من ذوي الهيئات يباشر عندهم محبة في استعمالها، وفي بلدة أخرى تُسمّى بنها العسل، ثم زرعوها أهل مصر في بستان يُعرف بـ(الكافوري) من أرض القاهرة قبل اختطاطها وعمارتها، نقله الشيخ تقي الدين المقرئ في خطه».

وفي حديثه عن خراب بستان كافور الإخشيدي، يقول ابن عبد الظاهر: «ولعمري إن خرابه كان بحق، فإنه كان عُرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء، والتي تطلع به يُضرب به المثل الحسن».

وكان ابن الجوزي يتحدث عن إدمان الصوفية في عصره للحشيش؛ باعتباره شيئًا جديدًا غير معروف، يقول: «وقد أبدلوا إزالة العقل بالخمير بشيء سموه الحشيش المعجون».

ولا عجب أن ينتشر الحشيش بين الصوفية، وبعض المشايخ أفتوا بأكله، فوجد الشيخ علم الدين بن الصاحب يقول في قصيدة:

في خمار الحشيش معنى مرامي

يا أهيل العقول والأفهام

حرّموها من غير عقل ونقل

وحرامّ تحريمٌ غير الحرام

فيفتي في تلك الأبيات أن الحشيش حلال وحرام تحريمه.

\*\*\*

وفي طبقات الشعراني الكثير من الأمثلة على المشايخ وعلاقتهم بالحشيش، ففي ترجمته للشريف المجذوب يقول الشعراني: «كان h يأكل في نهار رمضان، ويقول: أنا معتوق، أعتقني ربي. وكان رضى الله عنه يتظاهر ببيع الحشيش، فوجدوها يومًا حلاوة».

وذكر الشعراني أن الشيخ أبو بكر الدقوسي كان يصنع الحشيش بباب اللوق، وساد الظن أن من يبلع منه الحشيش يتوب بسرعة.. يقول الشعراني: «هكذا أخبرني سيدي نور الدين الطرابلسي عن سيدي عثمان r، وكان له صاحب يصنع الحشيش بباب اللوق، فكان الشيخ

h يرسل إليه أصحاب الحوائج يقضيها لهم، قال سيدي عتمان h، فسألته يوماً عن ذلك، وقلت: المعصية تخالف طريق الولاية. فقال: يا ولدي، ليس هذا من أهل المعاصي، إنما هو جالس يتوب الناس في صورة بيع الحشيش، فكل من اشترى منه لا يعود ليلعها أبداً.

الرواية ذاتها نجدها بشكل آخر، لكن بطلها هذه المرة ابن حجر العسقلاني، فيروي أنه بينما كان داخلاً إلى الجامع الأزهر ليصلي بالناس، رأى الشيخ الفرغل بالباب يبيع الحشيش، فوقع في نفسه نفور من هذا العمل، وقال: «لو كان هذا الرجل ولياً من أولياء الله ما أقامه الله في هذا المقام». فلما دخل ابن حجر الجامع ليؤم الناس لم يتذكر كلمة واحدة من الفاتحة؛ فتعجب الناس من أمر شيخ القضاة، فسألوه عما فعل، فحكى لهم ما حدث مع الشيخ الفرغل، فأخبروه أن يذهب إليه ويستسمحه؛ ليرد عليه الفاتحة؛ فأبي الشيخ إلا أن يقف ابن حجر ويبيع معه الحشيش، ثم قال له الفرغل: «قم الآن فاتبع أي واحد ممن يشترون مني الحشيش؛ لترى ما يحدث». فقام وتبع أحدهم ووجده يتقياً، ويتوب توبة نصوحاً.

\*\*\*

لما رأى محمد علي باشا أن الحشيش يصيب العاملين بالكسل والوهن؛ أصدر أوامره لجميع المديرين بمنع زراعته، ولم يصدر قرار نهائي بمنع الحشيش إلا عام ١٨٧٩ م حين صدر أمر عالٍ بمنع استيراد الحشيش أو زراعته، ووجب على من يخالف أحكامه غرامة مالية ومصادرة المضبوطات.

على العكس من ذلك نشر محمد علي شرب الدخان، وكيف لا وهو تاجر دخان من الأساس، وهو ما وجد هوى في نفس المتصوفة الذين أدمنوا شربه؛ إذ يذكر الجبرتي في أحداث عام ١١٥٦ هـ أن الوالي العثماني أصدر أوامره بمنع تعاطي الدخان في الشوارع والدكاكين وأمام البيوت؛ فآثار ذلك حفيظة الصوفية الذين تمسكوا بحرية شرب الدخان، حتى ألفت الصوفية قصائد في وصف التبغ والمتعة التي يبثها في الإنسان.

# الفصل الثالث عشر

## الولي والسلطان

لأن الناس على دين ملوكهم؛ فقد اتبع العامة سلاطين المماليك في التشبث بتلابيب أولئك الأولياء أو الفقراء إلى الله؛ كما أطلقوا على أنفسهم، أو كما وصفهم العامة بملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء؛ كما قال النويري في (الإمام بالأعلام). ومهازل سلاطين المماليك مع الأولياء كثيرة بشهادة ابن إياس، وأبي المحاسن، والجبرتي، ولم يشذ عن سلاطين المماليك في هذا إلا السلطان جمق الذي حاول التصدي لهم؛ كما ذكر أبو المحاسن في (حوادث الدهور)، ولكن دون جدوى.

لم يكن تقديس السلاطين للأولياء نابغاً في كل الأحوال عن إيمان حقيقي بهؤلاء الدراويش، ولكنه كان ناتجاً عن رغبة في إحكام السيطرة على المشايخ والأولياء بالتقرب إليهم وكسب ودهم، ومن ثم السيطرة على العامة. وهذا ما يؤكد المستشرق الفرنسي جاستون فييت، مدير دار الآثار العربية بالقاهرة، وعضو المجمع اللغوي (١٩٢٤ - ١٩٤٤ م): «أصبحت الفرق الصوفية فرقاً سياسية تحسب لها الحكومة حساباً، ولهذا كان السلطان يُعيّن رؤساءها؛ حتى يحتفظ بشيء من الإشراف عليها، وضاق سائر رجال الدين والشريعة، مثل: أساتذة المدارس، والقضاة، ورجال الإفتاء، بهؤلاء الصوفيين الذين كثيراً ما كانوا من أصل أجنبي».

ويقول جاستون: «إن أكثر ما خُشي من جانب الصوفيين هو أن يتمكنوا من بسط نفوذهم على الطبقات الشعبية الذين يجب المحافظة عليهم بصفة خاصة تحت سيطرة الحكومة، وقد وصلتنا أخبار بعض الحوادث، منها ما حدث سنة ١٤٩٦ م، حين ثار المتصوفة في إحدى الخوانق ضد رئيسهم وهو كاتب معروف؛ فمزقوا أرديتهم، وألقوا بها في حوض ماء

للتوضؤ، وأوشكوا أن يعتدوا على رئيسهم، ولكن المؤرخ الذي أورد هذه الحادثة يقول:  
وأعقب ذلك اضطرابات تحتاج روايتها إلى وقت طويل».

\*\*\*

يأتي السلطان قايتباي في مقدمة السلاطين الذين هاموا بالمشايخ والأولياء، حتى يُقال إنه  
لما أراد السفر إلى بحر الفرات استأذن الشيخ الدشطوطي. وبسبب ولع قايتباي بهذا الشيخ؛  
وقع ضحية خديعة رواها لنا ابن إياس في حوادث عام ٨٩٤ هـ، فقد ذهب شخص يُدعى  
عبد القادر بن الرماح إلى السلطان قايتباي، وأخبره أن الشيخ الدشطوطي يتردد إلى جامع  
بالقرافة تحت جبل المقطم، فقال له السلطان:

«أعلمني إن حضر (يقصد الدشطوطي) هناك». فعمد عبد القادر إلى شخص يشبه  
الدشطوطي، وجاء إليه بالسلطان الذي أخذ يُقبّل قدمي الشيخ المزيف، ودفع له كيسًا من  
المال فيه ألف دينار «فصار يتمنع والسلطان يتلطف به». واكتشف قايتباي فيما بعد  
الخديعة، وأرسل إلى عبد القادر والشيخ المزيف فضربوا بين يدي السلطان بالمقارع، وأمر  
السلطان بحلق ذقن ابن الرماح والتشهير به في شوارع القاهرة على حمار، ثم سُجِن حتى  
مات.

ولم يُفتن بالشيخ الدشطوطي السلطان فقط، بل أيضًا زوجته خوند أصلباي التي أقامت  
جامعًا على مدخل قنطرة الوداع بمدينة الفيوم؛ كما أمر الشيخ. وشيد السلطان قبة للشيخ؛  
كي يُدفن فيها، وهي ملحقة بمسجده الموجود حاليًا بشارع بورسعيد بالقرب من ميدان  
باب الشعرية.

ويقول علي مبارك: «إن وفاة الشيخ عام ٩٢٤ هـ ارتجت لها القاهرة، ونزل لجنازته ملك  
الأمراء العثمانية، والأمير قايتباي الدودار، والقضاة الأربعة، وأعيان الناس».

\*\*\*

لم يكن قايتباي أسيّرًا للشيخ الدشطوطي فحسب، بل كان يعتقد أيضًا في الشيخ زكريا الأنصاري ويُنصَح بنصحه، ويقبل لاذع نقده بمنتهى الرضا ورحابة الصدر.

والشيخ الأنصاري قال عن ذلك: «ما كان أحد يحملني كما يحملني السلطان قايتباي؛ فقد كنت أحط عليه في الخطبة، حتى أظن أنه ما عاد قط يكلمني، فأول ما أخرج من الصلاة يتلقاني ويُقبّل يدي، ويقول: جزاك الله خيرًا».

وهذه المكانة أوغرت صدر الحاسدين؛ لما رأوا ما يكيّله الشيخ للسلطان من انتقادات في خطبة الجمعة، فتقدم له الشيخ قائلًا: «والله يا مولانا إنما أفعل ذلك معك شفقةً عليك، وسوف تشكرني عند ربك، فإني والله لا أحب أن يكون جسمك هذا فحمة من فحم النار». فصار ينتفض كالطير.

وبالقدر نفسه اعتقد قايتباي في الشيخ أبي عبد الله المحمدي الدمرداش، وقرّبه وأوكل إليه مهمة تجديد المسجد النبوي، ثم وهبه قطعة الأرض التي بنى عليها زاويته، وأضحت تحمل اسمه إلى يومنا هذا.

كما حوّل السلطان قايتباي الزاوية الأحمديّة التي أقامها الشيخ عبد العال بجوار قبر أستاذه أحمد البدوي إلى مسجد صغير، وأقام قبة على ضريح السيد البدوي ومئذنة للمسجد الصغير.

\*\*\*

السلطان برقوق رتب للمدرسة التي أنشأها بين القصرين عددًا من الصوفية، ورتب لهم المرتبات الكبيرة؛ كما ذكر أبو المحاسن في (النجوم الزاهرة).

بل إن السلطان برقوق -كما ذكر أبو المحاسن في (النجوم الزاهرة)- أوصى أن يُدفن عند وفاته تحت قدمي أحد المجازيب، وهو ما ذكره الجبرتي في حوادث ١٧٧٤ م، متحدثًا عن وفاة الشيخ عبد الله «الذي كان يعتقد الملك الظاهر برقوق، وأوصى أن يُدفن عند موته

تحت قدمه بالصحراء». كما أوصت (خوند شكرباي) الأحمديّة زوجة السلطان خشقدم بأن يُوضَع على نَعْشِها خرقة مرّقة للفقراء؛ إذ إنّها اتبعت الطّريق الأحمديّة، ودوامت على زيارة ضريح السيد البدوي.

دعم السلاطين موالد الأولياء؛ كما فعل السلطان قايتباي، وكانت تلك الموالد تشهد وقوع الكثير من مظاهر الفجور، ويقول ابن حجر إنه عثر مرة صبيحة مولد الشيخ الإنبائي الذي كان يُقام قرب الجيزة، على أكثر من مئة وخمسين جرة خمر متناثرة في المزارع المجاورة، هذا خلاف ما كان في تلك الليلة من الفساد والزنا واللواط والتجاهر بذلك».

حتى أقاصي الصعيد المعروفة بالمحافظة، كان تُقام فيها الموالد، فيقول الإدفوي في (الطالع السعيد) عن موالد المشايخ: «ويُبدَل فيها العزيز الغالي، ويحضر أصحاب الشنوف والشبابات والدفوف، ويختلط الرجال بالنسوان».

\*\*\*

ذكر ابن إياس أن السلطان الغوري عندما خرج لقتال العثمانيين أراد أن يصطحب معه خليفة السيد البدوي وخليفة السيد الرفاعي؛ طلبًا للبركة. وذكر الشعراني أن الغوري كان كثير التردد على الشيخ أحمد الشهاب الدين أبي مسلم الملقب بـ(السطيحة)؛ نظرًا لأنه كان كسيحًا، وكذلك تردد كبار أمراء المماليك والكثير من رجال الدولة عليه في زاويته بـ(شبرا قبالة) التابعة حاليًا لمحافظة المنوفية.

ويذكر ابن إياس في حوادث عام ٩٢٢ هـ أيضًا، أن طومان باي تردد في تولي السلطة بعد السلطان الغوري، وتحت إلحاح الأمراء قرر أن يستشير أبا السعود الجارحي الذي كان له فيه اعتقاد كبير؛ لكي يستخير الله في أمر توليه السلطنة، وهنا يقول ابن إياس: «ثم ركب طومان باي ومعه الأمير علاء وجماعة من الأمراء المقدمين، وتولوا إلى كوم الجارح عند الشيخ أبو السعود، فلما جلسوا بين يديه وذكروا له تعلُّل الأمير طومان باي على السلطنة بأنواع من العلل، منها: أن خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها درهم ولا دينار للإنفاق على

العسكر، وأن الأمراء قد يغدرون به ويرسلونه إلى السجن؛ أحضر الشيخ أبو السعود بين يدي الأمراء مصحفًا شريفًا حلفوا عليه بأنهم إذا سلطوه لا يغدرونه ولا يثيرون فتنةً، وأنهم ينتهون عن ظلم المسلمين، فلما انتهوا أمر الشيخ أبو السعود الأمير طومان باي بقبول السلطة؛ فقبلها». كما يذكر ابن إياس أن الشيخ أبو السعود صار يتصرف في أمور المملكة في عهد السلطان طومان باي، فأخذ يعزل ويولي ويعاقب ويثيب.

\*\*\*

ونجد أن علي بك الكبير قام ببناء المسجد الحالي للسيد البدوي والقباب الثلاث، أكبرها على ضريح السيد البدوي، والثانية للشيخ عبد العال الفيشاوي، والثالثة للشيخ مجاهد شيخ المسجد في عصر علي بك الكبير. كما أوقف علي بك الكبير بعض الأوقاف لمقام السيد البدوي، ونصت الوقفية على أن يكون عدد المجاورين سبعمئة يقطنون بمسجد السيد البدوي، ويأخذون جراية يومية من ٦ أرغفة خبز، قرصة لكل مجاور، وفول نابت بعد صلاة الصبح، وشربة وبر (العيش). وفي شهر رمضان تزداد الجراية لتشمل الأرز واللحم والمسلي والبصل والحمص. كما حُصّصت للمجاور ٨٥ نصف فضة يصرفها سنويًا للكسوة، يشتري بها بفتة وزعابيب وقماشًا أبيض.

واستمر تقديس السيد البدوي لدرجة أن عبد الرحمن الرافي يذكر في كتابه (عصر إسماعيل) أن: «الحكومة اضطرت إلى دعوة مجلس شورى النواب في دور غير عادي؛ لأنه تصادف مع مولد السيد البدوي».

وفي حوادث ١٢٢٠ هـ يخبرنا الجبرتي أن الباشا محمد علي أذن لولده الكبير بالذهاب لزيارة سيدي أحمد البدوي في طنطا، وعيّن في صحبته أتباعًا وعسكرًا وهجنًا، و«قرر له دراهم على البلاد ألف ريال فما دونها خلاف الكلف».

وقد أدرك الاحتلال الفرنسي مدى أهمية رجال الصوفية في مصر، وحاولوا التقرب منهم، وفي تقرير لها عن الطرق الصوفية بمصر نشرت (المصور) في عددها الصادر في (١٠ من

مايو ١٩٤٠ م) أن: «السيد خليل البكري شيخ الطرق الصوفية أدى لوطنه في عهد الاحتلال الفرنسي خدمات جليلة، واستطاع بوساطة لدى نابليون أن يخفف عن كاهل الشعب المصري كثيراً من أعباء الاحتلال، وبلغت مكانته عند الفرنسيين أن رُسمت له عدة لوحات زيتية بمعرفة كبار الرسامين الفرنسيين لا يزال معظمها محفوظاً في متحف اللوفر بباريس».

وفي عهد الاحتلال الإنجليزي كان للشيخ عبد الرحيم الدمرداش، شيخ الطريقة الدمرداشية، علاقات وثيقة بقيادة الاحتلال في مصر.

وقد استطاعت عائلة البكري الاحتفاظ بمنصب شيخ الطرق الصوفية بموجب فرمان أصدره الباشا محمد علي جعل فيه رئاسة الطرق وقفاً على السيد أبي السعود البكري وذريته، وكما ذكرت مجلة المصور (١٠ مايو ١٩٤٠ م) فإن السيد علي البكري كانت له مكانة مهمة عند الخديو إسماعيل الذي كان يستهل خطاباته للشيخ بعبارة «أخي العزيز». بينما كان السيد توفيق البكري الذي تلقى علومه مع أولاد الخديو توفيق مقرباً منه، وأنعم عليه السلطان عبد الحميد بلقب (مشير).

\*\*\*

ويروي لنا كلوت بك أن الاعتقادات الباطلة والأوهام لم تستحوذ على العامة فقط، بل شاركهم فيها الخاصة أيضاً على اختلاف مذاهبهم، وينقل لنا حكاية محمد بك أول ناظر للحرب في حكم سمو الوالي، وهو من فحول الرجال؛ إذ اشتهر بمرافقة محمد علي ومقاسمته حظوظه ومشاركته إياه في جلائل أعماله، يأوي عنده رجلاً من المجذوبين الذين كانت طرائقهم المستغربة وأحوالهم الشاذة تدعو الناس إلى وصفهم بالولاية، وكان يعتني بأمره ويظهر له جزيل احترامه، وأنشأ له ضريحاً بجوار ضريحه.

## الفصل الرابع عشر

### الدرأوإش فف عفون المسأشرقفن

كان (الدرأوإش) من أهم الظواهر التي لفتت نظر الرحالة والمسأشرقفن الذفن زاروا مصر فف العصور الوسطى، فقدّموا لنا رؤفة مختلفة عن المؤرخفن المصرفن فف الفأرة ذاتها، والتي كان بعضها فبدو متناقضًا أو متعاطفًا مع أتباع طرفة دون غيرها كما كان الحال مع شفخنا عبد الرحمن الجبرأف، وهو ما سجله الباحث والمؤرخ اللبناف خالد زفافة، مشفرًا إلى أن موقف الجبرأف من المجاذفب كان موقفًا متناقضًا، فأرةً محافدًا وأرةً متشككًا، فهو فؤمن بكرامات بعض الأئمة وما فنكره من خروج الناس لزفارة ضرفح السفد على البكرف فآقبله لدف زفارة ضرفح السفد الرزوقف، ففظهر الجبرأف مثلًا مقتنعًا أن الشفخ محمد القلنفف المأوفف سنة ١٧٥٠ م كان فنفق من الففب؛ لأنه لم فكن له إفراد ولا ملك ولا وطففة ولا فآناول من أحد شففًا. وأضاف الباحث أن الجبرأف فبدو مقتنعًا بكرامات أئمة مشافخ الخلوففة التي فآتمف إليها.

\*\*\*

إذا آآقلنا إلى شهادات الرحالة سنجد ما ذكره الرحالة الفرنسفون الذفن آأوا المشرق فف القرن السادس عشر، ومنهم الرحالة ففكولا دو ففكولاف، الذف رسم صورة للدرأوإش بأنهم: «بلا لآفة وحبفكو الرأس، وهم شبه عرأة صففًا وشفاء؛ آفآ لا ففردون إلا قطعتفن من آلد الآروف أو الماعز آول الوسط، وفكون الوبر من الآرف وفآدلف ففن الساقفن؛ آفآ علقأ بعض الأآراس، وفآآلون بآلقات كبفرة فف آذانهم».

وأكثر ما لفت آآباه الرحالة الفرنسففن -كما آقول إففلفز بفرنا، الباحآة فف آارفح القرون الوسطى بالشرق الأوسط، والتي كانت تعمل بالمركز القومي للبحوث العلمفة بفارفس من

عام ١٩٧٩ م وحتى ١٩٨٣ م- هو ندوب الحروق الكبيرة التي تغطي جباه الدراويش؛ فهم يحرقون أنفسهم بالحديد الساخن، ويكون جراحهم بواسطة نبات الفطر الذي يضعونه على الجرح؛ حتى يحترق بالكامل، ويتحول إلى رماد، ويتحملون بذلك آلامًا مبرحة في صبر يثير الإعجاب. ويبدو أن النبات الذي تقصده هو نبات الخشخاش، ويكون الدراويش تحت تأثيره عندما يكونون أذرعهم وأرجلهم بالنار.

ويذكر نيكولاي عن الدراويش: «إنهم يمارسون الشذوذ الجنسي، الجرم الذي ينافي كل عقل وكل منطق، ليس فقط مع غيرهم من جنسهم، ولكن بصورة بشعة وشاذة مع الحيوانات المتوحشة». ويضيف: «الدراويش لصوص، فاسقون، سارقون، لا يتورعون عن نهب وقتل وإيذاء كل من يلتقون بهم في طريقهم بواسطة فأس صغيرة يُعلّقونها في أحزمتهم».

\*\*\*

ويذكر المؤرخ آدم فرانسوا جومار في موسوعة (وصف مصر) قصة أحد هؤلاء المخبولين الذي شاع أنه يُوحى إليه من النبي محمد ﷺ، وكان يتجول في شوارع القاهرة عاريًا تمامًا، وكانت النساء -حتى ذوات الوضع المتميز- يقتربن منه؛ لتقبيل يده، وذات مرة أمسك هذا المجدوب بواحدة من هؤلاء النسوة، وألقاها على الأرض وسط أحد الشوارع المزدحمة؛ فنزعت سيدة أخرى -كانت تمر بجوارها- طرحتها، وغطت به الثنائي المحظوظ. أما المرأة الأولى فقد قامت بنفسها بعد ذلك تخطب في الناس قائلة: «إن إلهامًا من النبي قاد هذا الرجل المبارك إليها لثَرَرَق من اتصاله بها مخلصًا مؤمنًا»، ثم اصطحبت المجدوب معها وأعطته ثيابًا غير أنه قام بتوزيعها على الفقراء.

كما تذكر الموسوعة أن الشيخ أحمد أبو حديد، كان يجوب الشوارع عاريًا أو مستترًا بخرق بالية، وفي جنازته سار الدراويش ممن هم على شاكلته ليصدر عنهم أنين شديد، وقد أُجهدوا حتى راحوا يُزبدون واحتقنت الوجوه وجحظت العيون من الرءوس.

ويفرد (كلوت بك) سطورًا للحديث في كتابه عن ظاهرة الأولياء في مصر، فيقول: «ومن أغرب حفلات الدراويش الذكر الذي يتلخص في تكرارهم لفظ الجلالة مع تحريك الرأس والجسم تحريكًا متصلًا غير منقطع، وهذه الحركات المترادفة تؤثر فيهم؛ فلا يلبثون أن يقعوا على الأرض، وقد حقنت وجوههم وسال اللعاب من أفواههم، وبدت عليهم علامات الأخذة. وفي هذه الآونة التي يبلغ الهياج في نفوسهم خلالها مبلغه الأقصى ويرون فيه الدليل المحسوس على ولايتهم يعتدون على بعضهم البعض بصنوف الإيذاء والتمثيل، وربما نجم عن أفعالهم موت البعض منهم؛ فيذهبون فريسة الجهل والضلال».

الأمير النمساوي (ردولف) قام برحلة إلى مصر والقدس في عهد الخديو إسماعيل، وزار الصعيد في باخرة نيلية، وبعد مروره بمدينة (أبو تيج) توقفت الباخرة، واقترب منها قارب وفيه رجل يطالب بالضريبة المستحقة، فبين الجبال الصحراوية القاحلة قبر أحد الأولياء الصالحين، ويسمونه (شيخًا) وهو يطالب بالضريبة والسفينة التي تمر والتي لا تدفع تتعرض -وفقًا للمعتقدات الشعبية- للاصطدام في أثناء سيرها في النهر. بينما يتلقى ربان السفينة الذي يدفع هذه الضريبة دعوات وتبريكات من المتسولين التابعين لمقام هذا الشيخ.

أسهمت المستشرقات أيضًا في رسم صورة عن الدراويش، ومنهن المستشرقة الإنجليزية (لوسي داف جوردون)، وسجلت في رسائلها أن: «المسيحية والإسلام في هذا البلد يمثلان بالعبادة القديمة، أما الحيوانات المقدسة فأصبحت خدامًا لأولياء الله، فأحد هؤلاء الأولياء يسيطر على التماسيح في المنيا، وتروي قصة الولي الذي صحبها إليه خادمها (عمر) فرأته عاريًا بشع الهيئة، ويحج إليه الناس يُقدِّمون له الهدايا؛ طلبًا للبركة، وقيل لها إنه لا يصلي ولا يصوم، لكنه يعرف الغيب، وإنه يطوف مكة وبغداد ومراكش في ساعة واحدة».

وفي كتاب إمبليا. ب. إدواردز (رحلة الألف ميل)، نجد روايات عديدة عن المشايخ الذين التقتهم المستشرقة، منهم الشيخ سليم الذي كان يجلس على كومة من التراب قرب

فرشوط، لا يرتدي ملابس، ولا يستحم، ولا يحلق ذقنه.

تُعد شهادة المستشرق البريطاني إدوارد وليم لين، الأكثر تفصيلاً؛ فقد عاش في مصر لفترة من الوقت متخفياً في رداء عالم مصري باسم منصور أفندي؛ ليضع كتابه (المحدثون المصريون) عام ١٨٣٦ م، الذي يُعد وثيقة تاريخية بالغة الأهمية.

في كتابه أوضح إدوارد أنه لا تخلو قرية مصرية من ضريح ولي يزروه الكثيرون، لا سيما النساء، وينذرون له النذور. ويصف الموالد التي تُقام على شرف أولئك الأولياء: «يُعلّق مَنْ يسكنون بجوار الضريح مصابيح أمام أبوابهم، ويقضون نصف ليلهم في التدخين واحتساء القهوة والاستماع إلى رواية القصص في المقاهي وتلاوة القرآن والأذكار».

كما يقول: «ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانيين أو مخابيل أو دجالون، يسير معظمهم في الشوارع عارياً كامل العري، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير، حتى إن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم، بل يُؤذَن لهؤلاء الجبناء أحياناً بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحراراً كاملي الحرية، ولا يُعد هذا في عُرْف الطبقة الدنيا من الشعب معرفة ولا منقصة، بل هم يؤولون ما يشاهدون وما أعجب تأويلهم! فهم يعتبرون أفعال الأولياء وليدة تجرّدهم الذهني عن الأشياء الدنيوية، بينما تكون ملكاتهم الفكرية مأخوذة بالعبادة والتضرع، لدرجة لا تُمكنهم من السيطرة على أهوائهم ونزعاتهم».

ويروي إدوارد عن رجل مشوه كان يسير في الشارع شبه عارٍ وشعره منسدل في جدائل طويلة، وأنه اعترض سبيله، فلما حاول لين تجنّبه، لأمه أحد المارة لافتاً نظره إلى أن هذا الرجل من الأولياء؛ ينبغي احترامه والإذعان لطلبه، وإلا أصابه مكروه ولاحقه سوء الطالع.

ويمنحنا لين صورة كاملة عن اعتقادات المصريين في الأولياء، فيقول: «القطب أكثر الأولياء تقوى، ومركزه في مكة المكرمة فوق الكعبة تحديداً، ورغم أن أحداً لا يراه هناك، فإن صوته يتردد في الليل منادياً: «يا أرحم الراحمين». ومن المراكز الأخرى بوابة زويلة، ويُقال إن الباب الخشبي الكبير به فسحة صغيرة هي مركز القطب؛ لذا يتلو المارة بالباب

سورة الفاتحة، ويتصدقون على متسول جالس في المكان يعتبرونه أحد خادمي القطب، بل إن المرضى يعتقدون أن اقتلاع سن من أسنانهم وتثبيتها في شق من الباب سيحميهم من الأمراض.

ويذكر إدوارد لين قصة أحد التجار الذي أراد أن يصبح وليًّا؛ فقصّد أحد من يزعمون انتماءهم إلى طبقة الأولياء، وأخبره عن رغبته؛ فطلب منه الذهاب في اليوم التالي باكراً إلى الصلاة في جامع المؤيد، وأن يمسك بأول شخص يراه خارجاً من باب الجامع الكبير؛ لأنه سيكون القطب، وفعل التاجر ما أمر به، وخرج رجل عجوز رث الثياب من الباب، فانهال التاجر على يديه يُقبِّلهما متضرعاً أن يجعله بين «أصحاب الدرك». فقال الرجل؛ كي يفلت يده: «تولّ منطقة درب الأحمر». وما إن تسلم التاجر الولي مهامه الجديد حتى راح يتجول في المنطقة بأسرها، حتى وقع بصره على رجل أمام متجره يحمل جرة فيها فاصوليا مسلوقة، فأخذها منه وكسرها؛ فانهال عليه البائع ضرباً، بينما ظل التاجر دون حراك، وحاول البائع جمع ما تبقى من الفاصوليا، فنظر للجرة فإذا بها ثعبان، فأخذ البائع يستغفر لضربه التاجر، معتقداً أنه ولي من أولياء الله، وأنه أنقذ زبائنه من التسمم. وتكررت فعلة التاجر في اليوم التالي مع بائع اللبن، فلما حاول ضرب التاجر استوقفه المارة، وحكوا له ما حدث مع بائع الفاصوليا، فنظر الرجل في جرتة فوجد فيها كلباً ميتاً.

نماذج عديدة أوردها لين في كتابه، منها: ذلك الولي الذي جعل في عنقه طوقاً حديدياً، وربط نفسه إلى جدار غرفته، مدعيًا أنه في هذا الوضع منذ ثلاثين عاماً، وهناك ولي قطعوا رأسه لجرم لم يرتكبه، فتكلم رأسه بعد قطعه، وآخر سال دمه على الأرض وخط بحروف عربية إعلان براءته: «أنا ولي من أولياء الله، ولقد مت شهيداً».

# الفصل الخامس عشر

## خزعبلات المريدين

بقدر ما كان للطرق الصوفية دورها الملموس في الدفاع عن الإسلام ونصرة الدين ونشره في مختلف البلدان، والتصدي لجور الحكام وعسف المحتلين؛ كان لمريدي تلك الطرق -بكل أسف- دور كبير في الترويج لأساطير وخزعبلات أرادوا بها التهويل من قدر مؤسسي طرقهم، بينما هم في الواقع كانوا مدخلاً لانتقاد التصوف، كما أنهم خالفوا مبادئ أصحاب تلك الطرق الصوفية الذين نهوا عن الادعاء عليهم بقول أو بفعل.

وساعد على ترسيخ تلك الخزعبلات أو الأساطير المسماة (جورًا وافتراءً) بالكرامات- مؤلفو كتب المناقب أو الكرامات.

\*\*\*

فالسيد البدوي ليس مسئولاً عن كم الخزعبلات التي نُسبت إليه، بخلاف المغالطات التاريخية، ومنها: ما ذكره المناوي في (الكواكب الدرية) مدعيًا أن الظاهر بيبرس استقبل البدوي بحفاوة بالغة؛ على الرغم من أن البدوي دخل مصر حين كان يحكمها الملك الكامل محمد الأيوبي.

كما أسرف البعض في رواية «البدوي جلاب الأسرى». وذكر الشعراني: «شاهدت أنا بعيني سنة خمس وأربعين وتسعمئة أسيرًا على منارة سيدي عبد العال h مقيدًا مغلولًا وهو متخبط العقل، فسألته عن ذلك، فقال بينما أنا في بلاد الفرنج آخر الليل توجهت إلى سيدي أحمد البدوي فإذا به، فأخذني وطار بي في الهواء، ووضعني هنا، فمكثت يومين ورأسي دائرة من شدة الخطفة».

وقال محمد فهمي عبد اللطيف في كتابه (السيد البدوي): «إن وزارة الأوقاف كانت قد خزنت السيوف والدروع التي تم الحصول عليها من جيش لويس التاسع بعد معركة المنصورة، وخزنتها في المسجد الأحمدي، فكان أتباع البدوي يتقلدونها في مواكبهم، مدعين أنهم الأسرى الذين جاء بهم البدوي من بلاد أوربا، وهم يغنون أغنيتهم الشهيرة: (الله يا بدوي جاب اليسرى)؛ أي الأسرى. وقد استمرت فكرة قيام السيد البدوي بجلب الأسرى مستمرة حتى بعد وفاته، وقيل إنه ظل يفعلها حتى طلب منه محمد سعد الدين باشا مدير الغربية التوقف عن ذلك».

\*\*\*

أما إبراهيم الدسوقي، فمن الكرامات التي نُسبت إليه أنه لما بلغ من العمر سنة أمسك مَنْ يحملهم الريح من الأولياء وأقعدهم في الأرض، ولما بلغ العامين أقرأ مؤمني الجن القرآن، ولما بلغ التاسعة فك طلسم السماء، ولما بلغ اثنتي عشرة نقل مريديه من النار إلى الجنة بإذن الله.

ومما قاله المناوي في (الكواكب الدرية) ونقله عنه (النبهاني): «إن طفلاً أكله تمساح فأنته أمه مذعورة، فأمر الدسوقي نقيبته بالخروج إلى الشاطئ، ونادى التماسيح: مَنْ ابتلع صبياً فليطلع به، فطلع التمساح ومشى مع النقيب إلى الشيخ الذي أمر التمساح بلفظ الصبي فلفظه، ثم قال للتمساح: مت. فمات».

وقال البعض على لسان الدسوقي أقوالاً عجيبة، منها: إنه سد أبواب جهنم بفوطته، ومنها: إن صنح أبواب الجنة بيده، وإن الله تعالى سكن في قلبه التوحيد قبل آدم وحواء وقبل العرش والكرسي واللوح والقلم والسموات والأرض.

وكل ما نُسب للسيد الدسوقي لم يكن مسؤولاً عنه، فقد كان يقول لأتباعه: «يا أولادي، ناشدكم الله لا تسيئوا إلى طريقي، ولا تلبسوا في تحقيق، ولا تدلسوا ولا تدنسوا، وإن كنتم صحبتموننا لتأخذوا منا أوراقاً بغير عمل، فلا حاجة لنا بكم».

\*\*\*

في حين نُسبت للرفاعي الكثير من الأساطير والادعاءات، منها نسبه للنبي ﷺ، وهو ما نفاه كثير من المحققين، ومنهم: ابن طباطبا عالم الأنساب الذي نفى أن يكون للرفاعي أي صلة بآل البيت، ونقل عن صاحب (مختصر عمدة الطالب) أن الشيخ أحمد الرفاعي لم يدع هذا النسب، وإنما ادعاه البطن الثالث من ولده، حتى الشيخ الشعراني لم يذكر نسبه لآل البيت.

وقد وصف الذهبي الشيخ الرفاعي بأنه «كان كثير الاستغفار، عالي المقدار، رقيق القلب». وقال عنه: «وكان غاية المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلمة والذل والانكسار والإزاء على نفسه وسلامة الباطن، ولكن أصحابه فيهم الجيد والريء، وقد كثر الزغل فيهم، وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذ التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا ما عرفه الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فنعوذ بالله من الشيطان».

وهو ما أكده المستشرق البريطاني إدوارد لين: «إن الفعال العجيبة التي تُنسب للرفاعية؛ كجلوسهم في الأفران المتأججة، وركوبهم الأسد، وغير ذلك، لم تكن معروفة لدى منشئ الطريقة، وقد استُحدثت بعد الغزو المغولي».

ومن الحكايات التي نُسبت للرفاعي أنه نادى أسماك البحر أن تخرج مشوية؛ ليأكل منها هو ومن حضر معه، فتراكمت الأسماك في البحر، وقالت له: «السلام عليك يا خلاصة خلقه، كل من لحمنا؛ لنسعد بك يوم القيامة».

وذكروا أيضًا أن الشيخ الرفاعي رأى أسدًا يفترس شابًا، وقد خلع كتفه من يده، فزجره الشيخ الرفاعي، فنطق السبع: «يا سيد السادات، وصاحب الجود والكرامات، لي سبعة أيام ما أكلت شيئًا، وهذا الشاب أرسله لي الله رزقًا مقسومًا». فنظر إليه الرفاعي نظرة غضب؛ فوقع السبع ميتًا في الحال، فأخذ الشيخ ذراع الشاب، وأعادها إلى مكانها.

وروي أيضًا عن الرفاعي أنه كان يصلي الصبح في مكة، والظهر في المدينة، والعصر في بيت المقدس، والمغرب في بعلبك، والعشاء في جبل قاف.

\*\*\*

شكل آخر من الخزعات التي ابتدعها مريدو الطرق، وتحديدًا أرباب الطريقة السعدية التي أسسها سعد الدين الجيباوي (مُتوفى عام ١٣٣٥ م). والدوسة طقس احتفالي ارتبط بإحياء ليلة المولد النبوي الشريف. وقد قام بوصفها إدوار لين وغيره من الرحالة الأوربيين. وطقوس الدوسة تقضي بأن ينبطح أتباع الطريقة على وجوههم في صف طويل، ثم يدوس شيخ الطريقة بحصانه فوقهم، بينما يردد الحاضرون الأدعية ويهتفون.

كانت (الدوسة) تقوم على نظرية «الدرويش الصالح عن حق لا يصيبه أذى أو ألم حين يتعرض جسده للعذاب؛ لأنه في كنف الإيمان».

وقد انتقد المؤرخ البريطاني (بتلر) تلك الاحتفالية الشاذة في كتابه (البلاط الملكي)، وروى أن الخديو توفيق قال لهم في أثناء احتفال المحمل: «أدعم هذا الاحتفال الهام في ديننا طالما لا ضير فيه ولا أذى، العبرة عندي ألا يحتوي الاحتفال على ممارسات بربرية متوحشة تثير الامتعاض، كما سيحدث في ظرف أيام قليلة حين تشهدون معي دوسة الدراويش التي أتحفظ عليها، ولي فيها رأي مختلف، ورغم ذلك فإنه لا يبدو إبطالها أمرًا ممكنًا».

ويصف بتلر المشهد الشنيع الذي رآه في الدوسة، ففي حين أشار لين إلى أن المريدين لا يُصابون بأذى، فقد نفى بتلر الذي رأى المشهد عن قرب ما قاله لين: «وشاهدت تلوي هؤلاء المعذبين وسحقهم الرهيب؛ تحت وطأة وزن الجواد وحوافره التي راحت تفحص الأفخاذ والأكتاف والضلوع وفقرات الظهر وتعثر الحصان». ثم يكشف بتلر اللثام عن التدليس الذي يمارسه الدراويش: «عادةً ما يُرسل الجرحى خارج القاهرة، بينما يُدْفَن الموتى في سرية، ولا يتسنى لأحد معرفة أعدادهم، وبسبب هذا التعتيم يعتقد أهل البلد بأن لا أحد يُصاب بسوء». ورغم أن بتلر حاول إقناع الخديو بإلغاء هذه المجزرة؛ فإن الخديو رفض وعرض بدلاً من ذلك على الشيخ أن تجره في أرجاء القاهرة عربة بستة خيول بين صفيين من جنود، لكنه أجاب بأن الناس لن يرتضوا ذلك. لكن المصادفة لعبت دورها، فقد تُوفِّي الشيخ

البكري شيخ الدراويش، ثم تُوفِّي مندوبه الذي وطئ بحصانه الأجسام في الدوسة، ثم مرض الحصان نفسه؛ فظن الدراويش أن الله يؤيد رغبة الخديو في إلغاء الدوسة. وبالفعل ألغى الخديو احتفالات الدوسة بقرار رسمي نشرته الوقائع المصرية بتاريخ ١٥ من فبراير ١٨٨١ م، تحت عنوان «تنبيه رسمي.. بطلان الدوسة».. فحتى الخرافة لم يتم إلغاؤها إلا بمقتضى خرافة.. وهنا أيضًا يصدق قول المتنبي: «كم ذا بمصر من المضحكات، لكنه ضحك كالبكاء!».

# الفصل السادس عشر

## لكل وليّ كرامة من المشي على الماء وحتى المدد الجنسي

كرامات أم خرافات؟

هذا ما يجب أن يحسمه المنطق الإيماني والعقلاني، لكنها قد تبدو عملية شاقة لمن يؤمنون بأن حديد الأضرحة مبارك، وأن العتبات المباركة تريح القلب وتعدل المايل وتقرب البعيد، ولمن يظنون أن الإمام الشافعي سيقراً رسائلهم وينظر شكواهم ويصدر أحكامه المنصفة العادلة، وأن زيت قنديل (أم هاشم) سيريح المكروب ويشفي المريض ويزيل أوجاع المهموم.

ولكن كيف لنا أن نحاكم العامة ومسألة الكرامات والخوارق تناقلتها كتب التراث وكرستها، وأشهرها طبقات الشعرائي؟!

القاعدة العريضة في تلك الكتب قاطبة تقول: «كما أن للأنبياء معجزات؛ فإن للأولياء كرامات». هذا ما نقرؤه في كتب التراث، ومنها: (الطبقات للشعراني، والرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري، واللمع في التصوف للطوسي، وحلية الأولياء لأحمد بن عبد الله الأصفهاني، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني الذي أكد أنه جمع في كتابه من كرامات الأولياء ما لم يجتمع قبله في كتاب، وذكر أنه نهل من أكثر من أربعين كتابًا، منها التفسير الكبير للفخر الرازي، ومشكاة المصابيح لولي الدين التبريزي، والفتوحات المكية لابن عربي، ونفح الطيب للشهاب أحمد المقرئ).

قائمة طويلة من كتب التراث التي نقل بعضها عن بعض، وجميعها أقر بمبدأ أن لكل ولي كرامة، واعتبروا -كما قال النبهازي- أن: «كل ما كان كرامة لولي فهو معجزة لنبيه، فالكرامات التي أجراها الله على أيدي خواص عبيده من سادتنا الصوفية، هي تقوية الإيمان بوجود الله تعالى وصدق سيدنا محمد ﷺ، وأن الخوارق الحادثة للأولياء -كالطيران في الهواء، والمشي على الماء، وكلام الجماد، والانتقال من بلد إلى آخر في لمح البصر (أهل الخطوة)- من الخوارق للعادة الواقعة للأولياء تكريمات لهم من الله تعالى».

وهو ما عبّر عنه أيضًا السهروردي: «قد يكون للأولياء أنواع من الكرامات؛ كسماع الهواتف من الهواء، والنداء من بواطنهم، وأن تُطوى لهم الأرض، ويعلمون بعض الحوادث قبل تكوينها ببركة متابعتهم الرسول ﷺ، وكرامات الأولياء من تنمة معجزات الأنبياء».

ويقول ابن تيمية: «من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، وما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات؛ كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة».

\*\*\*

أبو بكر الكلاباذي في كتابه (التعرف لمذهب أهل التصوف) الذي ظهر في أوائل القرن الرابع للهجرة، وجمع فيه مصطلحات التصوف ورجاله في زمنه حين تبلور التصوف منهجًا وبلغ درجة عالية من الكمال العلمي والفني، يقول: «إن رجال التصوف أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، وإن كانت تدخل في باب المعجزات؛ كالمشي على الماء، وكلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته».

وذكر الكلاباذي أن المتصوفة يستشهدون على صحة الروايات بما ورد في القرآن عن قصة هدد سليمان الذي أتى بعرش بلقيس في لمح البصر، وقصة الطعام الذي كان زكريا يجده في محراب مريم (عليهما السلام). ونقل الكلاباذي عن المتصوفة قولهم: «إن كرامات

الأولياء تجري عليهم من حيث لا يعلمون، والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون وبيّاتها ناطقون؛ لأن الأولياء قد يُخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة، والأنبياء لا يُخشى عليهم الفتنة بها؛ لأنهم معصومون».

الأفكار ذاتها عبّر عنها معاصره عبد الملك الخركوشي؛ ليؤكد الكرامات وذكر الأدلة ذاتها التي يستشهد بها أغلب الصوفية على وقوع الكرامات، فيذكر الخركوشي قصة عمر بن الخطاب h لما رفع إليه عمرو بن العاص أن النيل يقف كل سنة فلا يجري حتى يُرمى إليه بجارية مزينة؛ فكتب ابن الخطاب h رسالة إلى النيل قال فيها: «من عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد.. فإن كنت تجري بأمر من الله e فاجرٍ، وإن كنت تجري بأمر نفسك فلا حاجة لنا فيك، فلما بلغ نيل مصر ذلك جرى كما لم يجر قبل، ولم يقف بعد ذلك».

وحدد الكلاباذي الفوارق بين المعجزة والكرامة، ومنها أن زيادة المعجزات للأنبياء تزيد قلوبهم تثبيتًا وزيادة الكرامات للأولياء تزيد قلوبهم وجلًا وخوفًا وحننًا أن يكون ذلك استدراجًا، والأنبياء متعبدون بإظهار معجزاتهم، والكرامة تتولد بعد الاجتهاد، بينما المعجزة تظهر ابتداءً، ولا تتولد من الاجتهاد، والأولياء متعبدون بكتمان كراماتهم، والمعجزة تبقى بعد موت النبي، لكن الكرامة لا تبقى بعد موت الولي.. ورغم أن هذه القاعدة الأخيرة اتفق عليها معظم الصوفية؛ فإن الناس ما زالوا يعتقدون أن كرامات الأولياء ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا، ويتمسحون بأضرحتهم طلبًا للمدد.

كما يستشهد مؤيدو الكرامات بقصة السيدة مريم (رضي الله عنها) وما وجده زكريا n في محرابها من خيرات يعتبرونها بمثابة كرامات وليست بمعجزات؛ لأن السيدة العذراء ليست من الأنبياء. ومنها ازورار الشمس عن أهل الكهف فلا تصيبهم، وغيرها من الكرامات التي وقعت للصحابة، وأشهرها قصة الرجلين اللذين خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، وكان مع كلٍّ منهما عصا، فأضاءت إحداها لهما الطريق، ولما افترقا أضاءت الأخرى حتى وصل كلُّ منهما إلى بيته.

وهناك القصة الأشهر لسيدنا عمر بن الخطاب h وهو يخطب على المنبر فإذا به فجأة يصيح: «يا سارية، الجبل» فجاءه رسول الجيش يقول: «يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمونا وإن الصائح ليصيح: يا سارية، الجبل، فشددنا ظهورنا بالجبل؛ فهزمهم الله».

\*\*\*

وفقًا للروايات التراثية (التي تجافي المنطق والعقل)؛ فإن أولياء الله يطيطرون في الهواء، ويمشون على الماء، ولا يؤدون الفرائض، ولا يرتادون المساجد؛ لأنهم من (أهل الخطوة) الذين يذهبون خمس مرات في اليوم لأداء الفرائض في الكعبة المشرفة، وهم الذين يأتيهم الغيب ولديهم قدرة على ترويض الأفاعي والتماسيح، وأن أولئك المشعوذين يمارسون الفحشاء مع الحيوانات والنساء المارة في الطريق؛ لأنهم -حسب زعمهم- أولياء أصحاب كرامات، رغم أنه من ضوابط الكرامات عدم ارتكاب المحرمات.

الكارثة في كتب التراث اعتبار الخوارق معيارًا للولاية، فقال الشعراني: «وكان سيدي أحمد لا يأذن قط لفقير لمريد أو صوفي أن يجلس على سجادة إلا إن ظهرت له كرامة».

أي أن الصلاح والتقوى والعلم لا يكفي، فلا غرو إذن إن كان الفلاسفة المسلمون أول من رفض فكرة الكرامات، فالعديد من الروايات عن الكرامات تجافي الفقه، ومنها: رواية إبراهيم الخراساني أنه احتاج للوضوء، فإذا به يجد كوزًا من جوهر وسواكًا من فضة.. وعلق عليه ابن الجوزي قائلاً: «إن الرجل قليل العلم؛ لأنه لو كان يفهم الفقه لعلم أن استعمال السواك الفضة لا يجوز».

ومنها روايات مبالغ فيها، فنجد الشعراني يقول عن أبي بكر البطائحي: «إن أول من ألبسه الخرقة في المنام كان أبو بكر الصديق h، فاستيقظ البطائحي فوجدها عليه».

ولنقرأ ما جاء في (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) للمناوي، فهو يُحدثنا عن أحمد بن خضرويه البلخي، ويقول: «إن من كراماته أنه كان يلبس في شدة البرد قميصًا

واحدًا وهو مع ذلك يعرق، وكان إذا تكلم على الناس يفرش بساطه على وجه نهر جيجون، ويجلس عليه، ويجلس معه أربعمئة رجل».

ثم يروي لنا أن امرأة جاءت (بقي بن مخلد بن يزيد الأندلسي) تشكو أن ابنها في الأسر لدى بعض ملوك الروم، وبعد مدة جاءت للشيخ مع ابنها الذي قال إن قيده سقط، وكلما قيده سقط القيد، ولما دعوا رهبانهم، قالوا: «دعوة أُجيبَت». فلم يجدوا مفرًا من الإفراج عنه.

ثم يحكي لنا أن عبد الرحمن بن عطية الداراني أمر أحد تلاميذه بأن يلقي نفسه في حجر يتوقد، ففعل ولم يصب بأذى نتيجة وفائه لشيخه وامتناله لأمره. ثم يحدثنا عن شقران المغربي شيخ ذي النون، أنه لما أراد ليلة أن يغتسل فلم يجد ماءً، فدعا إلى الله، فإذا بالإناء يمتلئ بالماء، ولما وجدته باردًا حرك شفتيه فإذا به ساخنًا.

\*\*\*

ولننظر إلى الصورة التي ينقلها إلينا الدكتور سعيد عاشور في مؤلفه (المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك) عن انتشار الكرامات في العصر المملوكي نقلًا عن السخاوي في (تحفة الأحاب): «إن من جملة الكرامات انقلاب الأعيان، فيدعو للفقير فيصبح غنيًا، ويقول للطبق النحاسي: صِرْ ذهبًا. فيصير ذهبًا، وكذلك المشي على الماء، والكشف عن حال الموتى، وسماع كلامهم، بل إحيائهم!».

وينقل لنا د. سعيد عاشور ما قاله الشعراني عن كرامات الأولياء التي اعتقد فيها معاصروه، فهذا شيخ يجتذب الحلفاء من الصحراء فتخرج قلقاسًا، وهذه امرأة تشتهي جوز الهند ولا يجدونه بمصر، فتذهب إلى الشيخ، فإذا بشجرة تنبت فجأة في خلوته تأخذ منها المرأة ما تشتهيه، ثم تختفي الشجرة بعد ذلك، وهذا رجل يحتاج إلى المال للضرورة، فيأمره الشيخ بالذهاب إلى ساقية معينة ليغتترف منها ما يشاء من ذهب وفضة، ومن الأولياء مَنْ يضع التراب على الرصاص فيصبح ذهبًا، ومنهم مَنْ يُسخر التماسيح في عبور النيل، ومنهم مَنْ يطير في الهواء من غير أجنحة.

ومن العجيب أن الفقيه الكبير ابن حجر، قال عن نفسه إنه ما زال يعيش في بركة أحد أولئك المجاذيب.

\*\*\*

لقد قصد الناس -على اختلاف طبقاتهم- مزارات الأولياء والمشايخ، وبخاصة ذوو العاهات والأمراض الذين تزاحموا أمام أبوابهم طلبًا للشفاء؛ كما ذكر السخاوي، فإذا دخل أحد أولئك الأولياء الحمام وحلق رأسه؛ تقاتل الناس على شعره يتبركون به ويجعلونه ذخيرة عندهم.

وقد زعم الشعراني أن رجلًا اعترض على ما يجري في مولد السيد البدوي، فسلب منه الإيمان «فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدي أحمد، فقال: بشرط ألا تعود. قال: نعم، فرد عليه ثواب إيمانه، ثم قال له: وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب وحسنت توبته». ويقول الشعراني أيضًا: «فإياك أن تعترض على موالد الأولياء التي يجتمع فيها الخلائق ويقع فيها ما لا ينبغي من اللعب واللهو والمزمار».

\*\*\*

ولعل الكرامات التي التصقت بالسيد البدوي تحتاج إلى مؤلفات، وقد روى الجبرتي عشرات منها، كان أغربها شائعة قيام القيامة بعد ثلاثة أيام؛ فدب الذعر في نفوس الناس، أما الأتقياء فلاذوا بالمساجد وانقطعوا للعبادة، والفجرة انصرفوا للهو والعبث. وفي الموعد المحدد لم تقم الساعة؛ فادعى الدجالون أن جمعًا من الصوفية ذهبوا إلى أضرحة كبار الأولياء: الإمام الشافعي، وإبراهيم الدسوقي، وعبد الرحيم القنائي، ليكون ويتوسلون، وذهبوا إلى السيد البدوي؛ لتعطيل يوم القيامة، وبالفعل قُبِلت شفاعته عند الله e. وفي تلك الرواية ضرب من الكفر؛ فالله e وحده يعلم ما في الأرحام، ويعلم الغيث، وعنده علم الساعة، وما قدره الله لا يؤجله أو يقدمه بشر.

ولنقرأ ما ذكره محمد التادفي في (قلائد الجواهر): «انعقد الإجماع من الفقهاء والفقراء وتضمنت الكتب المدونة أن أصحاب التصريف التام من السادة القادة الأولياء في حياتهم

وفي قبورهم؛ كتصرف الأحياء إلى يوم القيامة بتخصيص من الله تعالى لهم، وهم: الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ معروف الكرخي، والشيخ عقيل المنجي، والشيخ صياد بن قيس الحراني».

## المدد الجنسي

خرافة أخرى التصقت بالأولياء والمشايخ، وساعد على ذلك بعض الحكايات المروية في كتب التراث، ومنها ما رواه عبد الوهاب الشعراني أشهر من أرخ للصوفية، والذي امتلأ كتابه (طبقات الصوفية) بروايات عن القدرة الجنسية للأولياء، وكيف أن فحولتهم من صفات الأقطاب الصوفية الكبار، وعلى الرغم من أن البعض يرى أن ذلك مما دُسَّ على كتابات الشعراني، مستشهداً بما قاله الشعراني نفسه: «وما مَنَّ الله به عليَّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا عليَّ في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة، وصاروا يستفتون عليَّ زوراً وبهتاناً، ومكاتبتهم لباب السلطان، ونحو ذلك». فإن البعض الآخر يرى أن هناك روايات ليست مدسوسة، ولكن لها ما يفسرها؛ كقصة الشعراني مع السيد البدوي، وكيف ساعده الأخير في فض بكاره زوجته، وقد رأى مَنْ دافعوا عن الشعراني أنه ذكرها كرؤية منامية. فقد ذكر الشعراني أنه لما تزوج مكثت زوجته معه بكرًا خمسة أشهر إلى أن جاء البدوي وأخذهما إلى مسجده، ومكَّنه من إزالة بكارتها داخل ضريحه وفوق ركن القبلة: «ولما دخلت بزوجتي فاطمة أم عبد الرحمن، وهي بكر مكثت خمسة شهور لم أقرب منها، فجاءني البدوي في المنام وأخذني وهي معي، وفرش لي فرشاً فوق ركن القبلة على يسار الداخل، وطبخ لي حلواء، ودعا الأحياء والأموات إليه، وقال: أزل بكارتها هنا؛ فكان الأمر تلك الليلة». فالشعراني هنا يخبرنا أن السيد البدوي الذي مات قبل الشعراني بقرنين ونصف قرن جاء إليه من قبره في طنطا إلى باب الشعيرية.

وروى الشعراني الكثير من الخرافات أو الكرامات كان الجنس يغلف معظمها، ومنها: تلك القصة التي رواها عبد الصمد الأحمد في كتابه (الجواهر السنوية) فيها أن شخصاً راود امرأة عن نفسها في ضريح عبد العال الملحق بضريح البدوي، فقام عبد العال صاحب

الضريح بتسمير الرجل؛ فتاب وأصبح من الصوفية. وكان زيارة الضريح تنعش الرغبة الجنسية، ولذلك قام السلطان المملوكي جقمق بإلغاء مولد البدوي ٨٥١ هـ.

ويقول السخاوى في كتابه (التبر المسبوك) إنه عندما أبطل السلطان جقمق مولد البدوي أقام شخص يُدعى (رمضان) المولد في موقع قريب من المحلة الكبرى، ووقع فيه انحلال خُلقي كبير.

لم يقتصر الأمر على الشعراني، ففي كتاب (روضة المحبين) لابن القيم، نقرأ أن الإمام الليث بن سعد، كان إذا أراد الجماع خلا في منزل في داره، وارتدى ثوبًا يقال له (الهركان)، فإذا لبسه علم أهل الدار أنه يريد أمرًا، وكان إذا غشي أهله يدعو قائلًا: «اللهم شد لي أصله، وارفع لي صدره، وسهّل عليّ مدخله ومخرجه، وارزقني لذته، وهب لي ذرية سالحة تقاتل في سبيلك»، وكان يقول ذلك بصوت جهوري يكون مسموعًا.

فهل نصدق هذا الافتراء على الإمام الفقيه المحدث الليث بن سعد إمام أهل مصر في زمانه؟!

كما يذكر المناوي أن الجنيد قال: أحتاج إلى الجماع كما أحتاج إلى القوت، فالزوجة على التحقيق قوت وسبب لطهارة القلوب.

# الفصل السابع عشر

## الشعراني وشيخه وتلميذه

يروى لنا المناوي، وهو تلميذ الشعراني، أن رعاية التصوف آلت بعد الفتح العثماني إلى رجلين يُمثَّلان معسكرين؛ الأول: معسكر التصوف العلمي الرباني، ويُمثِّله الشعراني. والثاني: معسكر الأدعياء الجهلة، ويُمثِّله محمد كريم الخلوتي.

ويقص المناوي قصة اللقاء بين الرجلين، وملخصها أن الشعراني قال للخلوتي: «إنك لا تصير صوفيًا بغير علم». فطلب منه الخلوتي أن يُعلِّمه، لكنه عاد ليسخر منه ويقول للناس: «إن الشعراني يريد أن يجعلني فقيهاً وأنا صوفي».

لكن كلام المناوي بالتأكيد قد يجعلنا نشعر بالحيرة، فالشعراني الذي أنكر جهل الخلوتي اتخذ هو نفسه شيخًا أميًا لا يعرف القراءة والكتابة كان يدعي (على الخواص). كما أن الشعراني نفسه ادعى اتصاله بعالم الجن وقدرته على هزيمته والتغلب عليه ونسب لنفسه ولغيره من الأولياء كرامات غير معقولة وغير مقبولة، جعلت البعض يعتبر كتابه الطبقات موردًا للخرافات.

ولعلنا نبدأ بالحديث عن عبد الوهاب الشعراني نفسه الذي عُرف ميدان باب الشعرية باسمه بعد أن كان يعرف بـ(ميدان القنطرة).

حسب معظم المراجع؛ فإن الشعراني من مواليد عام ١٤٩٢ م في قرية قلقشندة، وبعد ولادته بأربعين يومًا صحبتته والدته إلى قرية والده المعروفة بساقية أبي شعرة ومنها جاء اسمه الشعراوي، وجمهور المؤرخين يكتب اسمه بالنون، رغم أنه كتب لقبه (الشعراوي) على عدد من كتبه. بعد أن حفظ القرآن الكريم انتقل وهو ابن الثالثة عشرة إلى القاهرة

ليتعلم على يد مشايخها. وأضاف الشعراني إلى نسبه أنه من أبناء الملوك الذين يمتد نسبهم إلى محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب.

احترار الباحثون في تقييم مواقف الشعراني، فمنهم من رآه مصلحًا لحركة التصوف، وأنه حين رأى أتباع بعض الطرق الصوفية في عصره قد حادوا عما جاء في الكتاب والسنة، أفتى بخروجهم على شريعة الله، وأنه بين الفوارق بين الأخلاق الصوفية المثالية ومواكب المتصوفين المرتزقة. ورأى أنصار هذا الفريق أن بعض الأقوال قد دُست عليه، مستشهدين بما قاله الشعراني: «ومما منَّ الله به عليَّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا عليَّ في كتبي كلامًا يخالف ظاهر الشريعة، وصاروا يستفتون عليَّ زورًا وبهتانًا ومكاتبتهم لباب السلطان، ونحو ذلك».

وقيل إن الفقهاء إلى جانب أدعياء التصوف، حاولوا الوشاية به عند السلطان، وحاولوا قتله بالسم، إلا أن السم قتل تلميذه المناوي.

لكن هذا الدفاع لا يصمد كثيرًا أمام ما تمتلئ به مؤلفات الشعراني من كرامات نسبها لنفسه ولغيره ورؤيته للأولياء في منامه، ودعوتهم له لزيارتهم، فهو يزعم أن إبراهيم الدسوقي جاء له في المنام، وخلع عمامته فألبسها إياه وطلب منه التدريس في المسجد النبوي.

ويقول الشعراني إن شيخه الخواص جاءه في المنام، وأخذ يُقبَّل باطن رجله، ويقول الشعراني: وأنا حريص على منعه من ذلك، ثم غلبني في غفلة وقبَّل باطن رجلي، فاستيقظت ونعومة فمه في باطن رجلي.. وتكررت مناماته وحديثه عن تقبيل اليد والخضوع بين يدي الولي، فكان هو من كرس تلك العادات.

\*\*\*

بعض الباحثين قالوا إن الشعراني رفض فكرة الولي أو الشيخ الجاهل. وهي فكرة طرحها أقطاب التصوف، فقالوا بتفضيل إيمان العوام لسبق التقوى على العلم، متخذين من قصة

الخضر n مع النبي موسى n مثلاً ودليلاً، حتى اشترطت بعض الطرق ألا يدخلها أصحاب العلم الظاهري، وقصر أتباعها على العوام غير المتعلمين.

ورغم حديث البعض عن رفض الشعراني لتلك الفكرة، فإنه يعترف أنه من بين الـ(٧٠) شيخاً الذين تتلمذ على أيديهم، لا يعرف أحدهم علم النحو، وكان عدد كبير منهم لا يقرءون ولا يكتبون، وأشار إلى أن بعض مشايخه، ومنهم (الخواص)، كانوا لا يقيمون الصلاة؛ لأنهم يؤدونها في الأراضي المقدسة.

وكما يقول بعض الباحثين إن الشعراني الذي عانى من رفض الفقهاء وغضب أهل التصوف، انتهى إلى اختيار دولة الفقراء المتصوفة، فأعلن أن شيخه هو الشيخ الأمي (علي الخواص). وجمع أقواله في كتاب (درر الغواص في فتاوى سيدي علي الخواص).

\*\*\*

تقول الروايات إن الشيخ علي الخواص نشأ في البرلس في أسرة فقيرة لم يكن يقرأ أو يكتب، وإن نسبه ينتهي إلى النبي ﷺ. عمل طواغياً يبيع الصابون والجميز والعجوة، فلما انتقل للقاهرة فتح دكان زبادة، ثم صار يضفر الخوص لعمل الحصر والأقفاص، بل وكان ينزح أكنفة بيوت الخلاء، ويجمع القمامة ويطعم القطط والكلاب في حي الحسينية الذي عاش ومات ودُفن به. وكان يكنس مقياس النيل في كل سنة ثاني يوم نزول النقطة، وينفق على أصحابه في ذلك اليوم نفقة عظيمة ويوزع السكر والحلوى على أصحابه.

ولما تُوفِّي الشيخ أرادوا الصلاة عليه في جامع الحاكم بأمر الله ليدفنوه في مقابر الإمام الشافعي، فاجتمعت فتوات الحسينية وأقسموا بالله أن سيدي علي الخواص لن يخرج من الحسينية وأنه سيُدْفَن في ضريح خاص به، هو زاوية سيدي بركات الخياط التي أنشأها له تلميذه الشيخ رمضان خارج باب الفتوح، وتُوجد حالياً في شارع الخواص بحي الحسينية قسم الظاهر.

## ولكن كيف صار الشعراني تلميذًا للشيخ الخواص؟

تقول الرواية إن الشعراني كلما مر بالخواص، ونظر إلى هيئة الشيخ ولحيته وعمامته وهو يجلس على الحصير يتعجب أن هذا الرجل هو كبير الأولياء في مصر! فكان يقول له: «ما اتخذ الله من ولي جاهلاً يا خواص». وظل على هذا المنوال كلما مر به، حتى قال له الخواص مرة: «بل اتخذه وعلمه يا حمار زينب». فبهت الشعراني؛ لأنه كان يدلل زوجته كثيرًا، وتعجب كيف عرف الخواص ذلك؟! وفي اليوم التالي وقف الشعراني ليصلي بالناس صلاة الجمعة، فلم يجد شيئًا من القرآن في صدره، فقد سلبه الخواص القرآن الذي يحفظه، فأخذ الشعراني يتضرع في نفسه إلى الله ليعفو عنه فيما صدر منه بحق الخواص، وبعد الصلاة ذهب إلى علي الخواص، فخلع عمامته وقبّل قدمه، وقال له: «علمني واقبلني مكان أولادك». فقال له الخواص: «أنت لست بعالم، أما نحن فنأخذ علمنا من الله تعالى بلا واسطة». وطلب منه الخواص أن يتخلص أولاً من كل كتبه ويعود إليه كطالب علم. وقدم إليه أوراها ليقراها، فرأى النبي ﷺ في منامه يسقيه، فأخبره الخواص أن يكتب عن النبي ﷺ وعن الأولياء؛ فكتب (الطبقات الكبرى).

وفي رواية أخرى للإمام فخر الدين محمد عثمان عبده البرهاني، أن ابن حجر العسقلاني هو الذي نعت الخواص بالجهل في أثناء مروره ورؤيته الشعراني جالسًا معه. وكان كلما مر عنّف الشعراني قائلاً: «أنت يا شعراني عالم جليل، فكيف تجلس بجوار الدرويش الأمي الخواص؟!». ومرت الأيام وجاء رجل إلى العسقلاني يستفيته في أمر، فحار فيه العسقلاني وطلب من الشعراني أن يأخذ المسألة إلى الخواص فيفتي فيها إن كان وليًا حقًا، ولأن الخواص لا يعرف القراءة والكتابة، فكر الشعراني أن يذهب هو إلى دار الكتب ليبحث المسألة، فإذا به يتفاجأ بلقاء الخواص الذي يخبره أن حل المسألة سيأتيه على يد رجل يلتقيه صباحًا. فإذا به في الصباح يلتقي رجلاً يدعى كوهين مبيض النحاس ويقوم بحل المسألة ويكتب في نهاية الورقة: «ما اتخذ الله وليًا جاهلاً، ولو اتخذه لعلمه يا جحش زينب». فلما قرأ العسقلاني الورقة بكى وحكى للشعراني أن زوجته قد أصابها ألم في قدمها فقام بحملها أمس. واعترف بولاية الخواص، وطلب أن يسامحه، لكن الخواص أصر

أن يأتيه العسقلاني حافي القدمين حاسر الرأس؛ ففطن العسقلاني أن الخواص يريد محو كبريائه، فذهب إليه وصار من تلاميذه.

ويقول الشعراني عن الخواص: «كان له طب غريب يداوي به أهل الاستسقاء والجذام والفالج والأمراض المزمنة... كانت مدة صحبتي له عشر سنين، فكأنها كانت ساعة، كان ٢ له جبة واحدة وشاش صغير على زنط يغسل العمامة والجبة في السنة مرة واحدة بالملح، ويقول: نوفر الصابون لغيرنا من الفقراء، وكانت إذا اشتهدت نفسه الدسم أخذ عظم الأذناب، ثم قطف الدهن وكب ماءها، ثم طبخ به القمح والأرز.. هذا كان لحمه، ويقول الأذنب لا تصيبها العيون، ولا أحد ينظر إليها».

وقيل إن الخواص يرى ذنوب الناس وهو يتوضأ بالصلاة، وكان إذا جلس أمامه أحد عرف ذنوبه منذ ولدته أمه.

\*\*\*

في ضريح الخواص ولي آخر اسمه سيدي محمد أبي البركات الخياط، وهو أحد الذين أخذ عنهم الخواص تصوّفه. صحب الخواص، وقال له: «يا علي، إني سأموت وأنزل إلى ضريحي، فيظل ضريحًا غير مشهور إلا بك؛ فإنك تنزل معي ويُعرّف بك». وهذا ما حدث بالفعل.

أما الخياط فكان يعمل بالخياطة ودكانه بالدرب الأحمر، وكان وجهه شديد البياض المنير، وكأنه قطعة من الشمس، وكان الحكام يهابونه.

وفي الزاوية أيضًا ناصر الدين النحاس، وكان يخبر بوقوع الحوادث والنوازل، ومن أغرب أحواله أنه خرج من باب الفتوح بعد زيارة الحسين، فتوجه إلى المدينة المنورة دون زاد ولا راحلة ولا نعل في قدميه.

ومع الخواص دُفِن عبد الرحمن المجذوب، والذي ترجم له المناوي في طبقاته، وقال عنه الخواص: «ما مثلت نفسي إذا قعدت عنده إلا كالقط بين يدي السبع». كانت إقامته بجوار مiazza المدرسة الكاملية والحجازية في القاهرة.

\*\*\*

ويبدو أن عائلة الخواص عائلة أولياء، ففي نجع حمادي مقام شقيقه محمد الخواص، ويصفه أهل الطريقة السمانية الخلواتية بقطب الغوث. وعائلة الخواص تتكون من ٦ إخوة: علي، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وأحمد، ومحمد.

محمد الخواص ذكره الشعراني في طبقاته، وقال: «إنه من أهل مصر الذين استقبلوا آل البيت، وإن كراماته متعددة، ومنها أنه ما كان لولي أن يدخل مصر إلا بإذنه، ورغم أنه كان أميًّا؛ فإنه أُوتِيَ العلم اللدني، كما أُعطي التصرف في مياه النيل وقضاء الحوائج وتفريج الكرب، وكان له طب غريب يداوي به الناس من أمراضهم».

# الفصل الثامن عشر

## مسجد الرفاعي.. أثر يؤرخ قصة كرامة

مواجهة الحجة بالحجة كانت دافعي ذلك اليوم، حين انتقلت صبيحة يوم الجمعة إلى مسجد الرفاعي، التحفة المعمارية البديعة التي تشكل، مع مسجد السلطان حسن، منظومة من الجمال والرقي والفخامة تسر الناظرين.

هناك داخل المسجد عقب صلاة الجمعة حيث تُقام الحاضرة الأسبوعية لأتباع سيدي الرفاعي.. اقتربت من أحدهم أسأل عن أحد (الرفاعية) المتخصصين في إخضاع الأفاعي، فانبرى لي أحدهم، واتفقت معه على موعد لإجراء حوار نُشر على صفحات مجلة نصف الدنيا بالصور، بتاريخ ١٧ من يونيو ٢٠٠١ ص ٩٤، العدد رقم ٥٩٢، وهذا جزء من الحوار:

ضرب الدبوس والسيف، وأكل الزجاج، وإخضاع الثعابين، مهارات ثلاثة يتبارى بها أتباع الطريقة الرفاعية أو أبناء الرفاعي؛ كما يصفون أنفسهم، وإذا سألت أجاابوا: إنها بركات سيدي الرفاعي. وإذا حاججتهم ردوا: إنها كرامة ولي من أولياء الله الصالحين، وموهبة انتقلت إلى بعض أبنائه المخلصين. ولو تعجبت تعجبوا هم: علّم الإنسان ما لم يعلم!

أما إذا استفهمت: كيف؟ ذكروا لكم العهد الذي يخضع الديب (كل ما يدب على الأرض من حيوانات)، ويهضم الزجاج ويأمن ضرب السيوف.. إنه عهد الرفاعي.

يتفاخر أبناء الرفاعي بمسجد الرفاعي؛ كونه شُيّد بفضل كراماتهم، ويتبارون وهم يحكون قصة الحشد الذي نظمته الأسرة العلوية وضم قناصل الدول الأجنبية ليشاهدوا أعاجيب الرفاعية، فأحضروا صندوقًا به ثعبان من النوع الخطير، وقام شيخ الطريقة آنذاك بفتح

الصندوق، ولمس الثعبان فمات على الفور وتمزق جلده، ثم قام أحد القناصل ومعه زجاجة مملوءة بالسم، وطلب من شيخ الرفاعية تناولها، ففعل ولم يصبه سوء.

يقال إن هذه الواقعة دفعت خوشيار هانم والدة الخديو إسماعيل عام ١٢٨٦ هـ بشراء أرض مسجد الذخيرة وزاوية الرفاعي المواجهة لمسجد السلطان حسن، وأمرت بعمل ضريح لأبي شبك الحفيد السادس للرفاعي الكبير، وبناء مدافن لمن يموت من ذريتها، وأن يُقام في الموقع مسجد لإقامة شعائر الله، ويكون الجامع حول ضريح السيد علي الرفاعي.

وهناك رواية تقول إن زوجة الخديو عباس حلمي الثاني لدغها ثعبان، فلجأ الخديو إلى أحد الرفاعية الذي قام بامتصاص السم من موضع لدغة الثعبان؛ فقرر الخديو منح شيخ الرفاعية ما يريد، فطلب تشييد مسجد كبير للرفاعية، فقرر الخديو استكمال أعمال بناء المسجد الذي أمرت بإنشائه خوشيار هانم وتوقف لمدة ٢٥ عامًا؛ بسبب الضائقة المالية التي مر بها ابنها الخديو إسماعيل. وتم افتتاح مسجد الرفاعي للصلاة يوم الجمعة في غرة محرم (١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م).

وبينما يُعد مسجد الرفاعي قبلة محبي سيدي الرفاعي، فإنه أيضًا قبلة الزائرين لرؤية مقابر الأسرة الملكية التي تضم ضريح الخديو إسماعيل، ووالدته، وزوجاته، وأولاده، والسلطان حسين كامل، وزوجته، والملك فؤاد، والملك فاروق، وشاه إيران محمد رضا بهلوي.

ورغم أن شيوخ الطريقة الرفاعية منعوا ضرب الدبوس وإخضاع الأفاعي في الموالد، فإن بعض المريدين ما زالوا على اعتقاداتهم.. وهذا حوار مع الشيخ صالح نائب الطريقة في قسم المعادي - البساتين..

- ما الذي يربط بين الطريقة الرفاعية كونها منهجًا صوفيًا وبين القدرة على إخضاع الثعابين؟

أبناء الرفاعي وحدهم يستطيعون ذلك، وعلى فكرة؛ الرفاعي لا بد أن يكون متزوجًا حراً عاقلاً، وهذا لأن الرفاعية معهم العهد، وأنا حصلت على العهد من الشيخ مصطفى علي نور الدين، أحد أنصار الرفاعي الذين «يحوون» الثعابين في منطقة المشاودة الغربية بمركز جرجا محافظة سوهاج؛ حيث يمتلكون مندرة خاصة للثعابين يربونها فيها.

#### • لماذا؟

لأنها بركة سيدي الرفاعي.

#### • ولماذا أبناء الرفاعي تحديداً يمتلكون تلك المهارة؟

حكمة الله، فكما أعطى الرسول ﷺ موهبة وكرامة الشفاعة للأمة يوم القيامة، أعطى سيدي أحمد الرفاعي هذه الكرامة، فلكل عالم شفاعة من الله، حتى الوالدين في المنزل لهم شفاعة.

#### • ما العهد؟

العهد أحصل عليه من الشيخ الذي نتبعه في المنطقة، وهو أن أعاهد الثعبان ألا أؤذيه، وألا يتعرض لي، فالرفاعي شخص «محوي»؛ أي أن الثعبان لا بد أن يعضه في أذنه ويردد الرفاعي وقتها: «عاهدتك بعهد الله وعهد النبي وعهد الرفاعي ألا أخون العهد، والله على ما أقول وكيل».

ويردد الشيخ الذي يقوم بعملية الحواية: «شهد الله وملائكته وكتبه ورسله والحاضرون من خلقه حويتك من الحية والثعبان والدبيب، كما أطاع السيد الرفاعي عض على سنة واحدة».

#### • طبعا الثعبان منزوع سمه؟

لا طبعًا.

• **يا سلام! يعني الثعبان يعض الإنسان ويسمه ولا يموت؟**

لأنها معاهدة، والثعبان يعضه بسنة واحدة.

• **وعملية الحواية تتم في سن معينة؟**

لا، ليس شرطًا، أنا حاوي في منطقة البساتين حوالي ٢٠٠ طفل و٢٠٠ فتاة صغيرة.

• **هل هناك شروط في الشخص المحوي؟**

الشخص المحوي لا يقتل ثعبانًا أو عقربًا، فقط يناديه؛ لأنه عاهده، وفي سورة النور يقول الله تعالى: «وعاهدناهم بالعهد إن العهد كان مسئولًا».

**ملاحظة:** الآية ليست في سورة النور، ولكن في سورة الإسراء، والآية الصحيحة:

{ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤ }

(سورة الإسراء، جزء من الآية: ٣٤).

• **هل بمجرد حصول الشخص على العهد يستطيع أن يخضع أي ثعبان؟**

لا بالطبع، ولا يمكن ذلك إلا بعد فترة قد تستمر ١٥ سنة؛ لأن هناك مرحلة مراودة؛ أي: أصحاب الشيخ الذي أعطاني العهد، ولا بد أن يكون قلبي شفافًا مملوءًا بتقوى الله.

• **وما القسم الذي تستخدمه لنداء الثعبان؟**

«بسم الله الرحمن الرحيم.. يا سببي إذا مُنعت الأسباب، يا جوابي إذا عُسر عليّ الجواب، يا عزوتي إذا جفوني الأحباب، أقسمت عليك أيها الديب أن تحضر وسمك يغيب بإذن الحي القيوم، وبسر النبي، وبسر سيدي وأستاذي أحمد الرفاعي ساكن التابوت أسهجت (اشتدت) أنوار الله، قد أبهجت بسر النبي موسى، وأجملك جبريل

n إذا أردت الأذى فلا تؤذي، وإن كنت خائفًا فلا تخف، وإن كنت خائفًا فلا تخن، احضر بحق مَنْ قال للشيء كن فيكون، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون».

• **إذا قرأت القسم لن يؤذيك الثعبان، مهما بلغت درجة خطورته؟**

حتى لو عضني الثعبان أمسك ريقه مكان لدغته، وأقول: «حابس» ثلاث مرات، وأقرأ سورة الناس ثلاث مرات.

• **إذا افترضت معك أن الرفاعي كانت له قدرة إخضاع الأفاعي، فهي كرامة ولي؛ فكيف انتقلت إلى أتباعه؟**

هي كرامة لا مقدرة، فلا مقدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، لكن أتباع الرفاعي أخذوها بالمذاكرة.

• **وتتخذونها كونها مهنة؟**

لا طبعًا، أنا أمسك الثعابين خدمةً لوجه الله، وحتى إذا منحني أحدهم أجرًا أتبرع به للأيتام والمحتاجين.

# الفصل التاسع عشر

## شيوخ النساء جلب الحبيب وخلفة الولد

النساء يتفوقن على الرجال في الإيمان بالأولياء وكراماتهم، ودوافعهن في ذلك تكاد تكون واحدة: التخلص من العنوسة، أو الرغبة في الإنجاب. وهناك شيوخ تخصصوا -وفق الوجدان الشعبي- في حل مشكلات النساء، أشهرهم على الإطلاق: سيدي أبو السعود الجارحي الذي أضحى مقامه، القريب من جامع عمرو بن العاص، علامة من علامات القاهرة، وأصبحت البقعة التي يُوجَد بها تُعرَف باسم (خارطة أبو السعود).

وفي خارطة أبي السعود العديد من بيوت الزار التي تكمل المهمة، فبعد زيارة ضريح الشيخ يكون اللجوء إلى الزار ضرورة وطقسًا متبعًا لتخلص المرأة من كل ما يملأ نفسها من هموم.

ذات صباح قبل أن أتوجه إلى ضريح سيدي الجارحي، سألت أحد المارة عن تلك البيوت، فأشار إلى إحداها، فلما دخلت وجدت ساحة فسيحة مفروشة بالحصر في مبنى قديم. قابلت الكودية (وهي من تدير الزار)، وأوهمتها أنني أعاني بسبب عدم اكتمال أي مشروع زواج، فنظرت إليّ طويلًا، وأمسكت كفي، وهزت رأسها بثقة، وكأنها وجدت (التايهة)، وقالت: «إنتِ مربوطة». ثم طلبت مني أن أقوم بشراء منديل أبيض، وأضعه تحت إبطي؛ لتعرف سبب الربط الذي أعاني منه، وحتى يتم المراد من رب العباد ببركة سيدي الجارحي.

فعلت كل ما طلبته مني، وجلست في الحلقة أراقب السيدات اللاتي قمن يتمايلن على إيقاع الدفوف المنتظم، علامات الارتياح التي كانت تبدو على النساء بعد الزار كانت علامة استفهام كبيرة بالنسبة لي، لكنها تبددت بعدما اتصلت بخبير في الطب النفسي، فقال لي إن

الزار كونه مجهودًا بدنيًا يخلص الشخص من الضغوط النفسية؛ فيشعر بعدها بالارتياح تمامًا؛ كما أصبحنا حاليًا نمارس رقصة الزومبا أو غيرها من الأنشطة البدنية التي أثبت العلم الحديث أنها وسيلة فعالة لعلاج الاكتئاب، وأن ممارسة الرياضة نصف ساعة ثلاث مرات أسبوعيًا علاج بديل عن أدوية الاكتئاب في بعض الحالات.

تركت بيت الزار إلى ضريح سيدي أبي السعود الذين يسمونه بـ(طبيب المبالي)، فالكل يأتيه وقد ابثلي ويعود وقد رضي. وعند الضريح تحكي إحدى النساء عن أسطورة الإبريق الفخار الذي تحول إلى ذهب ببركة الشيخ، وتحكي ثانياً كيف شفى الشيخ طفلها، وتقسم ثالثة أنها أنجبت ببركة الشيخ.

في كتب التراث، يُعدّ الشيخ أبو السعود من شيوخ المتصوفين في القرن العاشر الهجري.. ويقول الشعراي: «لا نعرف من أين أتى أبو السعود؟ وهل هو مصري الأصل أو النشأة فقط؟ بل إننا لا نكاد نعرف شيئًا عن طفولته أو شبابه المبكر، ولكننا التقينا به عندما اكتملت شخصيته، وكثرت مكاشفاته، وأصبح له مريدون وأتباع».

يروى ابن إياس أن طومان باي ذهب إلى أبي السعود يستخيره في أمر تولي كرسي السلطنة، فأخذ طومان باي يتعلل، لكن الشيخ أمره بقبول السلطة. وكانت للشيخ سلطة في عهد طومان، ومنها ما حدث مع أحد باعة الجلود الذي أراد الزيني بركات محتسب القاهرة القبض عليه، فلجأ الرجل للشيخ ليحتمي به، فلم يلتفت الزيني إلى رسالة الشيخ، فبعث له الشيخ يطلب حضوره، فلما جاء وبخه، فحنق منه الزيني، فأرسل الشيخ إلى الأمير إعلان الداودار الكبير، فلما حضر قال له ضعه في الحديد وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذي المسلمين، فأرسل إليه السلطان يقول: افعل فيه ما شئت. فأمر الشيخ بإشهاره في القاهرة وشنقه على باب زويلة، ولكن الأمير إعلان أخبر الشيخ في أن عليه دَيْنًا ومالًا للسلطان يضيع بشنقه؛ فعفا عنه الشيخ من القتل وأبقاه في الحديد، ولكن الناس أنكروا على الشيخ تلك المعاملة القاسية التي اتبعها، حتى أفرج عنه وفُكَّت قيوده.

لا يدري أحد من تفتق ذهنه عن هذه المعجزات التي أُلصقت بالشيخ من قدرته على علاج العقم. ومن يومها والسيدات يفدن إليه من كل صوب نهار الثلاثاء؛ حيث تُقام الحضرة الأسبوعية؛ التماسًا لبركته وانتصارًا لكراماته، ولا ينازعه في الشهرة سوى سيدي حسن الأنور بالقرب من حي المدبح الشهير. أما اختيار يوم الثلاثاء موعدًا للحضرة الأسبوعية، فربما لأنه يوافق يوم وفاته، وربما -كما يقول إدوارد لين- لأن المصريين كانوا يعتقدون أن الثلاثاء يوم منحوس، ويُسمى (يوم الدم)؛ إذ يقال إن عدة شهداء قُتلوا في هذا اليوم. ولعل أكثر القصص التي تثير الحنق قصة المرأة العاقر التي خشيت من هجر زوجها لها فخصى نفسه؛ كي يطمئنها إلا أنها تُشفي، فيهيم زوجها على وجهه حتى يلقي الشيخ أبا السعود الذي يصنع له عضوًا ذكوريًا من الطين؛ فيستعيد الرجل رجولته، ويتمكن من الإنجاب. فأين أبو السعود من هذه الخرافات وهو القائل: «لا تجعل لك مريدًا ولا زاوية، وفر من الناس؛ فهذا زمن الفرار»؟!

وهو القائل أيضًا: «إني من حين عملت شيخًا في مصر في سبع وثلاثين سنة، ما جاء لي قط أحد يطلب الطريق إلى الله تعالى، ولا سأل عن شيء يقربه إلى الله، وإنما يقول: أستاذ ظلمني، أو امرأة تناكدني، وجارتي هربت؛ فكَلَّت نفسي من ذلك».

وقد مات الشيخ (٩٣١ هـ - ١٥٢٥ م)، ودُفن بزاويته في السرداب الذي كان يتعبد فيه.

\*\*\*

على بعد خطوات من مسجد سيدنا الحسين قبلة أخرى للسيدات الراغبات في الزواج والإنجاب إلى جانب الشفاء من الأمراض.. هذه القبلة هي ضريح (أم الغلام) الموجود أسفل المسجد المعروف بجامع أم الغلام في شارع يحمل الاسم نفسه، ويقال إنها امرأة مسيحية رأت رأس الحسين في معركة كربلاء؛ فضحت بابنها، وقطعت رأسه لتضعه مكان الإمام الشهيد، ثم أتت برأس الإمام إلى القاهرة (علمًا بأن القاهرة لم تكن قد شُيّدت بعد، وهناك فارق ٤ قرون بين موقعة كربلاء وتأسيس جوهر الصقلي للقاهرة). ورويت الرواية بشكل آخر، فقيل إنها سيدة قبطية مصرية دخلت الإسلام، وسميت فاطمة، وأنها خطفت

رأس الحسين من مسجد الصالح طلائع بالدرب الأحمر، والذي بُني خصيصًا ليُدْفَن فيه الرأس الشريف، فلما علمت بقدوم أشخاص لسرقة الرأس الشريف سرقته وخبأته في منزلها، وعندما علموا بمكانه قطعت رأس ابنها وأعطته لهم. لكن القصة المكتوبة على جدران المقام تشير إلى أن فاطمة أم الغلام هي زوجة الإمام الحسين الفارسية (شهريناز بنت يزدجرد) إحدى بنات كسرى ملك الفرس التي زوجها الإمام علي h لابنه الحسين h في حضور الخليفة عمر بن الخطاب h، والتي غيرت اسمها بعد الإسلام إلى فاطمة، وأنجبت الإمام علي بن زين العابدين الملقب بـ(علي الأصغر)، لكن التاريخ المكتوب على جدران المقام، والذي يشير إلى أنها دُفِنَت (٧٠٢ م)، يتناقض مع حقيقة أن الحسين h لم يتزوج شهريناز إلا عقب معركة نهاوند (٦٤٢ م)؛ أي بفارق ٦٠ عامًا.

\*\*\*

الرغبة في الإنجاب طالما كانت الهاجس الأكبر لدى الشعب المصري الذي يرى الخلف عزوة.. ولم يكن الدوران حول تمثال رمسيس الثاني في ميت رهينة أو زيارة جامع البنات هو كل ما يملكه المصريون.

كان هناك، وحتى وقت قريب، تقليد زيارة الآبار الفرعونية من واقع أن الكهنة كانوا يتطهرون في تلك الآبار الموجودة في كل المعابد المصرية، وكانت النساء يحرصن على زيارة مومياء طفل ترقد في صندوق عرض زجاجي داخل مقبرة فرعونية بمنطقة وادي الملكات، وبئر فرعونية في معابد هابو الأثرية غرب الأقصر، وبحسب الروايات؛ فإنه في معابد هابو توجد بئر مخيفة تعارف الناس على تسميتها (بئر الخضة)، وإذا أراد الإنسان مشاهدة هذه البئر؛ فإنه يدخل من باب البئر ثم ينزل سلمًا نبت على جانبيه نبات الحلف، ثم يواجه عند آخر عتبات السلم بالماء الراكد، وهذه البئر مغطاة كلها بالأحجار، وتوجد فتحة في سقف البئر يتسلل منها شعاع نور يبدد بعض ظلامها المرعب، وفي شقوق تلك البئر تعيش الخفافيش الكبيرة.

بئر أخرى تعالج العقم، لكنها هذه المرة في القاهرة، يُقال لها ضريح راكب الحجر، ويُقال إنها لسيدي محمد راتب الحجر الذي طار بقبوره ليختار موضعه الحالي ويحط فيه. تؤمن النساء أن الدوران حول البئر ٧ مرات من شأنه أن يساعدهن على الإنجاب.

في حين تلجأ أخريات إلى (الكحرية)، وهي الذهاب إلى منحدرات جبلية، في محيط أضرحة الأولياء، مثل: الشيخ عابد القرنة في الأقصر، والشيخ النجار أبو علي في أسوان، وغيرها؛ حيث تقوم النساء والفتيات بتترك أجسادهن تتدحرج (تتكحرت) من أعلى المنحدر الذي يكون أمام ضريح الشيخ، حتى تصل إلى نهاية المنحدر وهي تتدحرج في صورة دائرية.

\*\*\*

في الزقاق الصغير المجاور لمسجد السيدة نفيسة، والذي نصل من خلاله إلى مدخل السيدات لمقصورة السيدة نفيسة، توجد قبة سيدي الحناوي الذي تأتيه النساء للتبرك بالحناء السحرية الملوخة لُقبة مقامه؛ كي ينجبن أو يتزوجن أو تشكو إحداهن من هجر زوجها.

### وَمَنْ سِيدِي الْحَنَاوِي؟

لا ذكر له في مرجع أو كتاب.. فقط روايات المريدين الذين يزورون المقام، وتشير إلى أنه جاء من القليوبية مع السيدة نفيسة.. لا أحد يعلم سر ارتباط ذلك الشيخ بالحناء، لكن العادة والظن المتوارث أن مَنْ تريد جلب الحبيب أو العريس؛ ما عليها إلا أن تأتي بالحناء وتضعها على قُبَّة الشيخ المبروك.

\*\*\*

عتبة العوانس والمطلقات

«يا سيدي العتريس هات لي عريس».. عبارة تسمعتها من آلاف النساء اللواتي قصدن قُبَّة الشيخ لتحقيق ما تصبو إليه أنفسهن، لكن الشيخ عتريس مخصص في يقين الوجدان الشعبي للعوانس والمطلقات، ولا أدري مَنْ زرع تلك الفكرة في الوجدان الشعبي؟ وكيف حوّل شيخًا عالمًا ومناضلًا إلى شيخ لفك العنوسة وفك كرب المطلقات؟!

أما ضريح الشيخ فليس بمفرده، بل يجاوره ضريح آخر للشيخ عيدروس والضريحان المتلاصقان يقعان في حرم مسجد السيدة زينب، وقد تم تجديدهما في عهد والي مصر سعيد باشا، وسُجّلت عملية التجديد في لوحة رخامية كُتِب عليها:

شاد سعيد العصر في مصر

خير مقام قد زها مثل العروس

في نور آل البيت تاريخه

كان بناء العتريس والعيدروس

الشيخ عتريس هو العارف بالله محمد العتريس بن أبي المجد بن قريش، وينتهي نسبه إلى زين العابدين بن الحسين، وهو أحد الأشقاء العشرة لسيدي إبراهيم الدسوقي، وقد ورد في رسالة الصبان أن الشيخ عتريس شارك مع أخيه الشيخ إبراهيم الدسوقي في محاربة الصليبيين والتتار مع الصالح نجم الدين أيوب، ثم مع قطز والظاهر بيبرس. وبعد موقعة عين جالوت جاء إلى القاهرة وجاور بالأزهر والتف حوله أصحاب الطريقة البرهامية طريقة أخيه إبراهيم الدسوقي.. وقد أوصى بدفنه في مسجد السيدة زينب الذي طالما كان يتردد عليه في حياته؛ إذ إن نسبه ينتهي إلى زين العابدين ابن أخيها.

أما العيدروس -فكما يقول الجبرتي- هو «وجيه الدين أبو المراحم عبد الله الحسيني العيدروسي التريمي».. وتريم هي بلدة باليمن، وقد وُلِد بها ١١٣٥ هـ، وعاش وتربى فيها.. وفي الخطط التوفيقية أنه نشأ على عفة وصلاح في حجر والده وجده في تريم باليمن،

وأجازاه وألبساه الخرقة، وفي سنة ١١٥٣ هـ؛ أي وهو في الثامنة عشرة من عمره، توجه في صحبة والده إلى الهند، فنزلا بمدينة بندر الشجر، فاجتمع بالكثير من رجال الدين والفقهاء من ذوي قرابتهم ممن يرجع أصلهم إلى العيدروسية، فأجازوه إجازة مطلقة.. بعد جولة في الهند سافر إلى مكة المكرمة، فأخذ عن شيوخها، ثم جاء إلى القاهرة وهو في السادسة والعشرين من عمره، حيث زار آل البيت، وكتب فيهم القصائد التي جمعها في ديوانه المعروف بـ(رحلة العيدروس).. ثم عاد إلى مكة فتزوج وأنجب، ثم عاد إلى مصر مع أسرته واستقر بها، ليعاود زيارة الأولياء في طول مصر وعرضها، وقيل إنه حج سبع عشرة مرة.

ولأنه كان منقطعاً للعبادة أمر تلميذه مرتضى أن يجمع أسانيده في كتاب، فألف باسمه كتاب (النفحة القدسية).. والذي جاء فيه عن الشيخ: «ولم يزل يعلو ويرتقي إلى أن تُوفِّي سنة ١١٩٢ هـ، وخرجوا بجنائزه من بيته بقلعة الكباش إلى دكة الأزهر، حيث صُلِّي عليه صلاة الجنائز، وكان الإمام الشيخ الدرديري حاضرًا، ودُفِنَ بمقام ولي الله تعالى الشيخ عتريس».

\*\*\*

في مدينة بنها يُوجَد ضريح الشيخ يسري على طريق كلية التجارة، يقصده سكان عاصمة القليوبية، والطبقات الراقية؛ من أجل فك العنوسة والعقم.

وفي الشرقية ضريح الشيخ أبو العرايس الذي تقول الرواية إن له بنتين تزوجتا، فهنأه الناس بزفافهما، فقال لهم: «بكرة تعزوني». وفي الصباح ماتت البنتان؛ فاعتقد الناس في كراماته.

\*\*\*

مقام السبع بنات في القاهرة يرجع إلى العام ٤٠٠ هـ، وبحسب المقريري فإن الحاكم بأمر الله أمر بإعدام ٧ شقيقات صالحات عقاباً لوالدهن. وبعد ذلك ندم الحاكم، فبنى لهن ٧

مقامات بقباب. وفي بني مزار بالمنيا مقام آخر يحمل الاسم نفسه يخص النساء اللواتي  
شاركن في فتح البهنسا التي كانت مستعصية على جيش المسلمين.  
وكلا المقامين مشهوران بأنهما أماكن مباركة لجلب العريس والولد.

# الفصل العشرون

## جبل المقطم موطن المتصوفة ومعجزة القديس

هنا مرقد الزهاد والمتصوفة والصحابة الأوائل، هنا غراس أهل الجنة، وقباب أضرحة الأولياء الصالحين والأئمة الأجلاء وأكابر العلماء، وصمت القبور الذي لا يثير الوحشة، بل السكينة.

على مدد البصر تتمدد تلك القبور منذ قرون على امتداد سفحه، وكأن من فيها يحتمون بظله وظلاله، أو كأنه هو يشرف على عالم الموتى وينظم شئونه.

إنه جبل المقطم الذي ظل العامة لسنوات طويلة يعتقدون أن من يدفن في سفحه يذهب إلى الجنة دون حساب، واختاره الزهاد والمتصوفة ملجأً يهيمن فيه مع الله، فسكن ابن الفارض وادي المستضعفين، ولجأ ابن الفقاعي الرجل الصالح إلى وادي الدجلة، ووجد البكتاشيون الأتراك ملاذهم في مغارة كهف السودان. وكانت أودية الجبل (الملك، واللبلاية، وهكس، و...) مقصدًا للمتصوفين الذين تحدثوا عنها في تراجمهم.

وكما اختاروه أنسًا وألفة، فضّلوه مرقدًا؛ فأصبح المقطم يشرف على مقابر الزهاد والمتصوفة الذين أتوا مصر من كل صوب وحذب، وكأنه يقف حاميًا أو حارسًا لرفاتهم.

\*\*\*

كان من أهم الروايات الواردة في كتب التراث عن المقطم، تلك التي تقول إن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفح جبل المقطم بسبعين ألف دينار، فكتب بذلك إلى أمير

المؤمنين عمر بن الخطاب h، الذي كتب بدوره إلى عمرو بن العاص يريد أن يعرف سر طلب المقوقس، فكان رد المقوقس:

«إن الكتب القديمة تقول إن في سفح المقطم غراس الجنة، ولما علم الخطاب ذلك قال: أنا لا أعرف من غراس الجنة إلا المؤمنين، فاجعلها مقبرة لمن مات قبلك من المسلمين».

ومن الروايات التي يذكرها مؤرخو العصور الوسطى حول سبب تقديس مسيحيي مصر لجبل المقطم ورغبة المقوقس في شرائه، الرواية التي ذكرها القضاعي، وهي أن سيدنا عيسى n مر هو وأمه السيدة مريم (رضي الله عنها) على هذا الجبل. فقالت له أمه: يا بني، مررنا بجبال كثيرة ما رأينا أكثر أنوارًا من هذا الجبل. قال: يا أماه، يُدفن هنا أمة من أمة أخي أحمد، فهذا الجبل غراس الجنة ورياضها.

ويقول الكندي في (فضائل مصر): «إنه لما أبلغ ابن العاص المقوقس برد عمر بن الخطاب حول الاحتفاظ بجبل المقطم وعدم بيعه، قال له المقوقس: ما على هذا صالحتي. فقطع له عمرو قطيعًا نحو بركة الحبش (جنوب مصر القديمة) يدفن فيها النصراري».

أما الصحابة الذين فتحوا مصر، فقد دُفِنوا في سفح المقطم، وفي مقدمتهم عمرو بن العاص. وقال السيوطي: ذكر عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن حدثه: قبر فيها ممن عرفنا من أصحاب الرسول ﷺ خمسة نفر: عمرو بن العاص، وعبد الله بن حذافة السهمي، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي، وأبو بصرة الغفاري، وعقبة بن عامر الجهني. وقال: غير عثمان، ومسلمة بن مخلد الأنصاري.

بالإضافة إلى رواية المقوقس التي ذكرها الإمام الليث بن سعد، يذكر ابن الزيات في كتابه (الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة) أن جبل المقطم كان أكثر الجبال أنهارًا وأشجارًا ونباتًا، فلما كانت الليلة التي كلم فيها الله e موسى n، أوحى إلى الجبال أني مكلم نبي من أنبيائي على جبل منكم، فتناول كل جبل إلا جبل طور سيناء تواضع وتصاغر، فسأله e: لم فعلت ذلك، وهو به أعلم؟ قال: إجلالاً لك يا رب. فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن يوجد كلُّ

منها بشيء مما عليه. أما المقطم فقد جاد بجميع ما عليه من الشجر والنبات والمياه، فصار أقرع، فقال له e: لأعوضك عما كان على ظهرك ولأجعلن في سفحك غراس أهل الجنة. وهي رواية لا تُوصَف سوى بأنها خزعبلات لا تنتمي إلى منطق، وليس لها أي سند عقلي.

\*\*\*

إلى جانب روايات تقديس الجبل أُطلقت روايات أخرى حول سر تسمية الجبل، فيقول المقريزي: «إن مصراييم ملك مصر أراد استخراج معدن الذهب والزربرد والفيروز وغير ذلك من المعادن الموجودة في مصر بطريقة الصنعة (أي الكيمياء)، بجعل أمرها إلى رجل يُقال له مقيطام الحكيم كان يعمل في الكيمياء في الجبل الشرقي؛ فسُمِّي به واختُصر من اسمه، وبقي ما يدل عليه، فقليل له جبل المقطم. على أن جمهور العلماء ذكروا أن المقطم مأخوذ من القطم، وهو القطع، فكأنه لما كان منقطع الشجر، والنبات سُمِّي مقطماً».

وفي بعض العصور أفتى بعض العلماء بضرورة هدم كل ما بُني من مبانٍ ومساكن في سفح المقطم؛ باعتبارها مقبرة أوقفها عمر بن الخطاب h على المسلمين، وحاول بعضهم إقناع الملك الصالح بذلك، فقال: «أمر فعله والدي لا أزيله».

ثم حاولوا مع الظاهر بيبرس، فعزم على هدمها بعد أن استفتى العلماء، لكن الملك الظاهر سافر إلى الشام، فلم يرجع، ومات به.

ملجأ المتصوفة ومحتضن رفاتهم

بدا لي جبل المقطم هذا الصباح مختلِّقاً وأنا أقترِب منه، وفي رأسي السطور السابقة التي انتقيتها من كتب التراث، وكلي شغف لزيارة غراس أهل الجنة الصالحين. انطلقت خطواتي الأولى من صحراء المماليك في البقعة المجاورة لمسجد السلطان برقوق؛ حيث كان الدليل في انتظاري. كان أول ما زرنا ضريح السادات الوفاية، وفيه عدد من أضرحة عائلة السادة

الوفائية من الأقطاب والعلماء المتصوفة، وبجواره مجموعة من المخازن وأمتعة الوقف وقاعة تُقام فيها أسمطة (موائد) الموالد.

كان الشيخ محمد النجم جد الأسرة الوفائية مغربي الأصل، ونزح إلى ثغر الإسكندرية في شبابه، والتقى القطب إبراهيم الدسوقي، وفي المدينة وُلد محمد وفا ونشأ ورعاً تقياً، وتذكر كتب التراجم أنه سُمِّي وفا لأن النيل توقف، فعزم أهل مصر على الرحيل، ف جاء محمد وفا إلى النيل، وقال: «اطلع بإذن الله تعالى». فطلع ذلك اليوم سبع عشرة ذراعاً وأوفى؛ فسموه وفا. أما عن تسمية أولاده وأحفاده بالسادات؛ فذلك لأن نسبهم ينتهي إلى الأدارسة سكان المغرب أولاد سيدنا الحسن، وقد توجه محمد وفا إلى أخميم، فتزوج فيها ثم سار إلى القاهرة وأقام بالروضة عاكفاً على العبادة، وتوفي ٧٦٥ هـ، ودُفن في القرافة بين ضريح الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر، والشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري؛ كما أوصى، وفي عام ١١٩١ هـ تم بناء المسجد مكان الزاوية، ليحمل اسم الساداتية، وذلك وفق فرمان الذي أصدره السلطان عبد الحميد.

وعلى بعد مئتي متر من جامع السادات الوفائية، وجدت زاوية الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر المتوفى ٦٣٣ هـ، والتي لم يعد موجوداً منها سوى أطلال وبجوارها قاعة بها ضريح الشيخ.

\*\*\*

في البحر الأحمر يُوجد ضريح الشاذلي، وفي الإسكندرية ضريح تلميذه المرسي أبي العباس، وفي سفح المقطم يرقد تلميذهما أحمد بن عطاء الله السكندري صاحب الحكم العطائية، ليُمثّل التصوف المصري في تلك الحقبة التاريخية، وينتمي ابن عطاء إلى قبيلة كعلان التي ينتهي نسبها إلى بني يعرب بني قحطان من العرب الذين وفدوا مصر واستوطنوا مدينة الإسكندرية بعد الفتح الإسلامي، وقد ترك أحمد بن عطاء الإسكندرية إلى القاهرة؛ حيث اشتغل بالوعظ والتدريس بالجامع الأزهر والمدرسة المنصورية التي

أنشأها المنصور قلاوون في حي الصاغة، وقد كان ابن عطاء معاصرًا لابن تيمية الذي هاجم الصوفية، فصنف عدة رسائل في الرد عليه.

وفي حوش ابن عطاء الله ضريح كمال الدين بن الهمام، الذي أوصى بأن يُدفن إلى جوار ابن عطاء الله. كان ابن الهمام عالمًا ورعًا زاهدًا محدثًا من مواليد الإسكندرية ٧٩٠ هـ، وقيل وُلِدَ ٧٨٨ هـ، وقيل ٧٨٩ هـ. لما تُوفِّي والده وكان قاضيًا للإسكندرية نشأ في كفالة جدته لأمه، وكانت مغربية خيرة تحفظ كثيرًا من القرآن، جاء بصحبتها إلى القاهرة، فحفظ القرآن وتلقى العلوم، وأقام بحلب مدة، وجاور بالحرمين ثم كان شيخ الشيوخ بالخانقاه الشيخونية بمصر. من أهم كتبه (شرح الهداية في فروع الفقه الحنفي)، وسماه (فتح القدير للعاجز الفقير)، له أيضًا (المسايرة في القصائد المنجية في الآخرة) وتُوفِّي ٨٦١ هـ.

وبجوار ضريح ابن عطاء الله يُوجَد ضريح الإمام العالم عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي، والمُتوفَّى ٦٩٥ هـ، وقيل ٦٩٩ هـ. كان من كبار العلماء المالكيين، وكان عالمًا بالحديث والقراءات. وفي مقبرته مجموعة من العلماء. وبجواره من الناحية البحرية حوش به ضريح الإمام العالم محمد بن سيد الناس أندلسي الأصل، وقد وُلِدَ في مصر ٦٧١ هـ، وكان بارعًا في علوم الحديث والفقه والنحو وعلم السير والتواريخ، وترك كتبًا نفيسة، منها: بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب، والمقامات العلية في الكرامات الجليلة. وتُوفِّي ٧٣٤ هـ.

### • لماذا دُفِنَ سيدي عطاء في مواجهة سيدي عبد الله بن أبي جمرة؟

رأى سيدي عطاء في المنام النبي ﷺ وهو يقول: «أما زرت سلطان المشرق والمغرب؟». فقال له: «يا سيدي، ومن سلطان المشرق والمغرب؟». فقال له حضرة النبي ﷺ: «عبد الله بن أبي جمرة». فلأزمه ابن عطاء أواخر حياته، وأوصى أن يُدفن عنده.. وقيل عن ابن أبي جمرة أن الرسول ﷺ خلع عليه خلعة، فلا يزوره شقي، ولا منافق، ولا عاق لوالديه، لا يزوره إلا السعداء الفائزون.

\*\*\*

خطوات أخرى لنجد أنفسنا أمام ضريح قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد، ويقول الإدفوي إن جده اكتسب لقب (دقيق العيد)؛ لأنه في يوم عيد كان يرتدي طيلسان شديد البياض، فقال بعضهم كأنه دقيق عيد؛ فلقَّب به. تفقه وتعلَّم تقي الدين على يد مجموعة من العلماء الأجلاء، منهم: الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وقد قام بالتدريس في المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل بجوار المشهد الحسيني، ثم المدرسة الناصرية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي بجوار مشهد الإمام الشافعي.

\*\*\*

على بعد خطوات من مسجد ابن عطاء تُوجَد خلوة السيدة الطاهرة سليمة بيت النبوة، السيدة نفيسة. هنا كانت تتبتل وتتعبد بعيداً عن العالمين. خلوة صغيرة تلجأ إليها، دهنها الأهالي باللون الأخضر وأغلقوا مدخلها. مررنا بها والسيدات قد التففن حولها يكثرن من الدعاء.

ومشينا إلى ضريح العز بن عبد السلام شيخ الإسلام وقاضي القضاة الذي أقام في مصر نحو عشرين عاماً ينشر العلم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، جاء إلى مصر بعد أن منعه الصالح إسماعيل من الخطابة؛ لأن العز أفتى بتحريم بيع أهالي دمشق السلاح إلى الفرنجة، وقد استقبله الصالح نجم الدين أيوب في مصر، وأكرم وفادته وولاه قضاء مصر، وكان في منصبه هذا حريصاً على الحق، ومن المواقف المشرفة التي يذكرها له التاريخ كونه رمزاً للعدل المطلق والدقة في تطبيق أحكام الشريعة هو بيعه لأمرأ المماليك إذا لم يمتلك الواحد منهم صك حرিতে؛ على أن تكون الأموال المدفوعة لصالح الشعب، ولم تزل بقايا ضريحه شاهدة على عمارة القباب في العصر المملوكي.

\*\*\*

أمام قبة الشافعي توقفنا، ها هنا يرقد الفقيه العربي القرشي الذي يلتقي نسبه مع النبي ﷺ في جده عبد مناف، وُلِدَ في غزة بأرض فلسطين ١٥٠ هـ، ونشأ في أسرة فلسطينية فقيرة، ومات أبوه وهو صغير، فانتقلت به أمه إلى مكة؛ لتحافظ على نسبه، فاضطر وهو يطلب العلم إلى الكتابة على قطع الخزف والجلود وسعف النخيل وعظام الحيوانات؛ لضيق ذات يده وعدم قدرته على شراء الورق، وقد حفظ الشافعي القرآن الكريم صغيراً وحفظ الأحاديث النبوية، ونبغ في الفقه، ثم سافر إلى المدينة المنورة قاصداً الإمام مالك؛ ليتعلم منه، وقد لازمه حتى وفاته، وقد سعى لطلب الرزق في اليمن، ثم تفرغ لدراسة العلم والفقه في الحجاز والعراق، وقد ألف كتاب (الرسالة) الذي وضع به الأساس لعلم الفقه، وفي عام ١٩٨ هـ كان موعد الشافعي مع مصر وموعدها معه، وكان آنذاك في الأربعة والخمسين من عمره، وقد قال في اشتياقه لمصر:

لَقَدْ أَصْبَحَتْ نَفْسِي تَتَوَقُّ إِلَى مِصْرٍ

وَمِنْ دُونِهَا أَرْضُ الْمَهَامَةِ وَالْقَفْرِ

فَوَاللَّهِ لَا أُدْرِي أَلِلْفَوْزِ وَالْغِنَى

أُسَاقُ إِلَيْهَا أَمْ أُسَاقُ إِلَى الْقَبْرِ

من العجب أن الشافعي لم يجد قبولاً؛ لأنه كان يحمل أفكاراً مخالفة لأفكار مالك التي كان أهل مصر يعتنقونها، إلا أن حجته القوية فرضت نفسها، وأضحت حلقات درسه عامرة، حتى تُوفِّي الشافعي في مصر ٢٠٤ هـ، ودُفِنَ في القرافة الصغرى، وبنوا على قبره قبةً جددها صلاح الدين، وبنى بجوارها المدرسة الصلاحية التي كانت معقلاً للمذهب الشافعي.

وقُبَّة الشافعي عظيمة في زخرفتها، ويُعد ضريحه أكبر أضرحة مصر على الإطلاق،  
وبه أربع مقابر؛ أولها: للإمام الشافعي، وعليها التابوت الخشبي الذي أمر صلاح الدين  
بصنعه، ويحيط به مقصورة ترجع إلى القرن العشرين، وثانيها: لأم السلطان الكامل،  
أما التابوتان الآخران؛ فأحدهما: للسلطان الكامل حوله مقصورة مطعمة بالصدف،  
والآخر: للسيد محمد بن عبد الحكم، وقد جذبت قُبَّة الشافعي -وهي أول قُبَّة في  
عمارة مصر الإسلامية، مصنوعة من الخشب، ثم كُسيت بالرصاص - العديد من  
الرحالة والشعراء، وعنها قال الإمام البوصيري:

بِقُبَّة قَبْرِ الشَّافِعِيِّ سَفِيْنَةٌ

رَسَتْ مِنْ بِنَاءٍ مُحْكَمٍ فَوْقَ جُلُودٍ

وَمُدَّ غَاضٌ طُوفَانُ الْعُلُومِ بِمَوْتِهِ اسْدُ

تَوَى الْفُلْكَ فِي ذَاكَ الضَّرِيحِ عَلَى الْجُودِي

\*\*\*

توقفت بنا السيارة في رحلة صعود عبر طرق متعرجة في قلب وادي المستضعفين،  
حيث يُشار بالبنان إلى ضريح سيدي عمر بن الفارض سلطان العاشقين، وأشهر شعراء  
الصوفية، الذي ابتغى الوصول إلى مقام الحب الإلهي الذي بلغته رابعة العدوية، التي  
لم تعبد الله خوفاً من النار أو رغبة في الجنة، بل حباً في الذات الإلهية.

ينتهي نسب ابن الفارض إلى قبيلة بني سعد التي انتسبت إليها حليلة السعدية  
مرضعة الرسول ﷺ. جاء والده من حماة في سوريا إلى مصر واستقر بها، وعمل بها  
فارضاً، وهو الذي يثبت فروصاً للنساء على الرجال؛ فعُرف بالفارض، ثم تولى نيابة  
الحكم، وعُرض عليه أن يشغل وظيفة قاضي القضاة، إلا أنه اعتذر لينقطع إلى الله

تعالى بقاعة الخطابة في الجامع الأزهر إلى أن تُوفِّي، وقد عاش ابن الفارض في كنف الدولة الأيوبية، وكان عصره حافلًا بالعلماء والصوفية، فاتصل بالقنائي، والصباغ القوصي، والإمام العز بن عبد السلام، وقد دفعه ذلك إلى التصوف، ورحل إلى الحجاز وظل بها ١٥ عامًا، عاد بعدها إلى القاهرة؛ حيث أقام بقاعة الخطابة في الجامع الأزهر، وقصده الخاص والعام، حتى وافته المنية ٦٣٢ هـ، ودُفِن بالقرافة بسفح المقطم، وضريحه يرجع إلى عهد السلطان برقوق، وتحيط به مقصورة من الحديد والخشب، أما المسجد فيرجع تاريخه إلى القرن الثامن عشر.

ويقول بن الفارض: كنت في أول تجريدي أستاذن والدي وأطلع إلى وادي المستضعفين بالجبل (أي: المقطم)، وآوي فيه، وأقيم في هذه السياحة مدة ليالٍ والها، ثم أعود إلى والدي لأجل بركته ومراعاة قلبه. وكان والدي يومئذ خليفة الحاكم العزيز في القاهرة ومصر (العادل أخو صلاح الدين)، وكان من أكابر أهل العلم والعمل، فيجد سرورًا برجوعي إليه. وكان ٢ يُلزمي بالجلوس في مجالس الحكم، ثم أشتاق إلى التجريد، فأستاذنه وأعود إلى السياحة في وادي المستضعفين بالجبل، وما برحت أفعل ذلك مدة إلى أن توفي والدي، فعدت إلى التجريد والسياحة وسلوك طريق الحقيقة.

\*\*\*

لم أتمكن من الوصول إلى ذلك المسجد الذي طالما استطعت رؤيته في أثناء سيرتي على طريق الأوتوستراد، المسجد الذي شُيِّد مكان خلوة الصوفي الإيراني هشام الخلوتي الذي أتى مصر في عهد السلطان الأشرف قايتباي، ولما لم تُرق له حياة الجندية أعتقه السلطان، فعاد الخلوتي إلى بلاد فارس، وتلمذ على يدَي الشيخ العارف بالله عمر روشني بمدينة تبريز، ثم رجع إلى مصر وصاحب محمد الدمرداش بالعباسية؛ لذا عُرف باسم شاهين الدمرداش المحمدي، فلما مات الدمرداش ترك

العباسية، وسكن جبل المقطم، ولم يزل الشيخ شاهين مقيمًا في خلوته لا ينزل إلى القاهرة نحو ثلاثين سنة، واشتهر أمره، فتردد عليه الأمراء للتبرك به، وكان قليل الكلام كثير السهر، حتى تُوفِّي ٩٠١ هـ. أما مسجده الموجود بسفح المقطم فقد أنشأه نجله جمال الدين مكان الخلوة التي كان يقوم بها والده، ويوجد أسفل المسجد جملة من الخلاوي الصوفية وميضاة ومرافق.

\*\*\*

توقفت كثيرًا أمام شاهد القبر الذي كتب عليه البعض أنه قبر عمرو بن العاص. البعض يرى أن القبر الحالي المنسوب إليه في قبة عقبة بن عامر ليس هو، بينما يؤكد البعض أنه هو القبر؛ نظرًا لما ذكره المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) من أن البقعة التي دُفِن فيها عقبة بن عامر بها أيضًا عمرو بن العاص، وقبر أبي بصرة الغفاري؛ حيث تحويهما القبة التي هدمها صلاح الدين الأيوبي ثم بناها البناء المعهود الآن.

بينما يرى آخرون أن موضع القبر غير معروف، ولم يعد له أثر؛ لأن عمرو نفسه حين حضره الموت قال: «لا تجعلوا في قبري خشبة ولا حجرًا».

\*\*\*

مساجد عديدة احتضنها المقطم، أقدمها مسجد التنور الذي سُمِّي بهذا الاسم لأنه بُني مكان تنور فرعون الذي كان تُوقد له فيه النار، فإذا رأى أهل مصر النار عرفوا بركوبه، فيجتمعون له، وقيل إن النار كانت تُوقد بالطرفا واللبن والصندروس ليرتفع الوباء عن أهل مصر. ويروي القضاعي أن يهوذا بن يعقوب أخا يوسف n، لما دخل مع إخوته على يوسف وجرى من أمر الصواع ما جرى، تأخر عن إخوته وأقام في ذروة

جبل المقطم ، في مكان كان مقابلاً لتنور فرعون، ثم خلا ذلك الموضع إلى زمان أحمد بن طولون، فأخذ ابن طولون علماً بفضل هذا المكان، فأمر بعمارة المسجد والمنار وجعل فيه صهريجاً تُخزَّن فيه المياه، كما حبس عليه الأقباس. يُقال أيضاً إن تنور فرعون لم يزل بحاله حتى هدمه أحد قواد ابن طولون يُقال له (وصيد).

ومن المساجد الأخرى مسجد اللؤلؤة لا تزال آثاره باقية إلى الآن، ويُقال إن مكانه كان مشهوراً بإجابة الدعاء، فلما أُخبر الحاكم بفضل بني عليه مسجداً عام ٤٠٦، وسماه اللؤلؤة، وهناك مسجد القضاة، وقال القاضي: هي دكة مرتفعة عن المساجد في الجبل كان القضاة بمصر يخرجون إليها لرؤية الأهلّة، وخصوصاً هلال رمضان، ثم بُني مكان هذه الدكة مسجد عُرف باسمها، ومسجد زاوية الجيوشي، والتي شيدها المستنصر بالله أمير الجيوش بدر الجمالي في عهد الخليفة المستنصر. قال البعض إنه دُفِن بزاويته بسفح جبل المقطم، ولكن هناك مَنْ يؤكد دفنه في مقبرة خارج باب النصر.

قديس الجبل.. سمعان الخراز

«ده حتى جبل الجيوشي انتقل». مثل آخر من الأمثلة الشعبية التي تلخص حكايات وروايات بعمق التاريخ والجغرافيا في المحروسة. قصة معجزة نقل جبل المقطم على يد قديس مسيحي في العصر الفاطمي. رواية اختلف حولها المؤرخون، واحتفظ بها الوجدان الشعبي كونها عبرةً ودليلاً حياً على أن كل شيء ممكن الحدوث، فطالما انتقل الجبل الراسخ الصلب؛ فكل الأمانى ممكنة.

ولما كانت كتب التراث تذكر أن الجزء من الجبل الذي تم تحريكه هو الذي يضم جامع الجيوشي، جاء المثل: «ده حتى جبل الجيوشي انتقل».

غريب أمر جبل المقطم.. كلما مررت به وتذكرت كل تلك الروايات التي دارت حوله، تملكنتني الحيرة، وتساءلت: ماذا بينك وبين الله لتكون لك كل هذه المهابة والهيبة في

النفوس؟ ولا تأتيني الإجابة أبدًا. لا شيء عدا الصمت الذي يغلف قمة ذلك الجبل المصنف جغرافيًا على أنه (هضبة)، والسكون الذي يكسو تلك الأضحة القابعة في سفحه، والسكينة التي تغلف قبابه المزخرفة بعناية، والمآذن المتناثرة في وديانه.

\*\*\*

جبل المقطم لم تقتصر قدسيته على المسلمين، فقد ارتبط في التراث المسيحي بمعجزة شهيرة بطلها قديس بعين واحدة عمل في تصليح الأحذية ثم دباغة الجلود، قبل أن يختاره الرب -وفق الرواية المسيحية- ليقوم بنقل جبل المقطم من مكانه من بركة الفيل في السيدة زينب إلى موقعه الحالي، وذلك في حضور الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي تقول بعض الروايات إنه اعتنق المسيحية بعد رؤيته المعجزة.

ولنبداً القصة من البداية..

الزمان: القرن العاشر الميلادي

المكان: بلاط الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، وقد تهيأ للمناظرة بين رجال الدين المسيحي من جانب ونظرائهم اليهود من جانب آخر. الخليفة على عرشه وبجواره وزيره اليهودي يعقوب بن كلس. وها هو بطريك الأقباط إبرام السرياني سوري الأصل ومعه أسقف الأشمونين (وهو قديس وعالم بالكتب المقدسة اسمه ساويرس، ويُعرف بابن المقفع، وكان كاتبًا ينسخ الكتب المقدسة، ويعمل في دواوين الدولة، وهو مؤرخ شهير لكتاب «تاريخ البطارقة»).

بدأ النقاش واتهم ساويرس اليهود بالجهل، مستشهدًا بآية من سفر أشعياء (٣-١) تقول: «الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه. أما إسرائيل فلا يعرف! شعبي لا يفهم».

أثار ذلك غضب ابن كلس، فاستعان بآية في الإنجيل يخاطب فيها المسيح تلاميذه: «لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن لديكم». (متى ١٧-٢٠).

يعقوب بن كلس يوعز للخليفة أن يُجبر المسيحيين على إثبات ما جاء في كتابهم، وها هو المعز يستجيب لرأي وزيره اليهودي، ويطلب من البطريك نقل الجبل، ويمهله ثلاثة أيام لتنفيذ ذلك.

خلال أيام المهلة الثلاثة لم تملك الكنيسة سوى الصوم والصلاة. وفي صباح اليوم الأخير ظهرت السيدة العذراء للبطريك وأخبرته أن يخرج ليرى رجلاً يحمل جرة ماء وبعين واحدة، فهو المختار لتحقيق المعجزة. وفعل البطريك ليجد سمعان الخراز أمامه، فقص عليه الرواية، فأخبره الخراز أنه سيقوم بالمهمة على أن يتركه البطريك بعدها يعود لحياته دون أن يخبر أي شخص بأمره.

وقال الخراز للبطريك: اخرج أنت وكهنتك وشعبك كله إلى الجبل الذي يقول لك الملك عنه، ومعكم الأناجيل والصلبان والمجامر والشمع الكبير، وليقف الملك وعسكره والمسلمون في جانب وأنت وشعبك في الجانب الآخر، وأنا خلفك واقف في وسط الشعب بحيث لا يعرفني أحد، واقراً أنت وكهنتك وصيحو قائلين: «يا رب، ارحم.. يا رب، ارحم» ساعة طويلة، ثم أصدر أمراً بالسكوت والهدوء وتسجد ويسجدون كلهم معك ثلاث مرات، وكل مرة تسجد وتقف، ثم تُصَلِّب على الجبل، فسترى مجد الرب.

وفي اليوم الموعد جمع البطريك الشعب، وذهبوا إلى الخليفة المعز، وقالوا له: «اخرج إلى الجبل». وفعل ما قاله له سمعان، وفجأة! وقعت زلزلة عظيمة، وتحرك الجبل حتى ظهرت الشمس من تحته وارتعب الجميع. حتى طلب المعز من البابا إبرام أن يكف عن الصلاة وتحريك الجبل.

حسب المراجع الكنسية؛ صاح المعز ورجاله: «الله أكبر لا إله غيرك». وطلب المعز من البطررك أن يكف عن ذلك؛ لئلا تنقلب المدينة رأسًا على عقب. ثم قال المعز بعد ثالث مرة: «يا بطرك، عرفت أن دينكم هو الصحيح بين الأديان». فلما سكن الناس وهدءوا، التفت البابا خلفه يبحث عن سمعان الدباغ الرجل القديس فلم يجده. ثم قال المعز للبطرك أنبا أفرام: «تمنَّ أي أمنية». فقال البابا: «أتمنى أن يثبت الرب دولتك ويعطيك النصر على أعدائك». وسكت البطررك، فكرر المعز ما قاله ثلاث مرات، وأخيرًا قال: «لا بد أن تتمنى عليَّ شيئًا». فقال البطررك: «إذا كان لا بد، فأنا أسأل مولانا أن يأمر -إن أمكن- ببناء كنيسة الشهيد العظيم (أبو مرقورة) في مصر القديمة؛ لأنها لما هدموها لم يكن بإمكاننا أن نبنيها مرة أخرى، وحولوها شونة قصب، والمعلقة بقصر الشمع انهدمت حوائطها وظهرت الشروخ فيها». فطلب الإذن بترميمها وإعادة ما تهدم منها، فأمر المعز في الحال بالتصريح له بذلك.

ولما بدأ البناء عند أرض كنيسة القديس مرقورة، ألقى أحد شيوخ المسلمين بنفسه في حفرة أساس الكنيسة، وقال: «أريد اليوم أن أموت على اسم الله، ولن أدع أحدًا يبني هذه الكنيسة». فأمر المعز باستكمال أعمال البناء برمي الجير والحجارة عليه، فلما أراد الشيخ الهرب أمر المعز بدفنه في الأساس الذي رمى نفسه فيه، ولم يرتجع عن ذلك إلا عندما طلب منه البابا القبطي. ولم يجرؤ أحد ثانيةً على الاعتراض حتى تم الانتهاء من بناء كنيسة الشهيد أبي سيفين، وترميم وإصلاح الكنيسة المعلقة، وبناء كل الكنائس التي تحتاج إلى بناء أو تكملة، وكذلك كنائس الإسكندرية.

\*\*\*

مَن سمعان الخراز؟

مسيحي مصري، عاش في القرن العاشر في مصر، تعلم مهنة صناعة وتصليح الأحذية، ولذلك سُمِّي بالخراز، ثم تركها إلى مهنة دباغة الجلود، فأطلق عليه لقب

الدباغ أيضًا. كان سمعان رجلًا تقيًا صالحًا، جاءت إلى دكانه يومًا امرأة لتعرض عليه حذاءها ليصلحه لها، وبينما كانت تقوم بخلعه وقعت عينا سمعان على ساقها؛ فاشتتهاها، فقام بقلع عينه بالمخراز منفذًا لإحدى وصايا السيد المسيح التي يقول فيها: «إن كانت عينك اليمنى تعثرك، فاقلعها، وألقها عنك؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك، ولا يُلقَى جسدك كله في جهنم». (متى ٢٨: ٥ - ٢٩).

وعندما بلغ الأمر للكنيسة قرر الكهنة مسامحته على ما فعل؛ لأنه قام بذلك ببساطة ودون فهم حقيقي لرمزية الوصية.

### • ولكن أين ذهب القديس سمعان بعد واقعة نقل الجبل؟

من الروايات المتداولة أن القديس سمعان ألقى بنفسه تحت جبل المقطم؛ حتى لا يتم تكريمه. لكن ساويرس ابن المقفع في (تاريخ البطارقة) ذكر أنه في المقابلة الأولى بين الأنبا إبرام والقديس سمعان اشترط سمعان على البابا ألا يعلم أحد بسيرته إلا بعد انتقاله من هذا العالم ووعده البابا بذلك. ولهذا فإن المرجح أن القديس اختفى من وراء الأنبا إبرام البطريرك دون أن يشعر به أحد والأنبا ساويرس أيد اختفائه، فقال: «فلما اهتمدوا -أي هدا الناس- التفت البطريرك يطلب القديس سمعان الخراز فلم يجده». كما قال الأنبا يوساب في مخطوطة بدير السريان: «ثم التفت البطريرك يطلب الدباغ فلم يجده».

\*\*\*

انتهت القصة ورحل المعز ورحل القديس سمعان، وظلت الحكاية تُروى، إلا أنه وعلى مدار حوالي ألف عام، لم تُبنَ كنيسة واحدة باسم هذا القديس، حتى التقى أحد خدام الكنيسة، ويُدعى فرحات إبراهيم مع أحد جامعي القمامة في منطقة (الزرايب)، ويُدعى قديس عجيب عبد المسيح، والذي دعاه لزيارته في المقطم، وأخذ يلح عليه في الزيارة لمدة عامين حتى التقاه في صباح الجمعة الأولى من فبراير ١٩٧٤. وهنا

تبدأ قصة أخرى من معجزات سمعان الخراز، فيقال إن فرحات سمع صوت الرب يدعوه لزيارة المقطم، ولما التقى عم قديس طلب منه أن يأخذه إلى أعلى قمة يمكنه فيها الصلاة والتعبد، وهناك شاهد فجوة كبيرة ووجدها مغارة عجيبة؛ فقرر الصلاة فيها، وأخذ يداوم على الصلاة بها يوم الأحد من كل أسبوع ولمدة ٣ أسابيع، وفي الأسبوع الثالث صعد للصلاة ومعه شخصان آخران، وفي أثناء الصلاة هبت عاصفة وألقت أمام المصلين بورقة صغيرة الثقطها أحدهم وناولها للخادم، وإذا بها ورقة من سفر أعمال الرسل الإصحاح (١٨): «وقال الرب لبولس برؤيا الليل لا تخف، بل تكلم ولا تسكت؛ لأني معك، ولا يقع أحد ليؤذيك؛ لأن لي شعبًا كثيرًا في هذه المدينة». (أعمال ١٨: ١ - ٩). فاعتبر الخادم ذلك صوتًا من الرب، وفي ذهنه تردد قول يشوع: «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته». فقرر أن هذا المكان هو الذي اختاره الرب لبناء كنيسة باسمه، وتم بالفعل بناء كنيسة من الصاج وسقفها من البوص لتعليم أطفال المنطقة تعاليم الديانة المسيحية.. ومع زيادة عدد المصلين تم توسيع المكان، فذهب فرحات إلى البابا شنودة الثالث الذي قدم لهم كل الدعم. وفي يوم ١٨ من يونيو ١٩٧٦ م قام بتدشينها، وكان قد أراد تسميتها كنيسة العذراء، فطلب منه الخادم فرحات أن تحمل الكنيسة اسم القديس سمعان صاحب معجزة نقل الجبل، والذي لا تُوجد كنيسة باسمه؛ فقرر البابا شنودة أن يطلق عليها كنيسة العذراء والقديس سمعان.

وفي عام ١٩٩١ م عندما بدأ الترميم في حصن بابليون تم العثور على هيكل عظمي لشخص في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات وشعر رأسه سليم، ووُجد معه جرة من الفخار، وقيل إنه الخراز؛ لتشابه ملامحه مع الملامح الموجودة في أيقونة الأنبا إبرام مع القديس سمعان الخراز الموجودة بالكنيسة المعلقة. وقد تم نقل رفات سمعان الخراز من كنيسة بابليون في مصر القديمة إلى كنيسته بالمقطم في ١١ من يوليو ١٩٩٢.

وشيئاً فشيئاً أصبح دير سمعان الخراز يضم ست كنائس، منها: كنيسة الأنبا إبرام السرياني الذي تمت في عهده معجزة نقل جبل المقطم، وهو الذي أدخل للكنيسة صوم الثلاثة أيام التي صامتها الكنيسة قبل نقل الجبل لتسبق صوم الميلاد المجيد، ليصبح ٤٣ يوماً بدلاً من ٤٠ يوماً.

\*\*\*

البعض يرى أن معجزة نقل المقطم التي تحتفل بها الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في ٢٧ من نوفمبر كل عام، ليس لها أسانيد تاريخية وثيقة، منها ما ورد في دراسة صدرت عام ٢٠١٨ م في كتاب بعنوان (أعجوبة نقل جبل المقطم.. قراءة جديدة في مخطوط سير البيعة المقدسة)، وهذا المخطوط هو أهم مرجع أشار إلى واقعة نقل جبل المقطم.

صاحب الدراسة شريف رمزي أكد أن كتاب سير البطارقة المنسوب للأنبا ساويرس بن المقفع أسقف كرسي الأشمونين، والذي تعتمد عليه الكنيسة لسرد المعجزة، لا علاقة له بهذا الكتاب ولا هو جامع تاريخ البطارقة، بل إن أول عملية جمع وتاريخ لسير الآباء البطارقة على هذا النحو التسلسلي لم تبدأ إلا بعد ١٠٠ عام من وفاته. وحول علاقة ابن المقفع بكتاب تاريخ البطارقة، كتب يوحنا يوسف في مؤلفه (الأيقونات القبطية في التاريخ والأدب والطقوس) أن كتاب البطارقة، وهو كتاب سير البيعة المقدسة، والذي يُعد التاريخ الرسمي للكنيسة القبطية الأرثوذكسية، يحتوي على السير التي كُتبت أولاً بالقبطية حتى القرن الحادي عشر، ثم تُرجمت إلى العربية، ثم أُضيفت إليها السير التي كُتبت بعد ذلك مباشرة بالعربية. كان تاريخ البطارقة يُنسب لساويرس بن المقفع، لكن الأبحاث الحديثة أثبتت أن من جمع هذا الكتاب هو (موهوب بن منصور بن المفرج الشماسي الإسكندراني)، وهو من عائلة كبيرة بالإسكندرية، والده كان يحتفظ برأس القديس مرقس.

وأضاف شريف رمزي أن رواية نقل المقطم كتبها ميخائيل أسقف تنيس راوي سيرة إبرام بن زرعة البطريرك الذي تمت في عهده المعجزة، وكتبها في إطار تدوينه لسير ١٠ من الآباء البطارقة، وليس ساويرس بن المقفع. وأوضح أن الجزء الذي دونه الأبا ميخائيل عن معجزة نقل المقطم لم يظهر للنور إلا بعد مرور أكثر من ٧٠ عامًا على الواقعة، وبرغم ذلك فإن أقدم النسخ المخطوطة المحفوظة إلى الآن من (سير البيعة المقدسة) متضمنة سيرة الأبا إبرام بن زرعة والمعجزة التي جرت في عهده يعود تاريخها إلى القرن الـ١٤، فالأصول ضاعت وما وصلنا هو نقل بواسطة النساخ في أزمنة لاحقة.

باحثون آخرون شككوا في الرواية برمتها؛ للتضارب في التواريخ، فالمعز الذي دارت في عهده القصة تُوفي ٣٦٥ هـ، بينما وقعت المعجزة ٣٦٨ هـ؛ أي بعد وفاة المعز بثلاثة أعوام. كما أن البابا إبرام السرياني التي وقعت في عهده المعجزة تُوفي قبل حدوثها بتسع سنوات.

على الجانب الآخر دل الباحث الأثري جرجس داود في عدد جريدة وطني بتاريخ ٩ - ١٢ - ٢٠٠٥، على صحة واقعة نقل المقطم بأيقونة موجودة في الكنيسة المعلقة يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وفيها الأبا إبرام ومعه القديس سمعان الخراز يصليان ويدعيان: «يا رب، ارحم». وعلى الجانب الأيسر من الصورة السيدة العذراء تشير بإصبعها تجاه الأبا إبرام. ويرى الباحث أن الأيقونة، التي رسمها بغدادي أبو السعدني ١٤٦٠ م، دليل مصور على حدوث المعجزة.

واستشهد آخرون بمخطوطة موجودة بدير الأبا أنطونيوس تشير إلى أن جبل المقطم إنما أُطلق عليه اسم المقطم؛ لأن سطحه كان مستويًا ثم أصبح بعد نقله ثلاثة قطع واحدة خلف الأخرى.

لكن فريقًا من الباحثين يرون أن المقطم عُرف بهذا الاسم قبل قصة نقل الجبل بسنين طويلة، وذكره باسمه العديديون، منهم: عبد الله بن لهيعة عالم أهل مصر

المُتوفَّى ١٧٤ هـ، ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى المُتوفَّى ٢٣٠ هـ، والجاحظ المُتوفَّى ٢٥٥ هـ، وأبوالفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني المُتوفَّى ٣٥٦ هـ.

\*\*\*

وأين ذهب المعز؟

يتبقى في معجزة نقل جبل المقطم سؤال مهم، أو بالأحرى لغز آخر يتعلق بالخليفة المعز لدين الله. حسب الرواية المسيحية؛ فإن المعز تنازل عن الحكم لابنه، ثم تنصر وتم تعميده في معمودية السلطان الأثرية، التي لا تزال حتى يومنا هذا موجودة في كنيسة أبي سيفين بمصر القديمة. وأنه أمضى أيامه الأخيرة في العبادة في أحد الأديرة. وقد أيد هذه القصة مرقس باشا سميقة أحد مؤسسي المتحف القبطي؛ مستندًا في ذلك إلى ما جاء في مرجع للأبنا إيسيدورس، وهو (الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة لسنة ١٨٩٢)، طبعة ١٩٢٣ م.

الرواية نفسها أكدها المؤرخ الإنجليزي ألفريد بتلر في كتابه (فتح العرب لمصر) الذي صدر سنة ١٩٠٢ م، اعتمادًا على كتاب آخر للمستشرق وعالم اللاهوت أوزيب رينو دوت.

ولكن أحمد زكي باشا والأستاذ عبد الله عنان احتجا بشدة على هذه الرواية. بينما ذكر ابن كثير أن المعز كان منجمًا وأن أحد العرافين نصحه بأن يتوارى عن الأرض؛ فأحضر الأمراء وأوصاهم بابنه وعمل سردابًا وتوارى فيه لمدة سنة، عاد ليحكم بعدها لفترة قصيرة ثم مات. في حين أكد المؤرخ الأنطاكي أن الخليفة المعز مرض واستخلف ابنه، وبعد وفاته ظل خبر الوفاة متكتمًا ثمانية أشهر.

تعددت الروايات، فمن المؤرخين من أرخ لوفاة المعز في ديسمبر ٩٧٥ م، ومنهم من قال إنه تُوفِّي عام ٩٧٦ م، ويظل ادعاء معرفة الحقيقة المؤكدة رجماً بالغيب.. فلا

أحد من المؤرخين استطاع إثبات موعد وفاة المعز ومكان دفنه، ليبقى سرًا من أسرار التاريخ وألغازه التي لم يحن بعد فك طلاسمها.

ويبقى جبل المقطم بشموخه وهيبته لغزًا في حد ذاته، وتظل له مكانة دينية في نفوس المسلمين والمسيحيين المصريين.

# الفصل الحادي والعشرون

## الرب واحد والأولياء أنواع

منذ أكثر من مئتي عام قالها المستشرق البريطاني (إدوارد لين) مندهشًا: «يتبادل المسلمون والأقباط واليهود خرافات بعضهم البعض، فالمسلم قد يطلب كاهنًا مسيحيًا أو يهوديًا ليصلي له، والمسيحي يزور أضرحة أولياء المسلمين يسألهم الدعاء، والقبطية تنذر للولي المسلم صوم شهر رمضان إذا حقق رجاءها في الإنجاب، والمسلمة تبتهل للقديس أن يتشفع لها فتنحل عقدتها وتلقى ابن الحلال.. صورة لن تقابلها سوى في مصر».

صورة تجعلك متيقنًا أن الاعتقاد في الأولياء الصالحين ليس طقسًا دينيًا بقدر ما هو عادة اجتماعية وجدت جذورها القديمة لدى هذا الشعب منذ كان يعبد آمون رع ويتقرب لكهنة معابده، وظل المعتقد مستمرًا في ظل المسيحية والإسلام وإن أخذ ثوب الديانتين الجديدتين.

وقد سجل هذه الظاهرة العديد من المستشرقين، ومنهم المستشرقة الإنجليزية (لوسي داف جوردون)، فنقرأ في رسائلها قصة العامل المصري المسلم الذي زاره في المنام القديس المدفون في كنيسة ببا (إحدى مراكز بنى سويف الآن) ثلاثة أيام متتالية؛ كي يذهب العامل ليقوم بترميم كنيسته، فما إن رأى المنام حتى ترك كل شيء وذهب للمشاركة في ترميم الكنيسة دون أجر؛ تلبيةً لنداء القديس.

كما يقول مكفرسون: «لم أجد مكانًا في مصر إلا يمجد فيه المسيحيون بطوائفهم المختلفة والمسلمون مساجد بعضهم البعض وكنائسهم، علنًا بصدق وبطيب خاطر، ويطلبون البركة من أضرحة بعضهم البعض».

كثير من الدارسين حاولوا وضع تفسيرات للظاهرة، منهم د. ميلاد حنا في مؤلفه (الأعمدة السبعة للشخصية المصرية):

«إن هذه الموالد ليست احتفالات دينية فحسب، وإنما هي مهرجانات شعبية للمرح والتسلية، وجزء من تراث المصريين للترويح عن النفس بطرق فلكلورية تتفق مع المرحلة والعصر».

في حين علل الدكتور محمد الجوهري الظاهرة بقوله: «إنها إن دلت على شيء فإنها تدل على أن أغلب المعتقدات الشعبية تستمد جذورها من مصادر أقدم من الدين الرسمي (مسيحية أو إسلامية أو يهودية)، وأسبق عليه في الوجود، وأنه إذا بدا أن بعض هذه المعتقدات يتفق في بعض جزئياته العارضة مع مبادئ الدين؛ فإن هذا الاتفاق إنما هو ثمرة عملية تكيف أو مواءمة متعمدة لجأت إليها العقلية الشعبية لكي تضمن للمعتقد الشعبي البقاء وسط بيئة الدين الجديد، ويضمن له إقرار رجال هذا الدين، ولكنه في حقيقة جوهره تعبير عن عنصر أقدم من شخصية هذا الشعب، ومن هنا لا يشعر ابن أحد الأديان بحساسية كبيرة أو غضاظة واضحة في ممارسة أحد معتقدات أبناء دين آخر».

\*\*\*

لذا ليس من العجب أن تشهد المسلمين يتوافدون على ميت دمسيس إحدى قرى محافظة الشرقية؛ للاحتفال بمولد مار جرجس؛ حيث يُقال إن القديس جرجس يظهر على هيئة حمامة بيضاء في سقف الكنيسة مساءً؛ ليحقق الأمانى. أو أن تجد عددًا من المسلمات يهرعن إلى بيت متهاك في حي الفجالة عندما أعلنت إحدى السيدات أن صورة العذراء في منزلها تقطر زيتًا مباركًا يشفي من الأمراض، وبالمثل تجد على أعتاب ضريح السيدة زينب، قبطية تعلقت بشباكه راجية واعدة بالندور.

صورة لم تتغير منذ مئة عام على الأقل، فنجد المستشرق البريطاني سيمون هنري ليدر عام ١٩٢٠ م يحدثنا في كتابه (تاريخ الأقباط) عن تبادل الأولياء، وكيف أن كل طرف يقدر

أولياء الطرف الآخر قدر تقديسه لأولياءه.

ويشير س. هـ. ليدر إلى مولد القديسة دميانة إحدى شهيدات سنوات الاضطهاد الديني في عصر دقلديانوس ضد المسيحيين أواخر القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع.. فبعد اعتراف الإمبراطورية بالمسيحية، بنت الكنيسة للقديسة الشهيدة كنيسة مكان خلوتها التي تم تعذيبها فيها وتُوجد في زعفرانة على بعد حوالي ١٢ كم شمالي بلقاس. وفي ٣٥٠ م تقرر أن يكون لها عيد سنوي يحل في العشرين من مايو، ويلجأ المسلمون والمسيحيون للقديسة دميانة، معتقدين في قدرتها على أن تهب الخصوبة للنساء أو الحياة الطويلة لأطفال المرأة التي فقدت الكثير من أبنائها في سن الطفولة. كما يُقال إنه من بين المعجزات أن السيدة دميانة يمكنها منع اللصوص من السرقة أو الهرب بما سرقوه، ويلجأون إليها باستمرار؛ كونها وسيلة لاكتشاف الممتلكات المسروقة وإعادتها لأصحابها الشرعيين.

ويقول ليدر: «المسلمون وكذلك الأقباط الذين يعيشون في تلك الناحية، يحترمون تلك القديسة أشد الاحترام، ويوجهون كلامهم إليها وعادةً ما تسمع المسلمين يتغنون باسمها، قائلين: يا ست يا بنت الولي».

(عيد الشهيد) مولد مسيحي آخر تشارك فيه معهم المسلمون، وكان يُقام يوم ٨ بشنس (١٦ مايو)؛ حيث يُوجد إصبع شهيد محفوظ في علبة بكنيسة في شبرا الخيمة كانوا يغسلونه في النيل يوم العيد؛ جلبًا للفيضان والبركة. وبسبب الخيام التي تُضرب في منطقة شبرا عُرِفَت باسم شبرا الخيمة، ويقال إنه في عام ١٣٠١ م منع السلطان بيبرس الجاشنكير هذا الاحتفال بعد أن توافد عليه الرقاصون والعربات، لكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أعاده.

\*\*\*

تكاد طقوس الاحتفال بالقدسين الأقباط والأولياء المسلمين تتطابق، فكما يمسح المسلم بيده على حديد الضريح ثم يمرر يده على جسده وملابسه كي تنعم بالبركة، يقوم المسيحي بتقبيل (الأيقونات)؛ لينال بركتها، وكما يتمايل المسلمون على سلطنة ابتهالات المشايخ، يُطرب المسيحيون لترانيم الشماسين والمنشدين. وفي الموالد على الجانبين أماكن لبيع شرائط الكاسيت الخاصة بهذه الترانيم وتلك الأناشيد.

وفي الموالد أيضًا يتفق الجميع على ضرورة دق الوشم، فالمسيحي يدق وشم الصليب أو العذراء أو مار جرجس أو غيرها من الرموز المسيحية. بينما يرسم المسلم صورًا متباينة الأشكال والأحجام لرموز ليست دينية في الغالب.

وبينما يحرص المسلم على إجراء عملية الختان لابنه في المولد، فإن موالد القديسين فرصة للقيام بطقس المعمودية للصغار؛ باعتبار طقس التعميد تطهيرًا روحيًا وتحررًا من الخطيئة، وهي مستقاة من طقس تعميد المسيح في نهر الأردن من قِبَل يوحنا المعمدان.

وفي الختان والمعمودية يرتدي الطفل جلبابًا أبيض للاحتفاء به، إلا أن الطفل المسيحي يرتدي جلبابًا وغطاء رأس عليهما الصليب باللون الأحمر.

\*\*\*

من أهم الممارسات في المولد (الحضرة)؛ حيث تتضمن أشعارًا في مدح النبي ﷺ وآل البيت، يقابلها عند الأقباط (المدايح) أو (التمجيد)؛ حيث يلتف المريدون حول رفات القديس داخل الكنيسة أو الدير، وينشدون الأشعار التي تخلد سيرته.

وكما يوجد في موالد المسلمين المواكب التي يحملون خلالها البيارق والأعلام المميزة للطريقة الصوفية؛ حيث يركب خليفة الطريقة حصانًا مزيّنًا، يقابلها في الاحتفالات القبطية (دورة الأيقونة). كما أن الوفاء بالنذور جزء أساسي من موالد الأولياء والقديسين، سواء نذور مادية أو عينية؛ كالأضاحي.

تنطبق الطقوس عدا بعض التفاصيل الصغيرة التي أسبغتها كل ديانة على أتباعها؛ كالاستخدام المتكرر للزيت والصليب والخبز المقدس لدى الأقباط. في حين يشترك المسلم والقبطي في عادة إشعال الشموع وإرسال الرسائل لتحقيق الأمان، ففي كنيسة الشهيد أبي سيفين بمصر القديمة رأيت مشهداً يتكرر في الكثير من الكنائس، وهو لسيدة أنيقة وقفت أمام أيقونة القديس وقد وضعت رسالة مطوية تحمل رجاءها وآمالها، وهي صورة تراها لدى المسلمين الذين يبعثون برسائلهم إلى الأولياء، خصوصاً الإمام الشافعي.

ويشترك القديس مع الولي في المعجزات نفسها أو الكرامات؛ كشفاء المرضى، وطرده الأرواح، وعلاج العقم. إلا أن الأمر المسيحي البحت هو التبرك برفات القديسين الموضوع في أسطوانات خشبية مغطاة بأقمشة مطرزة، وتُعرف بـ(الذخائر المقدسة)، وهي ما يراها البعض استمراراً لعادة تحنيط الموتى لدى الفراعنة.

ويتم التعامل مع رفات القديسين بمنتهى التبجيل والاحترام؛ حيث يتم تطيب الرفات بوضع حنوط البركة، ويسكب الكاهن زيتاً من العطر وزيت الناردين المعطر وهو أحد الزيوت المقدسة لدى المسيحيين، وهذا الطقس يرجع إلى قصة المرأة التي سكبت تلك الزيوت على وجه المسيح وفرح بذلك، ويؤصّف المزيج مع مواد كيميائية عطرية؛ لتصنع ما يشبه العجينة التي تُتلى فوقها الصلوات والتراتيل، ويُدهن بها الأنبوب المعدني الذي يحتفظ برفات القديس، ويحرص زوار الكنيسة على رمي متعلقاتهم؛ لينالوا جزءاً من بركة هذا الحنوط، ويقوم الزوار بتقبيل تلك المقصورات الزجاجية التي تضم رفات القديسين. وفي دير الأمير تادرس الموجود في حارة الروم يُقال إن تمرير رفات القديس على جسم المريض يحقق الشفاء.

\*\*\*

الطريف أن هناك قديساً مسيحياً يكاد المسلمون يعتبرونه ولياً مسلماً، ويقولون له سيدي محمد البرسوم أو سيدي العريان، فهم يرون تشابهاً بينه وبين سيدي الرفاعي فيما يتعلق بالقدرة على إخضاع الثعابين، ولذلك هم يغنون له في المولد: «عم يا عريان، يا طب

التعبان»، وهو الهتاف نفسه وكأننا نسمع صداه في مولد الرفاعي: «يا رفاعي، يا طب الأفاعي».

وقد سجل (مكفرسون) تلك الملاحظة حين زار مولد سيدي (العريان) في أثناء الحرب العالمية الثانية: «إن هذا العيد المسيحي له من الشعبية عند المسلمين ما له عند الأقباط، وفي الواقع فإن المسلمين يشيرون له -كما سمعت- بسيدي محمد برسوم».

كما يرى البعض أوجه تلاقٍ بين العريان والسيد البدوي، فبرسوم العريان عاش عشرين سنة على سطح الكنيسة، والسيد البدوي عاش على سطح منزل خلوته وكلاهما جاء باليسرى، فالبدوي أتى بالأسرى وحررهم، والعريان كان يدفع الظلم عن شعبه.

وبرسوم العريان وُلِدَ ١٢٥٧ م لأبوين مسيحيين، وكان والده الوجيه مفضل كاتمًا لأسرار الملكة شجر الدر، وبعد وفاة والده واستيلاء خاله على ميراثه، تركه وانطلق ليعيش في البرية، ويؤجَد ديره في المعصرة بالقرب من حلوان.

# الفصل الثاني والعشرون

## أبو حصيرة الولي الذي كرهه المصريون

قدّس المصريون الأولياء؛ المشهورين منهم والمغمورين، تغنوا بكراماتهم التي يثير بعضها السخرية، لكن هناك ولي واحد بغضوه وكرهوه أشد الكراهية؛ ليس لأنه يهودي، فالمصريون لم يعرفوا كراهية أصحاب الملل الأخرى، بل على العكس كانوا يكونون القدر نفسه من التبجيل للقديسين المسيحيين كما الأولياء المسلمين. كما أن اليهود المصريون ظلوا حتى حرب ١٩٤٨ م جزءًا طبيعيًا من النسيج المصري، ولم تتغير هذه الحال إلا بفعل التغيرات السياسية الداخلية والخارجية عقب حرب فلسطين ثم العدوان الثلاثي، لكنهم كرهوا هذا الولي اليهودي المزعوم (أبو حصيرة)؛ لأن ضريحه تحول إلى حائط مبكى جديد في مصر، ولأنه أصبح (مسمار جحا) الذي استغله الإسرائيليون لتدنيس أرض مصر سنويًا بما يفعلونه من موبقات خلال أيام المولد السبعة التي تبدأ في ٢٦ من ديسمبر؛ حيث تتحول قرية دمتيوة بمحافظة البحيرة خلال تلك الفترة من كل عام إلى ثكنة عسكرية، فالأمن يطوق القرية ويحرم على أهلها التجول بحرية.

كان هذا قبل أن تتوقف إقامة المولد بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١؛ لدواعٍ أمنية، وقبل إلغاء المولد نهائيًا بموجب حكم قضائي عام ٢٠١٤ م.

\*\*\*

وفق الرواية اليهودية فإن أبا حصيرة (١٨٠٥ - ١٨٨٠) هو يعقوب بن مسعود، حاخام مغربي يقولون إنه غادر المغرب متجهًا إلى فلسطين، فلما غرقت سفينته فرد حصيرته، وظل

متعلقًا بها حتى وصل إلى فلسطين وخرج منها عائدًا إلى المغرب، إلا أنه استقر في مصر وتحديدًا قرية دمتيوه في دمنهور، وأوصى أن يُدفن بها.

كان ضريح أبو حصيرة وما حوله من نحو ٨٨ مقبرة يهودية مزارًا لأبناء الطائفة اليهودية المصرية. وبعد اتفاقية كامب ديفيد تحول إلى مزار سنوي للإسرائيليين، ومن بينهم كبار قادة الكيان الصهيوني. وفي يناير ٢٠٠١ م أصدر فاروق حسني وزير الثقافة قرارًا بتسجيل الضريح ضمن الآثار اليهودية.

هذا القرار استفز المحامي مصطفى رسلان، وهو من أهالي البحيرة، ليرفع دعوى قضائية للطعن على قرار الوزير والمطالبة بإلغاء المولد الذي يستفز مشاعر المصريين؛ بسبب ممارسات الإسرائيليين من شرب الخمر والرقص الهيستيري وهم يهتفون: «عائدون.. عائدون».

وبالفعل صدر قرار المحكمة الإدارية بالإسكندرية عام ٢٠٠١ م بإلغاء الاحتفال، وتم تأييد الحكم عام ٢٠٠٤ م، وإلغاء قرار فاروق حسني بضم الضريح للآثار اليهودية، بعد أن قدّم محامي القضية مصطفى رسلان وثيقة أثبت فيها أن أبا حصيرة رجل مسلم اسمه محمد بن يوسف ينتهي نسبه إلى طارق بن زياد. ومع ذلك سمحت السلطات المصرية بإقامة المولد سنويًا منذ صدور الحكم وحتى عام ٢٠١٠ م، عدا مرة واحدة في ٢٠٠٨ م لتزامن الاحتفال مع الاعتداء الإسرائيلي الوحشي على قطاع غزة.

كانت هناك دومًا محاولات شعبية متتالية لإلغاء المولد، ففي التسعينيات دعا الكاتب الراحل مختار السويفي، أن يُسهم كل مواطن مصري بعشرة قروش لنقل جثمان أبي حصيرة إلى إسرائيل إذا ما ثبت نسبه اليهودي، أما إذا ثبت نسبه العربي فليأخذ اليهود أنفسهم وليبحثوا عن مبكى آخر.

بعد ثورة ٢٥ يناير ظهرت حركة (مدونون ضد أبو حصيرة) التي طالبت بعمل تحليل دي إن إيه؛ لإثبات هوية أبي حصيرة العربية، وقررت الحركة عمل دروع بشرية لمنع أي وفود

يهودية من الاقتراب من الضريح.

وأصدرت عدة بيانات استنكرت خلالها الحملة الصهيونية التي تتهم مصر بانتهاك حقوق الإنسان وحرية الأديان بمنعها إقامة المولد اليهودي (على حد زعمهم)، وتصدت الحركة للحملة التي شنها مركز سيمون فيزنتال، وهو منظمة يهودية لحقوق الإنسان يُوجَد مقرها في لوس أنجلوس، ويديرها أبراهام كوبر الذي يدعي أن أبا حصيرة هو جده.

في عام ٢٠١٤ م أصدرت المحكمة الإدارية بالإسكندرية حكمًا بشطب ضريح أبي حصيرة والمقابر اليهودية حوله في قرية دمتيويه بمحافظة البحيرة من قائمة الآثار الإسلامية والقبطية بمصر، وإخطار لجنة التراث العالمي بمنظمة اليونسكو بذلك ومنع الاحتفال بمولده. وفي سبتمبر ٢٠٢٠ م تم تأييد الحكم، لتُغلق قضية أبي حصيرة إلى الأبد.

\*\*\*

روايات كبار السن في القرية تشير إلى أن أبا حصيرة كان رجلًا مسلمًا من المغرب، كان في طريقه إلى الحج في مطلع القرن العشرين، وتوقف في مصر، ووجده الناس ذات يوم يفترش حصيرة على كوبري (أبو ريش)؛ فأطلقوا عليه (أبو حصيرة). وقد عمل أبو حصيرة -حسب تلك الروايات- في تصليح النعال والحصير فوق الكوبري نفسه. وشيئًا فشيئًا نُسجت حوله الأساطير، وقيل إنه وصل محافظة البحيرة عائماً على حصيرته بعد أن غرقت به السفينة، وأن الرجل عندما سأله: «متى ستموت؟». رد قائلاً: «يوم الأحد». وحدث بالفعل أن مات يوم الأحد، وكان هناك ثري يهودي يعطف عليه، فلما مات دفنه في مقابر اليهود، وظل الناس من أهل القرية يزورونه كونه شيخاً مسلماً لفك الأعمال السحرية والحسد، ويلجأ إليه الفلاحون لعلاج العجز الجنسي وعلاج الجاموس والبقر والماعز والحمير، لكن أهميته ظلت محدودة مقارنةً بالشيخ (أبو الريش) الذي ينظمون له مولدًا سنويًا في القرية نفسها.

بعد اتفاقية كامب ديفيد تحول أبو حصيرة فجأة إلى حاخام يهودي من أهم حاخامات اليهود، وصديق من الصديقين الحافظين لأسرار التوراة، وقيل إنه أنشأ مدرسة كبرى في المغرب لتعليم أسرار التصوف العبراني.

رواية ثالثة قرأتها في إحدى الصحف على لسان شخص يدعى الحاج أبو حصيرة قال إن أبا حصيرة الحاخام المزعوم من عائلة فلسطينية مسلمة، وهناك مجرد تشابه أسماء مع عائلة أبي حصيرة اليهودية المغربية، وإن الجد الأكبر جاء إلى مصر من غزة، وفي إحدى الليالي لف نفسه بالحصيرة ونام، وفي الليل جاء منام لعمدة البلد المصري أن هناك رجلاً صالحاً ميتاً في حصيرة، فذهب وادفنه.

أيًا ما كان الأمر وأيًا ما كانت الرواية، فأبو حصيرة لم يكن وليًا ولا (يحننون).. وبفضل القضاء المصري الشريف وعزم المصريين الغيورين على أرضهم، والذين لم ينسوا ما فعلته بهم إسرائيل، وتركوا التطبيع للحكومات، واختاروا الإصرار على رفضهم الأبدي للوجود الصهيوني.. بفضل هؤلاء؛ انفض مولد (أبو حصيرة) إلى غير رجعة.

# الفصل الثالث والعشرون

## مولد وصاحبه غايب حمص وحلاوة وأراجوز

فول نابت في رغيف عيش بلدي.. شاي وحمص وحلاوة وفول سوداني.. حلاق يختن الولد.. يا عريس يا صغير، علقة تفوت ولا حد يموت، صندوق الدنيا وأراجوز، قارئو الكف وغجرية تضرب الرمل، أحجية وبخور ومدد يا سيدي مدد، رقصة البطن يؤديها رجل في زي النساء كما كان يفعل حسين فؤاد ومحمود اللالو في أربعينيات القرن العشرين.

عالم تاني بحواديته على شرف سيدنا الولي صاحب المقام... إنه مولد وصاحبه غايب.

بانوراما خلدتها أشعار الرائع صلاح جاهين، وهو يصور الليلة الكبيرة أو الأخيرة أو ختمة المولد الذي هو عيد ميلاد الولي، والاحتفال به يستمر أيامًا أو أسابيع في الموالد الرئيسية، مثل: مولد الإمام الحسين، والسيدة زينب، والليلة الكبرى هي الليلة الرئيسية، ولحظة الذروة في المولد الذي يختلط فيه الدين بالعبث.

\*\*\*

الدكتور إيفانز بريتشارد الأنثروبولوجي الإنجليزي يرى أنه لا ديانة تعيش في قلوب الناس دون أعياد لها، بل إن الاحتفال قد يصبح أبقى من الشعائر؛ فهو يخلصها من جمودها ويحول الدين والدنيا إلى جديلتين متداخل نسيجيهما.

وربما لذلك تفنن المصريون في إقامة الموالد، ففي كل قرية ولي وضريح ومولد، اكتسب اسمه من بركاته، ويتكفل الأتباع في القرى الفقيرة بإقامة احتفالات المولد في ساحة كبيرة

مفروشة مخصصة لذلك، ومن كل دار تخرج صينية محملة بواجب ضيافة أتباع الولي،  
فيأكل الغلابة في هذه الليلة وهم يفترشون حصرهم، ويجلسون أمام منقد الشاي  
ويستمعون إلى مطربي الليلة الذين قد يُقدّم بعضهم توليفة من الكلمات الدينية على ألحان  
أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، وتجدهم يهيمون معها وبها.

\*\*\*

في مصر تمتد جذور ظاهرة الموالد إلى الحضارة المصرية القديمة، وهو ما تكشف عنه تلك  
الطقوس في مولد الشيخ إسماعيل الإمبابي في إمبابة؛ حيث تسير قوارب في النيل حاملة  
الحجاج مزينة بالسعف والزهور.. صورة تطابق ممارسات المصري القديم في احتفالات  
إيزيس، وتُستخدَم فيها آلات موسيقية كالشخشيخة تماثل الشخشيخة المصرية القديمة.

وفي احتفال المسلمين والمسيحيين بشم النسيم الكثير من طقوس عبادة إله الشمس  
(رع) واحتشاد الناس في منطقة المطرية (هليوبوليس القديمة) في الحقول قبل الفجر  
لرؤية شروق الشمس قرب المسلة التي تحدد موقع رمز قريب الصلة باحتفالات عبدة  
أمون.

وإن كانت ظاهرة الموالد في مصر ذات جذور قديمة، فإن الفاطميين هم الذين منحوا  
الموالد شرعيتها، لقد أرادوا الترويج للمذهب الشيعي بكل السبل؛ فابتدعوا الأعياد  
والمواسم والاحتفالات بأول العام الهجري، ويوم عاشوراء، وخروج قافلة الحج إلى  
الحجاز، والمولد النبوي، واحتفوا ببعض الأعياد القبطية، مثل: عيد الغطاس، والنيروز،  
وخميس العهد، وراحوا ينظمون الولائم وينثرون الذهب على الناس، واهتم الخليفة  
الفاطمي نفسه بإعداد الولائم.

ويذكر المقريري أن «الإخشيذ أمر بإقامة الزينة، فأسرج ألف مشعل أمام قصره المطل على  
النيل، وقد حافظ الفاطميون على هذا العيد، بل وزادوا فيه الإنعام على رجال الدولة،

فكانت إذا جاءت ليلة الغطاس ضربت الخيام على شاطئ النيل بناحية مصر القديمة، وكان الخليفة يحضر بنفسه هذا الاحتفال».

ويحكي المقرئ أن هناك خمسة احتفالات عظيمة حظيت باهتمام الدولة الفاطمية هي: مولد الإمام الحسين (٥ ربيع الأول)، ومولد السيدة فاطمة الزهراء (٢٠ جمادى الآخرة)، ومولد الإمام علي (١٣ رجب)، ومولد الإمام الحسن (١٥ رمضان)، ومولد الإمام الحاضر ويُقصد به الخليفة. وهناك ليالي الوقود الأربع (أول رجب، ونصفه، وأول شعبان، ونصفه)؛ حيث كانت المساجد تُضاء في هذه الليلة ويخرج الناس إلى الجامع الأزهر وهم يحملون المشاعل؛ فتظهر القاهرة وكأنها -على حد وصف القرئ- أصبحت نهارًا.. وكانت مجالس الغناء والموسيقى جزءًا لا يتجزأ من تلك الموالد، ولما كثرت مظاهر الانحلال الاجتماعي بها، قام الحاكم بأمر الله بالغائها؛ كما أكد المقرئ.

كانت الصورة مغايرة في العصر الأيوبي الذي حرص حكامه على التخلص من آثار المد الشيعي، إلى جانب انشغالهم بمواجهة الحروب الصليبية، فتواتر الموالد واختفت.

ثم عادت الموالد سيرتها الأولى، وذلك في عصر المماليك، فكما يخبرنا ابن إياس عن هذا العصر: «بدأ التوسل بالأولياء والمشايخ لتحقيق المآرب والغايات، وآمن الناس في الاعتقاد في هؤلاء الأولياء الصالحين حتى نسبوا إليهم كثيرًا من الأعمال الخارقة للعادة وسموها (الكرامات)، وقد استتبع ذلك الاعتقاد الكبير بالأولياء العناية الفائقة بإحياء موالدهم السنوية في الجهة أو البلد التي فيها قبر الولي، وقد قام قايتباي برعاية بعض هذه الموالد، فأمر بإقامتها ودعوة الخليفة والقضاة والأعيان إليها».

وكان اهتمام المماليك بالموالد وسيلة للتقرب من الشعب واكتساب سمة الشرعية، وقد شهد هذا العصر أيضًا هجرة كثير من العلماء والأولياء إلى مصر بعد انهيار الدولة الإسلامية في المغرب العربي والأندلس، ورأى المصريون فيهم القدسية؛ باعتبارهم أسباط النبي ومن سلالته صلى الله عليه وسلم.

\*\*\*

وكما يقول عرفة عبده في مؤلفه (موالد مصر المحروسة): «إن المعجزة أو الكرامة هي معيار الولاية، ورأس طبقات الأولياء يُسمَّى (الغوث)، وله الولاية على ديوان الأولياء».

ويسود الاعتقاد أن أضرحة الأقطاب تحظى بزيارات الرسول ﷺ؛ مما يُسهم في فعالية شفاعه أبطال الدلتا. وفي ضريح إبراهيم الدسوقي والسيد البدوي حجر مقدس عليه أثر قدم ضخمة يقول البعض إنها أقدام الرسول ﷺ.

والشفاعة مدخل الاعتقاد في الأولياء، ولنيل شفاعه الأولياء ينبغي اجتياز عدة أبواب، فالسيد البدوي يُطلق عليه «باب النبي»، والنبي ذاته ﷺ هو «باب السماء»، وتدرج مراتب الأولياء وفقًا لنفوذ كل منهم ومكانته، فالوليُّ «المحلي» يتشفع لأتباعه لدى القطب الذي يتشفع لدى الحضرة النبوية، وهذا التدرج يفسر نظام الموالد المصرية، ففي طنطا موالد صغيرة للأولياء أتباع السيد البدوي قبل الاحتفالات الضخمة بمولده، وعندما يجتمع أكثر من ولي يعرف هذا رابطة أولياء، ويُسهم في قوة الشفاعه ومدى قبولها وهو ما يفسر وجود بعض مقابر الأولياء حول ضريح القطب أو بالقرب منه، ففي طنطا أربعون ضريحًا، منها ستة أضرحة لبعض الأتباع.

\*\*\*

في المولد تُقام طقوس الشفاعه أو الافتتاح بزيارة إلى صاحب المولد، والزيارة ليست عابرة، بل هي لقاء حميم بين الزائر والوليِّ الذي عليه إكرام ضيفه ممن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، والزائر عليه تقديم النذور للإنفاق على الضريح، ووفرة تلك النذور دليل على صلاح الوليِّ وقدرته على الشفاعه؛ لذلك في مؤلفات مناقب الأولياء تعبيرات استُخدمت لتأكيد شعبية الوليِّ: «له نذر كثيرة»، «ينذر له الناس في الشدائد».

ولكل أضرحة آل البيت وأولياء الله (سدنة) أو خدام لهم الحق في نسبة من عائد صندوق النذور ويخضعون لنفوذ نقيب أو لإشراف مشيخة الطرق الصوفية. وكان نقيب الأشراف

يقوم بتعيين هؤلاء السدنة، ولا بد أن يكونوا على صلة قربي بالوليّ الذين سيشرّفون على ضريحه أو أن ينتمي إلى عائلة توارثت الأشراف على هذا الضريح، وفي افتتاح المولد إنشاد قصائد دينية وقراءة قرآن ومديح في الولي صاحب المولد. وبعد مراسم الافتتاح يأتي العبث مقرونًا بالخرافة التي يمارسها الدراويش الذين ادعوا التصوف في حين أنهم يُروّجون لخزعبلات يسمونها كرامات.

\*\*\*

«الحسين دعاني لبيته يا سي السيد».. جملة شهيرة قالتها الفنانة آمال زايد في فيلم (بين القصرين)، وهي تبرر سبب خروجها من المنزل دون إذن خاص من زوجها (سي السيد).

هذه العبارة هي تلخيص لعقيدة شعبية تقول إن الوليّ ينادي أتباعه وأنصاره وعليهم التلبية.. والاستعداد للزيارة بالتطهر والتطيب.. النداء يكون على هيئة رؤية، وتكون الرحلة إلى الضريح سهلة ميسرة ببركة سيدنا الوليّ، وعليه الوصول سريعًا، وبدء الطقوس من أولها؛ حتى لا يذهب بعد أن «ركب الخليفة وانفض المولد».

الزيارة تكون يومية طوال أيام المولد، وقد تكون أكثر من مرة في اليوم الواحد، فكما يقول المثل: «مَن زار الأعتاب ما خاب».. وعند المغادرة على المرید أخذ (الإذن) بالرحيل.

أمام الضريح الدعوات مستجابة، والدموع والآهات مباحة، والتشبث بحديد الضريح الطاهر لنيل البركة، فيمسحن بأيديهن التي لامست شبك الضريح الرءوس والأجساد؛ حتى تتعافى، وخلال ذلك تنساب آيات القرآن خصوصًا الفاتحة.

وفي المساء تُقام حلقات الذكر داخل السرادقات؛ حيث تتمايل الأجساد يمينة ويسرة في تناغم وإيقاع جسدي منتظم، وهي تقول: «الله حي». وبعد انتهاء هذا الطقس تخمد الأجساد وتهدأ الأرواح، وكأنها فرغت من الحساب، وكأن الهموم كلها قد مضت، والمشكلات قد حُلّت، والذنوب عُفرت، وريح الجنة لاح لهم في الأفق.

مشهد يُذكّرني دومًا بتحليل سمعته من د. يسري عبد المحسن أستاذ الطب النفسي عن الزار عندما قال لي إن المجهود البدني المبذول في الزار هو ما يساعد على تحسين الحالة المزاجية، وأعتقد أن هذا ينطبق على المجهود المبذول في حلقات الذكر.

\*\*\*

وتتشرك الموالد الإسلامية والمسيحية كذلك في التجاوزات التي تجري من شرب الخمر، وتناول المخدرات، وارتكاب الفحشاء، أو لعب القمار، وهو ما دعا كثير من الحكام على مر العصور إلى وقف الاحتفال بالموالد؛ كما حدث في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي والسلطان جمق المملوكي.

على الجانب الآخر تصدى رجال الدين المسيحي للانحرافات التي قد تشوب الاحتفال بالقدسين، فقام الأنبا شنودة رئيس المتوحدين في القرن الخامس الميلادي بتخصيص عظة، مندداً بالمساوي التي قد تنجم عن تلك الاحتفالات.

وذكر المقرئ ما كان يحدث في مولد (إصبع الشهيد) من مخالفات: «ولا يبقى من مُعز ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعون إلا ويخرج لهذا العيد، فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم، وتُصرف أموال لا تُحصّر، ويتجاهر هناك بما لا يُحتمل من المعاصي والفسوق، وتثور فتن وتُقتل أناس، ويُباع من الخمر خاصةً في هذا اليوم ما ينيف على مئة ألف درهم فضة، وكان اعتماد فلاحي شبرا دائماً في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد».

وكان سبب إقامة هذا المولد الاعتقاد في أن نهر النيل لن يفيض إلا بعد غسل إصبع أحد القديسين فيه، وكان الإصبع محفوظاً في تابوت خشبي عليه قفل من الحديد في كنيسة على النيل بمنطقة شبرا الخيمة، وكان الاحتفال يتم في اليوم الثامن من شهر بشنس القبلي الموافق لشهر مايو من كل عام، وكان يمتد أحياناً ليومين أو لثلاثة أيام، وكان الاحتفال يتم على صفحة النيل وشواطئه وجزره خصوصاً جزيرة الوراق. وفي عام ٧٠٢ هـ،

ونظرًا لما يجري في هذا المولد من مفاسد، ألغاه الأمير بيبرس الجاشنكير، وكان استادارًا  
للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، لكن السلطان الناصر أعاد الاحتفال مرة أخرى  
سنة ٧٣٨هـ. وألغى الاحتفال نهائيًا سنة ٧٥٥ هـ - ١٣٥٤م أثناء سلطنة الملك الصالح بن محمد  
قلاوون على يد الأمير صرغتمش، فهدمت الكنيسة وأحرق الإصبع بين يدي السلطان وذرروا  
رماده في النهر.

# الفصل الرابع والعشرون

## الخواجة ومولد سيدنا الولي

مثَّل (المولد) كونه ظاهرة فريدة في المجتمع المصري، نقطة جذب لهؤلاء الأجانب الذين وطئت أقدامهم أرض المحروسة.. بهرتهم تلك الاحتفالات العجيبة والتهافت على زيارة أضرحة الأولياء وبذل النذور والتمسح بالأعتاب، وهذا العشم البالغ في كرامات صاحب الضريح، وذلك الإيمان الراسخ بقدراته ووصوله حد الوساطة بين العبد والسماء. بدا المشهد بالنسبة للرحالة والمستشرقين بمثابة شفرة جديدة تحتاج إلى حل رموزها؛ كما فعل شامبليون بحروف الهيروغليفية، وقد رأوا كيف تُشَدُّ الرحال إلى مولد سيدنا الولي وكأنه «الحج الأصغر».

\*\*\*

كان أول تناوُل لظاهرة المولد في كتاب (عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم) للرحالة البريطاني (إدورد ولیم لین)، وقد ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب في لندن ١٨٢٦ م. وإذا كان الكتاب قد تناول الممارسات الشعبية والعادات، فقد أفرد مساحة لا بأس بها للموالد وبيَّن أن أهم الموالد في مصر آنذاك في القرن التاسع عشر هي: المولد النبوي، ومولد سيدنا الحسين والسيدة زينب في القاهرة، والسيد أحمد البدوي في طنطا، ومولد السيد إبراهيم الدسوقي في دسوق، والذي يبدأ بعد الاحتفال بمولد السيد البدوي بأسبوع.

وأشار (إدورد لین) إلى بعض الشعائر التي تُمارَس؛ كقراءة القرآن، وإقامة حلقات الذكر، وإضاءة المنطقة التي يُقام فيها الاحتفال بالمولد، وكان يتم ذلك على نفقة الأهالي أو سكان الحي أنفسهم. وأوضح لين اهتمام المسيحيين بالموالد الخاصة بأحيائهم، وإنارة

وأجهات منازلهم في هذه المناسبة مشاركةً منهم لجيرانهم المسلمين الذين لا يتأخرون عن مشاركتهم في احتفالاتهم الدينية المختلفة.

\*\*\*

أول دراسة متخصصة عن الموالد، كانت للباحثة (وينفرد بلاكمان) التي عاشت في مصر، وتحديدًا في الصعيد نحو ست سنوات. أبرزت دراستها (الاحتفالات السنوية) أن الموالد ليست مناسبات دينية، وإنما هي مناسبات اجتماعية للتسلية والاستماع للموسيقى وألعاب الأطفال والمراجيح والرقص الديني.

ثم جاءت دراسة جوزيف وليام ماكفرسون الذي قضى أكثر من نصف قرن في مصر ربطته خلالها علاقات بكثير من رجال الطرق الصوفية، وأبرزهم السيد أحمد مراد البكري شيخ مشايخ الطريقة الصوفية الذي أهداه ماكفرسون دراسته عن الموالد.

وُلد ماكفرسون ١٨٦٦ م في مقاطعة سومرت جنوب غربي إنجلترا، وتعلم في مدرسة التجار المغامرين ببريستول. وفي عام ١٩٠١ م فاز بوظيفة في وزارة المعارف المصرية مدرسًا لمادة الكيمياء لطلبة المدرسة الخديوية. وخلال الحرب العالمية الأولى عُيِّن ضابطًا ضمن فِرَق الهجانة لنقل المؤن للجنود في سيناء. تنقَّل بين عدة وظائف في الحكومة المصرية، فعمل مهندسًا بوزارة الزراعة، ثم مأمور ضبط بوزارة الداخلية، ثم ترك الخدمة واستقر في منزله ببيت السرايات حتى تُوفِّي في ٢٢ من يناير ١٩٤٦ م.

في عام ١٩٤١ م أصدر ماكفرسون كتابه (الموالد في مصر)، ومن خلاله قدّم وصفًا لـ(١٢٦) مولدًا في القاهرة والدلتا والصعيد، معتبرًا أن الموالد الشعبية ظاهرة اجتماعية، ورافضًا الدعوات المنتشرة لإلغائها، قائلًا: «الحكمة تقتضي أن يحتفظ المصريون بأعيادهم ومظاهر حياتهم الشعبية الأخرى، ويعتزون بها كل الاعتزاز، ويضنوا بها عن أن تضيع وتتلاشى في خضم موجة الحضارة الأوروبية الجارفة، فإن هذه المظاهر تبين الروح الشرقية، ولو أن

المصريين سمحوا بضياها لكان ذلك نذيرًا بضياع مصر وتلاشيها كونها دولة شرقية لها خصائصها ومميزاتها الذاتية التي تمنحها طابعًا خاصًا عن غيرها من الدول».

وأكد ماكفرسون أن ظاهرة الموالد متوارثة من الأجداد الفراعنة، مدللًا على ذلك بارتباط مواعيد الموالد بالأشهر القبطية، فمولد سيدي أحمد البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي يُقامان في شهر (بابة) إحياءً لعيد الإله (شو). كما يُحتفل بسيدي (الإمبابي) في اليوم السادس عشر من الشهر القبطي (بؤونة)، وهو نفسه موعد الاحتفال في مصر القديمة بيوم (الدمعة المقدسة).

كما أوضح ماكفرسون أن هناك تشابهًا كبيرًا في مظاهر الاحتفالات بين مصر القديمة ومصر الحديثة، منها تزيين السفن في مولد سيدي عبد الرحيم القنائي وأبي الحجاج القصري؛ على غرار ما كان يتم في عيد آمون.

\*\*\*

لم يكن دفاع ماكفرسون عن الموالد نابغًا من كونها ميراثًا اجتماعيًا وحسب، بل أيضًا لأنه رأى فيها وسيلة لإلهاء الشعب الفقير المعدم؛ بوصفها المتعة الوحيدة الباقية له: «إن الروح المصرية روح مرحة تميل بطبعها إلى الانطلاق واللهو والعبث، والموالد هي الفرصة الوحيدة التي تُتاح لعامة الشعب؛ كي يتناسوا همومهم وضيقهم من حياتهم الحالكة، فمنع الاحتفال بالموالد ليس من الحكمة في شيء؛ لأنه سيحرم الشعب مصدر سروره ويزيد بذلك من ثقل الفقر على نفوسهم، ويشعرهم بوطأة الحرمان؛ مما قد يدفعهم إلى الثورة على حكامهم الذين جمعوا في أيديهم كل الثروة وتركوا لهم الفقر كله.. وفي التاريخ شواهد كثيرة على أن الأعياد الشعبية كانت أبدًا عاملاً يُلطف حدة وقع الظلم على نفوس الطبقات الدنيا، ومنعها ساعد على انفجار مشاعر الحقد الدفينة، ومن أكبر الأمثلة على ذلك الثورة الفرنسية».

ويروي ماكفرسون واقعة منع الاحتفال بمولد الشيخ مظلوم عام ١٩٣٨ م؛ لأنه يوافق ذكرى رحيل الملك فؤاد، ويُقال إن هذا أغضب الشيخ وجاء في المنام لعدد من المسؤولين مهددًا ومتوعدًا إذا تم منع الاحتفال بمولده وكان للشيخ ما أراد.

\*\*\*

### السفير الهولندي الذي شُغِف بالتصوف: د. نيكولاس بيخمان

«الموالد أهم مظاهر التدين الشعبي المصري الإسلامي والمسيحي».

إذا كان كتاب الضابط الإنجليزي ماكفرسون، والذي صدر عام ١٩٤٠ م، أول دراسة متخصصة عن عالم الموالد كونها ظاهرة مصرية متفردة من وجهة نظر استشرافية غربية، فإن الساحة ظلت خالية من دراسة أخرى على مدار نصف قرن تقريبًا حتى ظهر كتاب آخر عام ١٩٩٠ م عن الظاهرة نفسها بالإنجليزية والهولندية لمؤلفه د. نيكولاس بيخمان سفير هولندا السابق في مصر.

الكتاب صدر بعنوان (الموالد والتصوف في مصر)، وقدم المركز القومي للترجمة عام ٢٠٠٩ م نسخته العربية التي ترجمها الروائي والمترجم رءوف مسعد وهو الذي شارك المؤلف رحلاته في شرق مصر وغربها.. شمالها وجنوبها؛ بحثًا عن الأولياء وحضورًا للموالد التي لا تنقطع احتفالاتها على مدار العام من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى أخرى، وهو ما دفع د. نيكولاس إلى اعتبار الموالد امتدادًا لظاهرة تعدد الاحتفالات الدينية الفرعونية، ولسمة اتساع هوة الخلاف في مجالي الثقافة والتدين بين النخبة والجماهير الشعبية من عهد الفراعنة، فالعالم الديني للنخبة كان مختلفًا عن نظيره لدى العامة الذين كانت لهم آلهتهم ودياناتهم، وما زالت -وفق رؤيته- الجماهير العريضة تمارس تدينها المختلف عن تدين النخبة التي لا تعرف شيئًا فيما يتعلق بالأولياء.

\*\*\*

وُلد نيكولاس بيخمان في هولندا عام ١٩٣٦ م. اختار مجال الدراسات العربية والإسلامية في جامعة ليدن بهولندا. التحق بالعمل في وزارة الخارجية الهولندية وعمل في مراكز مختلفة من بينها: سفير لهولندا في الأمم المتحدة، ثم عمل سفيراً لبلاده في مصر خلال الفترة ١٩٨٤ - ١٩٨٨ م.

كانت لي عند صدور الترجمة العربية من الكتاب الفرصة للقاء السفير الهولندي؛ لأتعرف رؤيته لعالم الموالد، ودار بيننا الحوار التالي، الذي نُشر على صفحات مجلة نصف الدنيا يونيو ٢٠٠٩ م:

- لاحظت أن الكثيرين من أعضاء السلك الدبلوماسي يهتمون بالتراث الشعبي المصري وبالتصوف الشعبي، وأقصد به ذلك التصوف الذي تترجمه الموالد والاحتفالات الدينية.. وقد قَدِّمت سفيرة بولندا السابقة (يوانا فرانشييسكا) دراسة مستفيضة عن التصوف لدى ابن عربي.. هل هذه مجرد مصادفة؟

لا ينبغي أن ينحصر عمل السفير في إجراء اللقاءات مع السياسيين، بل عليه أن يسير على قدميه ليتعرف الناس في القرى والنجوع، وهذا ما فعلته تحديداً.. لقد تحركت في شوارع مصر كشخص عادي وليس كسفير.. ذهبت إلى القرى وكنت أتخلص من أعباء مسؤولياتي مع الناس وأتباع الطرق الصوفية.

- كيف بدأت قصتك مع عالم التصوف وهو كالبحر يحتاج إلى ملاح ماهر للغوص فيه، وأعتقد أن دراساتك السابقة في الجامعة قد أفادتك في هذا الصدد؟

بالتأكيد الدراسات العربية والإسلامية أفادتني، ولكن عالم الموالد كان بكرةً بالنسبة لي.. كنت أعرف عن التصوف ومدارسه وأقطابه، ومنهم: جلال الدين الرومي، وابن عربي، ولكنني لم أتصور أن هذه الأفكار ما زالت كائنة في السلوك اليومي. بدأ تعرُّفي الموالد بالمصادفة عندما كنت أزور منطقة الحسين عام ١٩٦٥ م، والواقع أنني انبهرت بكل ما شاهدته: الألوان المبهرة، والرقصات ذات الإيقاعات المنتظمة، والموسيقى

المبهجة، وتفاعل البشر، ولكن المسألة لم تتجاوز حد الإعجاب، أما فكرة إجراء دراسة متخصصة عن هذا العالم فلم تواتيني إلا عندما عدت سفيرًا لبلادي في مصر في الثمانينيات، والواقع أن زوجتي (ميرا) شجعتني كثيرًا على هذه المهمة، خصوصًا أنه لم يكن قد صدر كتاب متخصص عن الموالد مذ كتاب ماكفيرسون عام ١٩٤٠ م بعنوان (الموالد في مصر)، وهكذا بدأت في إعداد الكتاب الذي استغرق حوالي العام والنصف؛ حيث درست تاريخ الموالد الإسلامية والمسيحية وتاريخ أصحابها من أولياء وقديسين، وتعمقت في القراءة عن التصوف وأهل الطرق الصوفية الذين يصل تعدادهم في مصر إلى نحو ستة ملايين شخص.

### • **خمسون عامًا هي الفارق الزمني بين صدور كتاب ماكفيرسون وكتابك.. ما ملامح التغيير التي طرأت على ظاهرة الموالد خلال تلك الفترة؟**

لقد ذكر ماكفيرسون مولد الرفاعي بوصفه أهم الموالد الدينية في مصر، في حين لم يهتم بذكر مولد السيدة زينب وهو من أهم الموالد اليوم إلى جانب مولد الرفاعي. كما اختفى عدد كبير من الموالد التي ذكرها ماكفيرسون وحصرها في نحو ١٢٦ مولدًا.

### • **هل سجلت عدستك فوارق أساسية في مظاهر الاحتفال بالمولد في ريف مصر عن حضرها عن بدوها؟**

هناك بعض الطقوس في المولد والتي ترتبط بكل بيئة، ففي الصعيد نجد أن التحطيب جزء أساسي من المولد على موسيقى المزممار والطبل البلدي والربابة، إلى جانب سباق الخيل أو المرماح، وفيه يقوم كل فارس بإظهار براعته في الفروسية من خلال استعراض فردي. أما بدو الصحراء فيضعون الكسوة الجديدة لضريح الولي في هودج على ظهر جمل يُدْكَرنا بزفة المحمل الخاصة بكسوة الكعبة. أما دسوق، ولأنها قريبة من ميناء رشيد؛ فهي مليئة بالأسماء إلى جانب الحمص، وهو سمة مشتركة في كل الموالد تقريبًا.

- التبرك بالأولياء سمة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين في مصر.. وهناك الكثير من نقاط التلاقي، بل هناك أحياناً تقديس للأولياء أنفسهم.. إلى أي مدى تصدق تلك المقولة من خلال معاشتك لواقع تلك الموالد؟

اعتقادات المسلمين والمسيحيين متشابهة بالنسبة للأعمال الخارقة المنسوبة للأولياء والقديسين، وهذه تحديداً لها جذور في الاعتقادات الدينية من العصور الفرعونية، فمصر التي كانت المهد الأول لديانة التوحيد عرفت الديانات التعددية، وكانت الاحتفالات في مصر القديمة متعددة تعدد الموالد اليوم، وطبقاً لبعض الوثائق كان يوجد ١٦٢ يوماً في السنة تُقام فيها احتفالات مختلفة في عهد رمسيس الثالث. كما يُوجد تشابه في حجم البشر الذين يزورون الموالد وفي حجم الأنشطة التجارية والمسلية التي تتزامن مع المولد، مثل: عمل البرانيط الورقية، وألعاب النيشان. بينما تنفرد الموالد المسيحية بتجارة مربحة هي تجارة الأيقونات والحلي الرخيصة التي وُضعت عليها صور القديسين والقديسات، إضافة إلى رسم الوشم لقديس أو المسيح المصلوب، في حين تكثر عمليات الطهور للصبية في موالد المسلمين. لكن هناك اختلاف جوهري يتمثل في أن القديسين في المسيحية هم من تقررهم الكنيسة، ولكن أولياء المسلمين ليسوا في حاجة إلى قرار من المؤسسة الدينية؛ فالولي هو من نُسبت إليه كرامة وصار له ضريح وقبة، وبالتالي يندر أن توجد قرية في مصر لا يكون لها ضريح... كما أن جماهير الموالد المسيحية تختلف في تركيبتها عن جماهير المولد الإسلامي؛ بسبب غيبة عنصر الطرق الصوفية الذي يجتذب جماهير عريضة؛ لذا تجد العائلات هي المكون الأساسي للمولد يقضون أسبوعاً أو أكثر في خيام منصوبة يؤجرها الدير المُقام فيه المولد، كما تغيب في الموالد المسيحية الموسيقى، ويقتصر الأمر على التراتيل (القداست).

- ما الذي سحرك في عالم المولد؟

الأغاني والموسيقى وحلقات الذكر والمعاني الروحية التي يتضمنها والنابعة من التصوف.. بهرتني الألوان والرقصات وحميمية البشر.

### • ما أهم الشخصيات التي قابلتها وكانت عونًا لك في تعرّف عالم المولد؟

هناك شخصان لعبا دورًا أساسيًا في مشروعني الأول: رءوف مسعد الكاتب والصحفي الذي قام بترجمة الكتاب إلى العربية، لقد التقيت به بعد فترة من عملي كسفير؛ حيث كان يتردد على المعهد الهولندي في القاهرة للدراسات الإسلامية والقبطية، وقد بدأ بمرافقتي في رحلات كثيرة؛ حيث تمتعنا بما نراه. كما أنه قام بالترجمة لي في حواراتي مع الآخرين. أما الشخص الثاني فهو الشيخ زاهر أبو زغلل الرفاعي والذي التقيت به في مولد السيدة زينب في بداية رحلتي مع الكتاب، وكان شخصًا ودودًا، وقدم لي كل العون، وشرح لي مبدأ التصوف باعتباره الطريق المباشر والحميم للتواصل مع الله؛ من خلال ممارسة الشعائر ومحبة الله التي تملأ قلوب أهل التصوف، وحدثني عن تسامح أهل الطريق واحترامهم لديانات وعقائد الآخرين.

# الفصل الخامس والعشرون

## طُرُق صوفية مندثرة

البكتاشية.. تكية بلا دراويش في حضن المقطم

بدأت في تركيا وعرفتھا مصر في القرن الـ١٣، وانقرضت بعد يوليو ١٩٥٢ م.

أحمد رامي وشادية من أهم الأتباع.

وأسرة محمد علي دعمتها بالأوقاف.

كانت قبلة السائلين والنسوة الراغبات في الإنجاب.

دُفِن بها الأمير كمال الدين حسين وشقيقنا الملك الألباني زوغو.

مغارة في بطن جبل المقطم تشبه مغارة (علي بابا) بما فيها من سجاجيد إيرانية ثمينة تكسو الجدران ومساند من ريش النعام وثريرات فخمة وشمعدانات ضخمة. غزلان تمرح هنا وهناك، طاووس وأرانب بيضاء، وحديقة مزهرة تتوسطها نافورة رخامية، وحركة دءوب دون صخب لأناس يرفلون في جلايب بيضاء وعلى رأس كُُلِّ منهم طاقة عالية من اللباد الأبيض المضلع تُعرَف بـ(القاوون). سكون وسكينة بين قرآن يُتَلَى ورسوم مختلفة على الجدران للحسن والحسين والأنساب والأذكار. مغارة سكنها زمرة من الدراويش من أصل أربعين درويشًا أتوا إلى مصر قديمًا من الأناضول في القرن الـ١٣ هجري.

وعلى تلك التكية تردد مريدو (الطريقة البكتاشية) من صفوة المجتمع؛ كالفنانة شادية، والشاعر أحمد رامي، ومجموعة من أمراء الأسرة العلوية، دراويش خلبت حياتهم لب عدد من الفنانين المصريين، ومنهم: أدهم وسيف وانلي، وعدد من الرسامين العالميين، ليسجلوا

في لقطات تاريخًا عريضًا من الدين والسياسة والفن والخرافة أيضًا؛ حيث كانت التكية ملجأً للسائلين والراغبين في الإنجاب.

\*\*\*

تاريخ كنت محظوظة إذ تعرفته من شاهد عيان كاد أن يكون شيخًا آخر من شيوخ الطريقة غير أنه أراد أن يكون درويشًا في عالم الفن، ولكنه درويش بلا تكية.. هو الفنان التشكيلي عصمت داوستاشي الذي عاش أيامًا لا تُنسى في التكية طفلًا وشابًا.. عاصر دراويشها وآخر شيوخها (سري دده بابا).

كانت كلمات داوستاشي بمثابة إطلالة لي على عالم يشبه عوالم روايات ألف ليلة وليلة، ولندخل إلى هذا العالم العجيب الذي بدأ على النيل في تكية قصر العيني عام ١٤٠٤ م، ثم انتقل إلى المقطم، وأخيرًا المعادي.

\*\*\*

البكتاشية فرقة صوفية تركية تُنسب إلى السيد محمد بن إبراهيم اتا، الشهير بالحاج بكتاش والمُتوفى عام ١٣٣٦ م، وكما ذكر جمال بدوي في دراسة له عن (الطريقة): إن الطريقة خليط من الطرق القلندرية واليسوية والحيدرية التي سائرت البيئة التركية، وللحاج بكتاش كتاب عربي اسمه (مقالات) يبدو منه تشيُّعه لفكرة الاثني عشرية.

بدأت علاقة الطريقة بالسياسة عندما سار السلطان أورخان (١٣٢٦ - ١٣٨٩ م) مع فرقته الإنكشارية إلى الحاج بكتاش طالبًا منه أن يباركهم، فوضع الشيخ يده على رأس جندي، ودعا لهم قائلاً: «فليكن سهم إنكشارية، اللهم اجعل وجوههم بيضاء وسيوفهم فواصل ورماحهم قاتلة، واجعلهم منتصرين قاهرين لأعدائهم».

ومن هنا سُمى الإنكشارية أنفسهم بالبكتاشية. وأقيمت تكية بكتاشية قرب كل معسكر للانكشارية، وتسلطت البكتاشية على الإنكشارية تسلطًا تامًا، إلى أن قضى السلطان محمود

الثاني على الإنكشارية ١٨٢٦ م، فانتشرت الإنكشارية في صفوف الشعب التركي؛ بسبب ما كان فيها من لذة روحية، ولما امتاز به شيوخها من رقة الحاشية، وحلو الحديث، والبعد عن الجدل العنيف، وكانت تكاياها مثلًا للنظافة والأناقة.

### الأربعين صوفيًا في المحروسة

فصول الحكاية على أرض المحروسة بدأت -كما ذكرها محمد الأرنؤوطي في كتابه (الجالية المخفية فصول من تاريخ الألبان في مصر)- عندما شفا قائد الدراويش (قيغوسز) حاكم القاهرة من مرض أصابه؛ فبنى له الحاكم تلك التكية على ساحل النيل، وكانت تُعرف بتكية (قصر العيني)، وقد ذكرها الرحالة أوليا جلبي الذي زار القاهرة ١٦٧٢ م، وقال إنها تشبه في عظمتها وجمال بساتينها ومبانيها وما بها من تحف (إرم ذات العماد).

ولما أمر السلطان محمود الثاني بإلغاء الإنكشارية وإغلاق التكايا، أُغُلقت تكية قصر العيني، وغادرها الدراويش مؤقتًا إلى قصر المناسترلي، ثم تفرقوا في بلدان مختلفة، حتى عاد الدراويش (صادق) من الأناضول حاملاً لقب (بابا). وفي عهد الوالي سعيد باشا تم تخصيص مغارة المقطم مكانًا لتكية البكتاشية؛ حيث دُفِن هناك دراويشهم منذ القرن الـ١٥ في كهف السودان (سُمِّي بذلك نسبةً لمن حفروه من السودانيين في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله). وفي عام ١٨٧٣ م قام البابا (عباس) بتجديد التكية، حتى غدت تحفة للناظرين.

أما الرواية الشعبية فتختصر هذا التاريخ في قصة تبدأ عندما أتى أربعون صوفيًا بكتاشيًا من الأناضول إلى زعيمهم الروحي (العيني) في مصر، ولأنه كان بعين واحدة؛ فقد وضع أولئك الصوفية عند لقائه حجابًا على أعينهم احترامًا وتبجيلًا له؛ فأعجب بذكائهم ومنحهم قصرًا ليكون مقرًا لهم، ولما شعر كبير الدراويش بدنو أجله طلب أن يُدْفَن في المقطم، وحول قبره كوّن الدراويش تكيتهم الجديدة، ولأن اسم كبيرهم كان صعب النطق؛ سماه المصريون الشيخ عبد الله المغاوري؛ نسبةً إلى المغارة التي دُفِن بها.

هذه هي القصة التي روتها (شبرا هانم الكريتيلة) لحفيدها عصمت، وكانت (شبرا) قد فرت مع أسرتها من اضطهاد اليونانيين المسيحيين للمسلمين الأتراك، واستقرت في الإسكندرية. وهناك وُلد عصمت حاملاً اسم عصمت إينونو رئيس وزراء تركيا في عهد كمال أتاتورك. أما داوستاشي فهو الاسم الشعبي للقب جده التكريتي (داوستاكي)، وقد اتخذهُ اسماً فنياً لازمه حتى الآن.

\*\*\*

### الفنان التشكيلي عصمت داوستاشي:

#### كدت أكون الشيخ الأخير للطريقة في مصر

من قصر العيني إلى المقطم ثم تكية المعادي تكمن تفاصيل الحدوتة؛ كما يرويها الفنان التشكيلي عصمت داوستاشي:

لقد كنت أتردد مع جدتي ووالدي على تكية الطريقة البكتاشية، وهي طريقة صوفية شيعية اثني عشرية، وقد كانت الفنانة شادية من مريديها. كانت زيارتي للمغارة بطرقها الملتوية في قلب جبل المقطم، والسجاد الإيراني الذي يغطي أرضياتها والغزال الهائم في حديقته أشبه برحلة إلى عالم ألف ليلة وليلة، وكنت دائماً أشعر بهيبة أحمد سري بابا دادا شيخ الطريقة الذي كان يريدني أن أنضم درويشاً للتكية، إلا أنني لم أفعل.

وكنت أقضي كل عام عدة أيام في التكية إبان احتفالات عاشوراء، حيث تُذبح الذبائح وتُصنع البليلة بالقرفة في أوانٍ نحاسية كبيرة. وفي أوقات الصلاة وخصوصاً في المساء تُقام حفلات دينية لتلاوة آيات القرآن الكريم أو الأذكار والتسابيح، ولم يكن مسموحاً لنا -نحن الأطفال- بالمشاركة. كنا نلعب هنا وهناك في أرجاء التكية سواء داخل المغارة ومعظمها مقابر من الجانبين لملوك وأمراء و دراويش أو في نهاية المغارة حيث قبر الشيخ المغاوري الذي يزوره أهل القاهرة للتبرك به، خصوصاً النساء؛ طالبات بركة الحمل، وكنت

أراهنّ يتمرغن أمام المقام، وتظل أجسادهن تندرج حتى باب المغارة. كان أجمل الأمكنة الحديقة الواسعة المطلّة على بانوراما كاملة لمدينة القاهرة، خصوصًا حي القلعة، وجامعي السلطان حسن والرفاعي، وامتداد شارع محمد علي، وحي السيدة زينب، والأزهر.

كان أسبوع لعب وفسحة ومنتعة بالنسبة لي كوني طفلًا صغيرًا أدعب الغزال الصغير بالحديقة وأسمع أصوات اليمام والكروان وأتمتع بالزهور الجميلة، وما زلت أحتفظ بنقودهم وهي قشور دائرية من صخور الجبل.

ويصف (داوستاشي) التكية فيقول: «كان بابها من الخشب السميك المزخرف، وهناك لافتة محفورة من الرخام أعلى الباب عليها اسم التكية، وعندما ندخل نصعد درجات ودرجات حتى باب المغارة، والتي تتجه إلى بطن الجبل في طريق مرتفع، وحيث تحيط بها غرف الدراويش والبابا، بعضها مبنية بطول الجبل، والأخرى محفورة في جدران المغارة، وكان مكان نومي حجرة مرتفعة في أحد جدران المغارة مفروشة كلها بالسجاجيد والأكلمة حتى جدرانها، وكنت -رغم الخوف الذي يعتريني من فكرة المغارة وما بها من مقابر وأضرحة- أشعر بالاطمئنان حيث أنام في حضن جدتي نينا شبرا».

### روح تكية المغاوري في المعادي

ومن المقطم إلى المعادي، تنتقل ذاكرة داوستاشي وهو يقول: بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م أصبح جبل المقطم تكتة عسكرية، ونُقلت رفات بابا سري المدفون في المقطم إلى مقابر البساتين، بينما انتقلت التكية إلى إسطبلات الأمير عمرو إبراهيم بالمعادي، حيث حوّلها بابا سري إلى جنة جميلة بها حدائق، ونوافير، ومعلقات من السجاجيد النادرة والأسلحة القديمة، وغيرها من التحف والمفروشات، وكان روح تكية المغاوري عادت من جديد.

وأذكر أن بابا سري أصر في إحدى زياراتي لتكية المعادي في صيف ١٩٦٢ م، وكنت أبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، على أن أرتدي أنا وأبي وبعض الضيوف ملابس الدراويش، وأخذت صورًا تذكارية لعلها آخر صور الثّقُطت في تكية المعادي ولبابا سري الذي دخل بعد ذلك في

غيبوبة السكر ومات في المستشفى. كان زي الدراويش مكونًا من جلباب يتوسطه حزام عريض كان يُوضَع فيه فيما مضى بعض الأشياء وربما أسلحة وعصا البكتاشية، وفوق هذا الجلباب والحزام القماش الملفوف على الوسط ارتديت عباءة خفيفة من القطن (ثقيلة من الصوف شتاءً)، ثم ارتديت طربوشًا أو عمامة البكتاشية وهي ذات ١٢ ضلعًا بعدد الأئمة الاثني عشر في المذهب الشيعي، ثم وضعت حول رقبتني قلادة من حجر لامع أشبه بحجر التلك على شكل نجمة اثنتي عشرة عشرينية هي الأخرى.

وظلت التكية عالمًا له أثر في نفسي، رغم أنها انتهت تمامًا بعد وفاة البابا ورحيل آخر دراويش التكية (الشيخ رجب) إلى أمريكا، وافتتاحه تكية هناك حيث ما زالت الطريقة مستمرة في تركيا وبعض دول العالم.

سر العلاقة بين الطريقة وأسرة محمد علي

كان عام ١٨٨٥ م مفصليًا في تاريخ الطريقة بمصر حيث تولاهها البابا (حيدر محمود) الألباني، وكان هذا بداية عهد توافد الشيوخ الألبانيين عليها، وكانت هذه فرصة عظيمة لتعزيد مكانة الطريقة في مصر في ظل حُكم محمد علي الألباني، وكما ذكر الجبرتي؛ كان من رجال محمد علي باشا المقربين عبد الله بكتاش الترجمان.

ويُقال إن زوجة الخديو توفيق خصصت منحة شهرية قدرها خمسون جنيهاً للتكية، كما كان من أتباعها الأمير مصطفى فاضل بن إبراهيم باشا.

وقام الأمير كمال الدين حسين، نجل السلطان حسين كامل، بتجديد التكية والمحراب القديم المعروف بمحراب ابن الفقاعي وهو محراب فاطمي. وكان ضريح الأمير في التكية قبل نقله لمقابر العائلة في البساتين. وقد أوقف الأمير كمال الدين حسين بعض أملاكه للتكية، وبعد رحيله خصصت زوجته نعمت نفقة شهرية قدرها ١٦ جنيهاً وكبشين في كل عيد، وتكفلت بنفقات احتفالات عاشوراء كل سنة. وكان الملك فاروق أيضًا من مريدي الطريقة منذ كان وليًا للعهد.

وكما يقول محمد الأرنؤوطي في كتابه (الجالية الألبانية في مصر): «ففي ظل حروب البلقان (١٩١٢ - ١٩١٣ م)، وتدمير التكايا البكتاشية استقبلت تكية القاهرة دراويش تلك التكايا، ومع الظروف التي مرت بها ألبانيا من حرب عالمية ثم استقلالها ١٩٢٠ م، هاجر العديد من الألبان في ظل الظروف السياسية والاقتصادية المتوترة إلى مصر وأمريكا. وفي عام ١٩٢٥ م لما قرر أتاتورك إغلاق التكايا بالأناضول، ومنها تكية الولي بكتاش، حيث مقر الرئيس الأعلى للطريقة في العالم، أصبحت تكية تيرانا في ألبانيا هي التكية الأم عام ١٩٣٠ م. وبعد احتلال إيطاليا لألبانيا ١٩٣٩ م كانت تكية البكتاشية بالقاهرة كالسفارة للألبان في مصر. وطاف بابا سري على سفارات العالم للتنديد بالاحتلال الإيطالي لألبانيا. ومع استحالة أن تمارس البكتاشية نشاطها بحرية في ظل الحكم الشيوعي أصبحت تكية القاهرة هي التكية الأم للطريقة في العالم. وبعد قيام الثورة وإبعاد فاروق والملك الألباني زوجو الذي دُفنت شقيقته الأميرتان روحية ونافية في التكية، فقدت التكية مصادر الدعم في القاهرة، خصوصًا بعد سيطرة الدولة على الأوقاف، وأضحت الأوقاف لا تُقدّم للتكية سوى ١٠ جنيهات شهريًا وتوجه سري دده بالشكوى لعبد الناصر دون جدوى. وبعد وفاة سري دده لم يتبقّ بالتكية سوى درويشين سافرا إلى التكية في ديترويت بأمریکا التي أسسها بابا رجب».

فتوى الشيخ مخلوف

رغم أن قانون الطريقة البكتاشية - كما وضعه أحمد سري دده بابا آخر الشيوخ البكتاشية في مصر - يحظر على رجال الطريقة العمل بالسياسة؛ فإن علاقتها بالأسرة المالكة في مصر، فتح عليها أبواب الانتقاد، حتى إن الشيخ حسنين محمد مخلوف أصدر فتوى بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٩٤٩ م انتقد فيها البكتاشية قائلاً في فتواه: «لا نعدهم من الصوفية، ولا من أهل السنة والجماعة، ولا نقرهم على تقاليدهم، وفيها ما يباه الدين؛ كالسجود، ونحوه، ونعدهم من المبتدعة..»

«ولا نرى أن تعترف بهم مصر رسميًا، وهي القائمة على حماية الدعوة الحققة إلى الله والهدي النبوي الصحيح منذ انقرضت الدولة الفاطمية الشيعية، وقامت الدولة الأيوبية السنية إلى الآن. ويقول مؤرخ تركي إن البكتاشية في الحقيقة دعوة إباحية وإن السلطان محمودًا حين أراد التخلص من الإنكشارية؛ لعظم مفاستهم وأخطارها رأى لهذا السبب نفسه أن يتخلص من البكتاشية في سنة ١٢٤١ م، ففاهم من الآستانة، ومنهم المؤرخ الرسمي للدولة محمد عطا أفندي سامي زاده وكان بكتاشيًا..»

هكذا جاءت فتوى أحد علماء الأزهر حول البكتاشية، لكن هذه الفتوى لم تكن سببًا في نهاية الطريقة، بل كانت الأسباب السياسية هي السبب.

### تكية الدراويش تكنة عسكرية

بعد العدوان الثلاثي صدرت أوامر عسكرية بنقل دراويش التكية من المقطم لتتحول إلى تكنة عسكرية وإن تم تسجيل المغارة كأثر.. ولم يتبقَّ من تاريخ هذه الطريقة في مصر سوى لوحة رسمها المستشرق الفرنسي جان ليون جيروم لدراويش التكية في قصر العيني، وبعض الصور للرحالة والرسامين، منها مجموعة التقطها جورج روجر ١٩٥٣ م.

وأخيرًا الوصف الذي تركه أحمد سري بابا، لتكية المغاوري بالمقطم: «التكية العلية البكتاشية واقعة في مصر المحروسة في سفح جبل المقطم وراء قلعة صلاح الدين، وهي عبارة عن مجموعة من حدائق غناء وعدة مغارات يصعد إليها راغب الزيارة نحو ثلاثين درجة، فيجد الباب العمومي، وعليه حجرة بديعة تطل على أطلال القاهرة والقلعة وقبور الخلفاء والنيل وأهرامات الجيزة وسقارة... وتُبتت وراء الباب العام من الداخل لوحة من الرخام تحتوي بيتين من الشعر بالتركية ترجمتها: يفتح هذا الباب العظيم مواجهًا للعرش الأعلى، حيث تفتح في وجه المؤمنين جنان النعيم، كلما فُتح هذا الباب فُتح باب السماء، وقرأ الملائكة: بسم الله الرحمن الرحيم».

المولوية في مصر.. قبة ورقصة

رقصة وقبة هي كل ما تبقى من الطريقة المولوية العثمانية في مصر، ربما لأنها جاءت بحد السيف أو بالأحرى اعتُبرت تابعة للسلطة؛ فلم يعتنقها المصريون، وربما لأن أشعار هذه الطريقة الصوفية كانت في معظمها بالفارسية، أو لأنها لم تجد ذلك الصدى الروحي في وجدان المصريين كما فعلت تلك الطرق الآتية من المغرب العربي والتي حفرت لها في قلوب المصريين مكانًا ومكانة لم تُمَحَ بمرور الزمن، وربما لأن الطرق عثمانية الجذور انتهت في بلدانها بقرار سياسي من كمال أتاتورك ١٩٢٣ م، الذي رأى في استمرار تلك الطرق ما يتناقض واتجاهاته لعلمنة تركيا.

أيًا كان السبب، فقد انتهت الطريقة المولوية في مصر وبقيت الرقصة التي دأبت هوى المصريين ووجدوا فيها أصداء الرقصات الجنائزية على جدران المعابد ورقصات الآلهة، ثم كان للمصريين دورهم في تمصير رقصة المولوية فيما عُرف برقصة (التنورة).

المتخصصون في تاريخ الدولة العثمانية يؤكدون أن ألوية الطرق الصوفية كانت تسبق بيارق جيوش الغزو لتمهد لها طريق العقول والقلوب.. ويُروى أن هذا ما فعله سليم الأول حين جاءت قوافل أتباع المولوية إلى القاهرة تمهد له الطريق. فلما دخل القاهرة أسس في مصر أول تكية لل دراويش المولوية، وأطلق عليها «السماع خانة» التي ما زالت قبعتها شامخة بجوار قصر الأمير طاز في السيوفية.

أقيمت «السماع خانة» على أنقاض المجموعة المعمارية لسنقر السعدي وقصر يشبك، والتي كانت عبارة عن خرائب قبل أن يُقدّمها الأمير يوسف سنان كوقف لشيوخ المولوية، ليقوموا هم -بفضل الأوقاف الإضافية التي حصلوا عليها بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- بترميمها واستكمالها؛ لتأتي مشابهة لتكيتهم الأم في قونية، وقاموا بإنشاء قاعة السماع خانة لإقامة شعائرهم. وكانت سماع خانة القاهرة، آخر سماع خانة ظلت تعمل بعد قرار إغلاق التكايا وحل طوائف الدراويش التركية بأمر كمال أتاتورك عام ١٩٢٥ م، فقد شاركت المجموعة المولوية بالقاهرة في مؤتمر الموسيقى العربية الذي عُقد في القاهرة ١٩٣٢ م. وفيما بعد وفي حوالي عام ١٩٤٥ م، تم حل الطائفة وهُجرت السماع خانة.

\*\*\*

تُنسب الطريقة المولوية إلى جلال الدين الرومي، وهو أكثر من صوفي وأكثر من شاعر، ويظل اسمه أكثر رحابةً من تصنيفه في نطاق جغرافي، فهو شاعر عالمي تعدى شعره حدود الزمان والمكان. حتى أصبحت دواوينه هي الأكثر مبيعًا حول العالم، فقد سجل نجوم الغناء أشعاره بأصواتهم، مثل: مادونا، وديمي مور.

وترجع بداية معرفة الغرب بالرومي إلى عام ١٩٩٥ م عندما قام الشاعر الأمريكي كولمان باركس، وهو أستاذ اللغة الإنجليزية في جامعة جورجيا، بترجمة أشعار الرومي، قائلاً: «إن نفحات قصائد الرومي تحمل في ثناياها جوهر الرسالة الإسلامية، وهي التسليم بقضاء الله».

وُلد جلال الدين الرومي، الذي ينتهي نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق h، في مدينة بلخ في خراسان (أفغانستان حاليًا) (١٢٠٧ م)، واشتهر بين الباحثين بلقب الرومي؛ نسبةً إلى أرض الروم؛ أي الأناضول، التي هاجر إليها وقضى بها معظم حياته، وفي عمر الثالثة انتقل مع أبيه إلى بغداد للدراسة في المدرسة المستنصرية، ثم رحل معه إلى دمشق ومكة وأذربيجان، حتى استقر في قونية عام ١٢٢٦ م، وتلقى مبادئ الفكر الصوفي على يد المتصوف الكبير بهاء الدين ولد، الذي اصطحبه إلى نيسابور لزيارة الصوفي الفيلسوف فريد الدين العطار الذي احتضن جلال الدين بين ذراعيه، وقال لوالده: «إن مستقبلًا عظيمًا ينتظر هذا الولد».

الأستاذ وتلميذه

في حياة كُلِّ منا لحظات فاصلة أو لحظات تنوير، نصح بعدها غير ما كنا عليه قبلها، وهذا ما حدث تحديدًا مع الرومي الذي اشتهر بالبراعة في تدريس العلوم الإسلامية، حتى التقى الشاعر الصوفي الجوال شمس الدين التبريزي ٦٤٢ هـ؛ فتبدل مسار الرومي، وأصبح شاعرًا ملهمًا يسبح في ملكوت السماء، ويخاطب الروح ويغزل من الكلمات قصائد رائعة، وقد عبّر

الرومي عن تلك العلاقة الروحية التي ربطته بأستاذه في مجموعة رسائل وجهها إلى  
شيخه (شمس الدين تبريزي).

لكن دوام الحال من المحال؛ فقد قُتِلَ كُلُّ من التبريزي والابن الأكبر لجلال الدين الرومي  
«علاء الدين»؛ ففقد الرومي الأستاذ والولد ورثاهما بمجموعة قصائد أطلق عليها اسم  
أستاذه (شمس تبريز).

(المثنوي) هو أعظم آثاره الشعرية التصوفية الفلسفية، ويقع في ستة أجزاء، ويضم زهاء  
خمسة وعشرين ألف بيت على وزن واحد، وهو ديوان شعر وفلسفة وأخلاق ودين  
وتصوف، وكلمة (مثنوي) بالعربية تعني النظم المزدوج؛ أي الذي يتفق فيه شطرا البيت  
وتتغير القافية في كل بيت.

هذا الكتاب نظمه الرومي فيما بين عامي (٦٥٧ - ٦٦٢ هـ)، وافتتحه بالحديث عن الناي الذي  
أصبح فيما بعد شعارًا للمولوية التي أسسها الرومي في تركيا وانتقلت منها إلى آسيا  
وفارس ومصر.

وبدأ في كتابه الحديث عن سبب الآلام ومصدر الأوجاع الأول عندما يصور ألم الناي الذي  
اقطع من شجرته، وأصبح قصبه يتموج غناؤها بحنين يذوب عشقًا للانسجام مع الأصل  
والأنس فيه، وتقول الأبيات:

استمع للناي كيف يقص حكايته

إنه يشكو آلام الفراق قائلاً

إنني منذ قطعت من نبت الغاب

والناس رجالاً ونساءً يبكون لبكائي

إنني أنشد صدرًا مزقه الفراق

حتى أشرح له ألم الاشتياق

فكل إنسان أقام بعيدًا عن أصله

يظل يبحث عن زمان وصله

هكذا يرى مولانا الرومي أن البعد عن رب العزة هو الألم الأكبر. أما الألم الأصغر الذي نستشعره في الحياة مثل الفرح سواء بسواء، والفرح والألم شاهدان على ألوهية الله تعالى؛ كالإيمان والكفر.

\*\*\*

أخذت المولوية في التوسع والانتشار حتى شهد عام ١٤٩١ م تسجيل ٨٦ تكية مولوية. وفي أعقاب الفتح العثماني كان بديهيًا أن تنتشر الطريقة الصوفية الخاصة بدولة الخلافة في شتى أنحاء العالم الإسلامي. وفلسفة المولوية تعتمد على أن الإنسان يحمل صفات الكون كلها وجميع عناصره من الماء والهواء والتراب والنار والماء متمثلين في قول الإمام علي بن أبي طالب:

دَاوُوكَ فَيْكَ وَمَا تُبْصِرُ

وَدَاوُوكَ مِنْكَ وَمَا تَشْعُرُ

أَتَزْعَمُ أَنَّكَ جُرْمٌ صَغِيرٌ

وَفَيْكَ إِنِّطَوَى الْعَالَمِ الْأَكْبَرُ

والولي الكامل في نظرهم هو مَنْ تجتمع فيه تلك العناصر، بالإضافة إلى النفحة الإلهية التي تتجلى بالابتعاد عن مادة الجسد، ويمثلون ذلك بإلقاء العباءة السوداء على المسرح

والدوران برداء أبيض مثل (تنورة واسعة بيضاء) في إشارة إلى ترك الشهوات؛ رغبةً في الوصول إلى قمة الوجد.

\*\*\*

تُوفِّي الرومي في ١٧ ديسمبر ٦٧٢ هـ عن ٧٠ عامًا، ودُفِن بجانب أبيه في التكية التي بناها علاء الدين السلجوقي في مدينة قونية، ولا يزال ضريحه مزارًا لمريديه، ويقرأ الزائر أبياتًا من الشعر وضعها على ضريحه:

يا مَنْ بحث عن مرقدنا بعد شد الرحال

قبرنا يا هذا في صدور العارفين من الرجال

وقد تحوّل ضريحه بعد عام ١٩٢٦ م إلى متحف ومزار يقصده عشرات الآلاف من أرجاء العالم، وأطلق عليه (القبة الخضراء) التي يُوجد أسفلها مخطوطاته ومؤلفاته والأدوات الموسيقية التي كان يستخدمها كونه شيخًا للطريقة الصوفية المولوية المثنوية.

# الفصل السادس والعشرون

## طرق صوفية مجهولة

1. الدمرداشية

قصر ومسجد ومستشفى وطريقة صوفية

أقيمت على بستان منحه السلطان قايتباي لمؤسس العائلة اعتقادًا في كراماته.

شيخها السابق حصل على الدكتوراه من كامبريدج.

ونقباؤها أساتذة طب وهندسة.

قصر عتيق في العباسية، ومئذنة مسجد أثري أخفتها عن الأنظار مبانٍ سكنية متكدسة. القصر والمسجد المتلاصقان كانا منذ ٥٠٠ عام مجرد زاوية للشيخ الدمرداش شيدها على أرض البستان التي منحها له السلطان قايتباي الشغوف بالصوفية والأولياء في عصره. ما زالت رائحة ثمار الليمون والالارنج في حديقة القصر تنطق بمدى خصوبة الأرض أو ما تبقى منها، وعلى امتدادها وعلى جزء كبير اقتطع منها، قصة مبنى هائل هو مستشفى الدمرداش، يروي في صمت كيف كانت الأوقاف ينابيع للخير.

قصر ومسجد ومستشفى، تُخلد لسيرة عائلة عريقة من عائلات مصر المحروسة، ولنهج ومنهج وطريقة صوفية متفردة مصرية الجذور والنشأة، مشيختها عائلية يتوارثها أبناؤها الذين جاء معظمهم من العلماء. لكنها طريقة أوشكت على الاندثار بعد أن تم إغلاق المسجد بعد أزمة كورونا وتم وقف احتفالات الطريقة الأسبوعية.

تُنسب الطريقة الدمرداشية إلى أبي عبد الله محمد الدمرداش الذي وُلد في تبريز بإيران سنة ١٤٥٣ م، وعكف على دراسة الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وتردد على المسجد الرسمي في تبريز المعروف باسم (المسجد الأزرق) الذي شيده تيمور لِنك منتصف القرن التاسع الهجري، حيث يُدرّس المذهب الشيعي، وخصوصًا مذهب الإمامية الاثني عشرية، ودرس مبادئ التصوف على طريقة محيي الدين بن عربي. جاء إلى مصر في عهد السلطان قايتباي، ودخل في خدمته وقرّبه السلطان منه، وهو الذي أطلق عليه اسم الدمرداش، وهي بالفارسية (ديمر طاش)، ومعناها: (أنت الصخر أو الحديد في تحمُّك). وهناك واقعتان تُرويان حول سبب التسمية؛ الأولى: أن قايتباي خرج في ليلة عاصفة بردها قارص؛ ليتأكد من الوشاية التي تزعم أن أبا عبد الله يترك مكان حراسته، فإذا بالسلطان يجده يتعبد في الخلاء بعيدًا عن أعين الناس. والثانية: أنه عندما تسرب إلى السلطان قايتباي أن عددًا من اليهود يحفرون سردابًا لسرقة جثمان النبي ﷺ اصطحب السلطان أخلص رجاله، وهناك طلب أن ينزل أحدهم إلى القبر؛ ليتأكد من وجود الجثمان الشريف، شريطة أن يخبر السلطان بما جرى ثم يقطع لسانه؛ فخشي الجميع على أنفسهم إلا شيخنا الذي قرر أن ينزل ثم صعد مذهولًا لا ينطق إلا بكلمة (هو) بضم الهاء وتسكين الواو. فقال له السلطان حينئذ (دير طامش) بمعنى (أصرت كالحجر؟)، والتي حُرِّفت إلى دمرداش فيما بعد. ويُقال إن الشيخ عندما أفاق من زهوله صرح بأنه عند نزوله القبر النبوي امتدت إليه القبضة الشريفة؛ فلم يستطع أن ينطق إلا بكلمة (هو)، والتي ما زال أتباع الشيخ يرددونها في حفلات الذكر اقتداء بشيخهم.

في كل الأحوال فإن قايتباي هو مَنْ منح شيخنا لقبه ودعاه للحج وزيارة المدينة المنورة معه ٨٨٤ هـ، ويقول ابن إياس عن حوادث سنة ٨٨٦ هـ، إن صاعقة نزلت على المسجد النبوي؛ فلم يتبقَّ منه سوى القبة الشريفة، فأرسل السلطان مَنْ يقوم بإصلاحها، وعلى رأسهم أبو عبد الله الذي اجتهد في تجديد الحرم النبوي، حتى

أطلق عليه الناس لقب (المحمدي)، وبعد عودته عيّنه السلطان إمامًا وخطيبًا لقبة الأمير يشبك بن مهدي بالمطرية (جامع القبة بسراي القبة حاليًا).

أنعم قايتباي على شيخه المقرب بقطعة أرض في قرية الخندق التي عُرفت بعد ذلك بـ(قرية الدمرداش)؛ حيث بنى الشيخ زاويته. ويذكر علي باشا مبارك في (الخطط التوفيقية) أن الشيخ الدمرداش المحمدي وهب الحقل المجاور لزاويته للفقراء، وعاش في خص مع زوجته، ولم يذُق طوال حياته من ثمار الحقل؛ لأنه أوقفه على الفقراء والمساكين. ومن مؤلفات الشيخ الدمرداش: (القول الفريد في التوحيد، وتحفة الطلاب في حضرة الوهاب، وجمع الأسرار وكشف الأستار)، والكتاب الأخير موجود في مكتبة أزمير بتركيا.

عبد الرحيم باشا الدمرداش

تُوفِّي الشيخ الدمرداش ١٥٢٤ م بعد أن أرسى مبادئ الطريقة الدمرداشية التي تولى مشيختها أبناؤه وأحفاده، وصولاً إلى عبد الرحيم باشا الدمرداش، وهو علامة فارقة في تاريخ الأسرة، وقد وُلِد في زاوية جده بالعباسية، والتحق بالأزهر الشريف، وأخذ التصوف عن والده، وصاحَب العلماء وجالسهم، ومنهم: الإمام محمد عبده، والشيخ مصطفى المراغي. وقد تولى مشيخة السادة الدمرداشية عام ١٨٧٧ م وعمره ٢٤ عامًا، وجدد زاوية جده وجعلها مسجدًا كبيرًا.

في ٥ من فبراير ١٩٣٠ م تُوفِّي الشيخ عبد الرحيم الدمرداش، وجُهِزت له جنازة مهيبة وصل فيها عدد المشيعين إلى ١٥ ألف نسمة. وكما ذكرت اللطائف المصورة الجنازة: «وقد سارت رفات الفقيد محمولاً على الأعناق يحف به رجال البوليس وأرباب الطرق الدينية، يحملون أعلام طرقهم، وقد حضر الجنازة محمد محمود باشا، وأحمد لطفي السيد، وأحمد خشبة باشا، وصفية هانم زغلول، ومندوب النحاس باشا، ومجموعة من الوزراء».

لكن شهرة عبد الرحيم باشا الدمرداش لم يصنعها كونه أحد أشهر رجال المال والسياسة والأعيان في ذلك الوقت، بل صنعتها هبته العظيمة.. الأرض التي تبرع بها وبتكلفة بناء مستشفى عليها، ليظل باسمه إلى يومنا هذا، ألا وهو مستشفى الدمرداش.

ووصفت مجلة المصور في عددها الصادر ٣٠ من نوفمبر ١٩٢٨ م حالة البكاء التي انتابت الباشا، حتى قال لو يعلم أن الإحسان يولد مثل هذه اللذة العظيمة لأحسن منذ وقت طويل، وكان يطوف على الحاضرين ويقول: «أنا مبسوط أنا مبسوط». وكان يضحك ويبكي، حتى إنه انحنى على يد شيخ الأزهر يلثمها.

وقد تم افتتاح مستشفى الدمرداش عام ١٩٣١ م بعد حوالي سنتين من وفاة الباشا.

#### منهج الطريقة

الدمرداشية كونها طريقة صوفية لا تتحدث عن كرامات أو معجزات، وليس لها رقصات واحتفالات في الموالد، فهي بعيدة عن كل البدع منذ نشأتها وحتى الآن، وهو ما ذكره رشيد رضا في مقال كتبه على صفحات مجلة المنار، بعنوان: (وميض لمع في ظلمات بدع)، قائلاً: «إن الشيخ عبد الرحيم الدمرداش سبق جميع الذين كانوا يقيمون الموالد المعروفة إلى منع الفسق والفجور من احتفالاتها؛ بمنعه ذلك من مولد الدمرداش الكبير المشهور بلقب (المحمدي)، وعسى أن يكون قدوة لـ (أهل الطريق) في تطهير الطريق من كل البدع».

الطريقة -كما حدثني عنها حسن البططي أحد النقباء الاثنى عشر للطريقة- مصرية صرفة، ليس لها بيرق ولا علم، ولا تعترف بشعوذة أو دق طبول، كل أورادها مستقاة من الكتاب والسنة، ومريدو الطريقة ومشايخها ونقباؤها من النخبة، فمن النقباء د. هيثم الدمرداش أستاذ الهندسة بجامعة عين شمس، ود. حسن المصري رئيس الإدارة الطبية بالأهرام سابقاً.

الطريقة لها تقاليد موروثة، منها: عدم إقامة فروع لها في الأقاليم، وفي مولد الشيخ الدمرداش، والذي يأتي في النصف الثاني من شعبان، يقوم المریدون بالصيام والاعتكاف داخل خلوات مسجد الدمرداش، حيث يقضي الصائمون فيها ثلاثة أيام صائمين لا يفطرون إلا على أرز بزيت سيرج، وهو أنقى أنواع الزيوت، إلى جانب عصير الليمون.

والحضرة الأسبوعية للطريقة، كانت تُقام -قبل إغلاق المسجد بعد جائحة كورونا- يوم الخميس؛ لإحياء القلوب، حيث تتم فيها قراءة أول سورة البقرة ونهايتها، وسور الملك والفاتحة والمعوذتين، وتُرَدَّد أسماء الله الحسنى، ثم الدعاء لمشايخ الطريقة وأموات المسلمين.

## 2. العناية

وليُّ الأطفال.. سيدي عنان

منذ خمسين عامًا مضت كان المارة في ميدان باب الحديد الشهير بميدان رمسيس قد اعتادوا مشهد ملابس الأطفال المعلقة في شباك قبة الشيخ سيدي العناني الذي نصَّبه الوجدان الشعبي (وليًّا للأطفال).

كانت الأم التي يعاني ولدها من مرض ما، تتجه إلى سيدي الشيخ محمد بن عنان المعروف بـ(أبو الصفا)؛ أملًا وتضرعًا في الشفاء.. كان هذا ما ابتكره العقل الشعبي لكن للحقيقة وجه آخر تروييه لنا كتب التراث عن هذا الشيخ الذي يُوجد ضريحه بمسجد الفتح الشهير أو مسجد أولاد عنان، والذي تُنسب إليه الطريقة العنانية.

ولنبداً الحكاية من البداية..

كان مكان مسجد الفتح الموجود بميدان رمسيس منذ قرون مضت، وقبل دخول العرب مصر، قرية معروفة باسم (أم دنين) تطل على ميناء نهري، وكانت أم دنين

مركز أول موقعة جرت في مصر بين المسلمين والروم.

وتبدل اسم المنطقة من (أم دنين) إلى (المقس)، وما زال هناك بالمنطقة شارع يحمل هذا الاسم؛ نسبةً إلى صاحب «المكس» الذي كان يجلس بالقرب من الميناء النهري ليقوم بتحصيل الجمارك على الواردات. في حين يقول المقريري إن أصل الاسم (المقسم)؛ لأن قسمة الغنائم عند الفتوح كانت تتم في هذا المكان.

وفي القرية أنشأ المعز لدين الله الخليفة الفاطمي دار الصناعة؛ لتصنيع المراكب البحرية.

وعندما تولى الحاكم بأمر الله أنشأ جامعًا في منطقة المقس عرفه الناس تارةً بجامع (باب البحر) وتارةً بـ(جامع المقس)، وهو الذي يُوجد مكانه الآن مسجد الفتح. وقيل إن هذا الجامع شُيّد مكان كنيسة. وفي العهد الفاطمي كان لهذا الجامع نخل كثير وبجواره من الناحية البحرية منظر (استراحة) الخلفاء الفاطميين، والتي كانت مُعدّة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول.

هذه (المنظرة) تم تخريبها في عهد صلاح الدين الأيوبي، وأقام مكانها وزيره بهاء الدين قراقوش، برجًا عاليًا عُرف فيما بعد بقلعة المكس (المقس)، وفي هذا العهد أهمل جامع المقس مثله مثل سائر المنشآت الفاطمية.

وزاد وضع المسجد سوءًا حين تهدم جزء منه؛ بسبب فيضان النيل في عام ١١٦٢ م، وظل على حالته حتى عام ١٣٦٨ م، عندما أمر الوزير شمس الدين عبد الله المقسي، بتجديد الجامع وهدم قلعة قراقوش. وجعل على الجامع أوقافًا لمدرس وخطيب ومؤذنين. ويذكر السخاوي أن الوزير شمس الذي قام بتجديد الجامع كان نصرانيًا.

سيدي أبو الصفا

ظل جامع المقس محتفطًا باسمه حتى ساق القدر الشيخ محمد بن عنان الشهير بأبي الصفا إلى المحروسة. قصد الشيخ في بادئ الأمر جامع عمرو بن العاص بالفسطاط؛ ليدرس علوم الشريعة على مذهب أهل السنة. وبعد سنوات قرر الذهاب إلى تلك الزاوية النائية (المقس)، وسرعان ما جذب طلاب العلم إلى حلقات درسه.

وقد ذكر الشعراي شيخنا ابن عنان في الطبقات، وقال: «إن محمد بن عنان من الزهاد العباد، وما كنت أمثله إلا بطاووس اليماني أو سفيان الثوري، وكان مشايخ العصر إذا حضروا عنده كالأطفال في حجر مربيهم، وكان يُضرب بهم المثل في قيام الليل، وكانت له كرامات عظيمة، وكنا -ونحن شباب- في ليالي الشتاء ننام ونقوم فنجده يصلي، وكان يحب الإقامة في أسطحة كل جامع أقام فيه عمل له فوق سطحه خصًا أو خيمة، وأقام في بدء أمره ثلاث سنين في سطح جامع عمرو، ولا ينزل إلا لصلاة الجماعة، أو لحضور درس الشيخ يحيى المناوي.

وكان مدة إقامته في مصر لا يصلي الجمعة مرتين في مكان واحد، بل تارةً في جامع عمرو، وتارةً في جامع محمود، وتارةً في جامع القراء بالقرافة، وحضرته صلاة الجمعة مرةً بالقرب من الجامع الأزهر، فقال: هذا مجمع الناس وأنا أستحيي من دخولي فيه. وكان h يزور الفقراء الصادقين أحياءً وأمواتًا لا يترك زيارتهم إلا من مرض، وكنت أنظره لم يزل يدير السبحة وهو يقرأ القرآن».

مسجد أولاد عنان (مسجد الفتح)

التقيت ببعض أحفاد العنانية، وهما: عبد الهادي عنان وعبد الوهاب عنان؛ حيث تعرفت منهما تاريخ الأسرة التي ينتهي نسبها إلى الفاروق عمر بن الخطاب h، وقد دفعت مطاردة بني أمية لأفراد الأسرة إلى الهجرة إلى أفريقيا، ومنهم من رحل إلى القدس أو سافر إلى المغرب. بينما وفد إلى مصر سيدي محمد أبو الصفا، ومن ذريته علي بن عنان، وهو خال السيد البدوي، وما زالت الكثير من القرى المصرية تحمل

اسم العنانية في عدد من المحافظات، منها المنصورة؛ حيث كفر العنانية، وفيها ضريح الشيخ عبد القادر بن أحمد شمس الدين عنان.

كان من أشهر مريدي الشيخ عنان أبو الصفا طومان باي، آخر حكام المماليك، والذي يروي أنه كشف عن رجل ابن عنان قبل دفنه ومرغ وجهه بها، وتذكر الروايات أن الشيخ محمد بن عنان بلغ من العمر ١٢٠ عامًا حتى تُوفِّي في عام ١٥١٦ م.

ودُفِن في ضريحه الموجود حاليًا خلف المسجد، أما أخوه الشيخ عبد القادر بن عنان، فحسب ما ورد في الخطط التوفيقية؛ فإنه قد دُفِن في برهمتوش، وقبره بها ظاهر يُزار، وكان يتلو القرآن أثناء الليل وأطراف النهار، وهو يحصد أو يحرت أو يمشي.

أما مسجد المقس والذي صار يُعرَف بمسجد سيدي عنان، فيذكر المقرئ أن القضاة بمصر كانوا يطوفون على مساجد القاهرة قبل شهر رمضان بثلاثة أيام؛ لحصر ما تحتاج إليه من قناديل أو إصلاحات، وكانوا يبدءون بجامع المقس، ثم بجوامع القاهرة، ثم الأضرحة والمشاهد، ثم بالقرافة، ثم بجامع عمرو، فقد تهدمت أجزاء كبيرة منه أيام الحملة الفرنسية، خلال ثورتَي القاهرة الأولى والثانية، إلى أن جدده مريدو الشيخ عنان مرة أخرى.

بعد إطماء النيل واتجاهه ناحية الغرب، أصبح الجامع يقع على الخليج الناصري؛ كما ذكر علي مبارك في خطته، وكان هذا في أواخر عهد الخديو إسماعيل عام ١٨٦٩ م.

كان يوجد بجوار المسجد في عهد الخديو إسماعيل، مساحة كبيرة خالية، ولما أنشأ نوبار باشا به منزلًا، عُرفت المسافة من شارع رمسيس حتى شارع وش البركة (نجيب الريحاني الآن) بشارع نوبار باشا، وهو جزء من شارع الجمهورية الآن.

وفي أواخر السبعينيات، تم فك جدران جامع أولاد عنان وترقيمها ليُبنى به مسجد السيدة عائشة، وُبنِي مسجد جديد مكانه عُرف بـ(مسجد الفتح) تم افتتاحه عام

١٩٩٠ م. ولما تأسست رابطة أولاد عنان نجحت في استصدار قرار من رئاسة الوزراء بتغيير اسمه من الفتح إلى مسجد الفتح وأولاد عنان، في ٤ من مايو ١٩٨٩ م.

## رابطة أولاد عنان

في أوائل الأربعينيات نشرت الصحف نداءً يوجهه طيار عبد الرحمن عنان إلى أبناء أسرة عنان لإعلان كيان يضم أفراد الأسرة، فلم يكن هناك آنذاك سوى السجادة العنانية العمرية كونها رمزاً لانتماء الأسرة إلى الأشراف؛ كشأن السادة البكرية والوفائية التي كان يصدر لكلٍ منها مرسوم خاص، فلم تكن تندرج تحت تنظيم الطرق الصوفية التي صدر مرسوم خديوي بلائحتها عام ١٩٠٢ م، وظل ذلك إلى أن جاء الرئيس السادات وضم السجادات الثلاث إلى مشيخة الطرق الصوفية ١٩٧٨ م.

وقد تم إشهار رابطة أولاد عنان عام ١٩٩٨ م، التي عملت على لم شمل الأسرة العنانية في مختلف المناسبات الأسرية الاجتماعية والاحتفالات الدينية؛ كإحداث نوع من الترابط الأسري على نطاق واسع.

من أشهر أفراد الأسرة العنانية: حسين محمد عنان رئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون سابقاً، والفريق عبد الرحمن شحاتة عنان، والمؤرخ المعروف عبد الوهاب عنان، والمستشار عناني عبد العزيز عنان الرئيس الأسبق بالنيابة الإدارية، والكاتبة سلوى العناني، والفريق سامي عنان الرئيس الأسبق لأركان حرب القوات المسلحة.

# ملاحق الكتاب

هذا نص حوار نشرته المؤلفة على صفحات الأهرام بتاريخ ٢٤ من أبريل ٢٠٢٠ م، وحصل على شهادة تقدير من نقابة الصحفيين ٢٠٢٠:

**المستشرق الإيطالي جوزيبي سكاتوليني:**

**التصوف هو المنقذ من شرور العولمة**

المستشرقون درسوا التصوف بمنهجية علمية أكثر من الباحثين العرب والمسلمين. التصوف ظهر كحركة تمرد ضد بني أمية، وعاش فترة جمود بظهور الطرق الصوفية. التصوف جزء أصيل في الإسلام مصدره القرآن والسنة.

«أنا إنسان، فلا شيء مما يخص الإنسان أعتبره غريباً عني». هذا ما قاله الكاتب الروماني ترينسيوس أفير في القرن الثاني ق. م، وتلك هي المقولة التي تركت أثرها في نفس ذلك الراهب الإيطالي جوزيبي سكاتوليني، الذي قاده إيمانه بأن الجانب الروحي في الإنسان هو الأهم، إلى دراسة التصوف الإسلامي كونه حركة فكرية تعلي القيم الروحية، ووجد في سلطان العاشقين عمر بن الفارض ضالته؛ حيث المحبة هي المحور ونقطة الارتكاز لشعره الصوفي، وبعد دراسات استمرت أكثر من أربعين عاماً، استقر في يقين الراهب الإيطالي أن التصوف الإسلامي مع كل الحركات الروحانية في مختلف الأديان، هي المنقذ من شرور العولمة المادية، وأن التمسك بالروحانيات وحده هو ما سيبنى قرية إنسانية عالمية على أساس من التلاقي لا التنافر والرفض.

\*\*\*

الأب جوزيبي سكاتوليني إيطالي الجنسية، وهو أستاذ الإسلاميات والتصوف في معهد دار كومبوني بالقاهرة، وفي المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية في روما. من أهم كتبه: (التجليات الروحية في الإسلام) مع الدكتور أحمد حسن أنور، والذي يستعرض فيه أهم الشخصيات والتيارات الصوفية، خلال الحقبة الكلاسيكية للتصوف الإسلامي من القرن الأول وحتى القرن السابع الهجري، وله كتاب آخر هو: (تأملات في التصوف والحوار الديني) الذي تحدث فيه عن الحياة الدينية الروحية التي تُمثّل البعد الأسمى والأعمق في كل الديانات. أما مجمل أفكاره فيمكننا تعرّفها من خلال الحوار التالي:

- **دعنا نتحدث في بادئ الأمر عن اهتمام حركة الاستشراق بدراسة التصوف كونه حركة فكرية في الإسلام، فبعضهم رأى أن التصوف مأخوذ من ديانات أخرى ومذاهب فكرية مختلفة، فهل كانت تلك نظرة موضوعية؟**

التصوف هو جزء لا يتجزأ من الإسلام، فأكبر مفكر في الإسلام، وهو أبو حامد الغزالي كان عالماً بالعلوم الدينية، وله إنتاج مهم جداً فيها حتى لُقّب بـ(حجة الإسلام)، وكان في الوقت نفسه صوفيّاً.

وقد كتبت عن تاريخ التصوف وما يحتويه من شخصيات عظيمة، من أمثال: حسن البصري، ورابعة العدوية، فالتصوف في الإسلام أفرز إنتاجاً ثقافياً علمياً عظيماً في الأدب والشعر؛ كما عند جلال الدين الرومي، وعمر بن الفارض.

عبر التاريخ كانت هناك صدامات بين المتصوفة والفقهاء، وهي مشكلة قديمة بين العلماء المتمسكين بحرفية النص، والمتصوفة الذين يقرءون النص الديني قراءة روحية عميقة؛ لذلك نقول إن الإسلام يجد أن التصوف جزء لا يتجزأ منه.

- **هناك مستشرقون رأوا أن المصدر الأول والأصلي للتصوف موجود في الإسلام، ومن أهم منابعه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن هؤلاء: المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون، ونيكلسون، وأن ماري شميل، وغيرهم، فما رأيك؟**

هناك مبدأ مقبول الآن عند الأغلبية العظمى من المستشرقين، وهو أن النص القرآني يتقبل تفسيرات عديدة، فهناك آلاف من التفاسير، وهناك فهم سطحي، وآخر عميق؛ كما عند المتصوفة الذين استقوا أفكارهم من القرآن، وبالطبع لم يكونوا كتلة واحدة؛ فهناك تيارات عديدة في مدرسة التصوف نفسه، فلا يمكن التعميم.

وقد أثبتت الدراسات العميقة للمستشرق لويس ماسينيون، أن التصوف مصدره الأول هو القرآن، فهو فهم رؤية وتفسير لحقائق الإيمان في الإسلام وقاموس التصوف هو قاموس قرآني. أيضًا الأحاديث النبوية مصدر مهم للحياة الروحانية في الإسلام، فهناك حديث نبوي يقول إن العبد يتقرب من الله بالفرائض والنوافل حتى يحبه الله، فهناك تبادل في الحب بين العبد والرب، وهي وحدة عميقة.

## • هل هناك روافد للتصوف في الديانتين اليهودية والمسيحية، وهل هناك نقاط تماس بين التصوف والرهبنة؟

المجهد في فهم النص الديني على مستوى الروح كما عند المتصوفة كما يقول الغزالي في (إحياء علوم الدين) يتجسد في بُعد روحي وبُعد حرفي سطحي.. وهذا أمر مشترك في كل الديانات، ففي المسيحية هناك قراءة حرفية للإنجيل، وهناك روحانيون قرءوا النص الإنجيلي بعمق روحي عظيم. إذن فالبعد الروحاني موجود في كل الديانات، فكل دين يحاول الوصول لله، في كل دين: البوذية، واليهودية، وغيرها، هناك قراءة روحية عميقة وقراءة حرفية سطحية.

التصوف هو البعد الروحي في الدين الإسلامي، وهو موجود في المسيحية، أو البوذية، وغيرها من الديانات.

ونحن نحتاج إلى أن نتعارف أكثر، خصوصًا من خلال تلك الأبعاد الروحانية، وهناك ما يمكن أن نعتبره مشتركات بين الرهبنة والتصوف في إعلاء القيم الروحانية، وفي بعض الممارسات الدينية، وربما في ارتداء المتصوفة والرهبان للصوف؛ بوصفه أرخص الخامات للزهاد.

- بدأ التصوف كثورة دينية على حكم بني أمية، لكنه انتهى بظهور (حملة المباخر).. ما سر ذلك؟ وهل يمكننا القول إن تطوّر الفكر الصوفي توقف بظهور الطرق الصوفية؟

ظهرت حركة التصوف في القرن الأول الهجري؛ كونها رد فعل على ممارسات بني أمية، الذين امتلأ بلاط حكمهم بألوان الفساد؛ فظهر مجموعة من الزهاد أرادوا العودة إلى النقاء الذي ساد الحياة الإسلامية الأولى؛ فترك هؤلاء الحياة الاقتصادية والسياسية ولجأوا إلى حياة التقوى والورع، فظهر الحسن البصري ورابعة العدوية.. وقد جمعت في كتابي (التجليات الروحية في الإسلام) الكثير من تلك النصوص الأولى في التصوف، لكن التصوف شيئًا فشيئًا شيد بناءً عظيمًا من الحياة الروحية بالتعمق في قراءة النص الديني؛ فوصلوا إلى خبرات وتجارب روحية متعمقة، وعلى هذا الأساس أنتجوا إنتاجًا شعريًا وفنيًا عظيمًا، من أمثال: ابن عربي، وهو مفكر على مستوى عالمي، وكذلك جلال الدين الرومي الذي يُعد من أكابر الشعراء في تاريخ البشر.

تاريخيًا التصوف تجمد كما حدث في سائر المظاهر البشرية، وهناك حديث يقول إن الله سيرسل مجددين للأمة، فنحن بشر وفي كل المجتمعات هناك فساد وظلم، فعلى المتصوفين أن يكونوا كالضمير اليقظ ضد الفساد، وذلك مطلوب وجوده في كل الأديان.

وفي بعض الأحيان لم يتصرف المتصوفة وفق المعايير الروحية، ففي القرنين السادس والسابع الميلاديين تشكلت الطرق الصوفية كونها جماعات تعيش مع بعضها البعض تحت راية شيخ مرشد، إلا أن المتصوفة قد يصيبون وقد يخطئون، خصوصًا الطرق الصوفية لما كبرت وانتشرت، وجمعت الكثير من المال، وحازت قوة سياسية واسعة، وأصبحت مؤسسات قوية داخل المجتمع الإسلامي، واقتحم رجالها عالم السياسة خصوصًا في عصري المماليك والعثمانيين، فشاركت الطرق الصوفية في حروب عديدة لصالح بعض السلاطين. كما أصبحت عناصر استبداد داخل المجتمع،

وشاركت في تجارة الرق، ومن هذه الطرق: التيجانية، والقادرية، وغيرهما في أفريقيا. فالتصوف في شكل الطرق الصوفية يحتاج إلى تجديد مستمر، وإلا سقط من المستوى الروحي إلى المستوى المادي، وهذا الخطر الكبير، خصوصًا عندما يتخذ المتصوف موقفًا سياسيًا.

لكني لا أظن أن الطرق الصوفية يشوبها جميعًا خطر الفساد، فالفقهاء أنفسهم كانوا في أحيان كثيرة فقهاء لصالح مواقف سياسية واجتماعية فاسدة، الواقع أن الإنسان ليس معصومًا من الخطأ.

في القرون الأخيرة نلاحظ أن الحركة الصوفية تجمدت في نظام طريقي مغلق بتريديد ما قيل في الماضي دون أي تقدّم. الإسلام الآن شأنه شأن كل الأديان يواجه عالمًا جديدًا، هو عالم الحداثة، فلا مفر منه.

في المسيحية كان هناك صدام بين المواقف الدينية التقليدية والعلمية الحديثة. لا ينبغي أن نرفض الحداثة في حد ذاتها، بل نرفض الشر الذي فيها. الإنسان المعاصر أصبح يعيش تحت ضغط اجتماعي، وتحول إلى آلة في يد أصحاب المصالح الاقتصادية الكبرى، فالبنك الدولي يفرض بعض الشروط لتمويل المشروعات في البلدان، وهذه الشروط تفرض على الدول نظامًا اقتصادية ظالمة، وأتمنى أن ترفض الحركات في كل الأديان هذا الاستبداد من العولمة التسويقية التي نعيشها.

#### • ما السبب وراء شغفك بعمر بن الفارض سلطان العاشقين من بين كل المتصوفة؟

ابن الفارض أو سلطان العاشقين، وضع المحبة في مركز الحياة الروحية، فوجدت أن عليّ دراسة شعره الصوفي؛ لكي أنفتح على عالم آخر مختلف عن عالمي القديم، ولأن هذه النوعية من الدراسات مهمة للحوار بين الأديان واللقاء بين الحضارات ليحل محل ذلك الجو المشحون بالعنف والصدمات في الماضي، وعلينا أن نفتح على الآخر المختلف، وهذا سيفيد الكل، أنا كوني مسيحيًا استفدت كثيرًا من انفتاحي على العالم الإسلامي، وكذلك المسلم سيكون أفضل إذا ما انفتح على

الحضارات الأخرى. الحوار بين الأديان ضرورة إنسانية، نحن نعيش منذ أكثر من ٣٠ سنة في ظل نظام العولمة، الآن ليس هناك حدود بين الشعوب والحضارات، نحن نُكوّن قرية إنسانية عالمية، ومن المفترض إزالة كل الحدود لتتقابل معًا بالقيم الروحية في كل الأديان والتيارات الفكرية.

لقد درست ديوان ابن الفارض في أثناء إعدادي لأطروحة الدكتوراه، فحللت معاني الألفاظ في السياق النصي، ودرست التائية الكبرى، والتي هي ثلث الديوان، وعبرَ فيها ابن الفارض عن أبعاد وعمق معاناته الصوفية.

أما تحقيق ديوان ابن الفارض فيرتبط بمخطوطة لديوانه وجدتُها عند زيارتي لمدينة قونية في تركيا، وهناك وجدت في مكتبة (يوسف أغا) مخطوطة قديمة لديوان ابن الفارض لم يتم الإشارة إليها من قبل، وليست ضمن الكتالوج التركي الخاص بالمخطوطات، وقد دُوّنت هذه المخطوطة عام ٦٤٠ هـ، علمًا بأن ابن الفارض تُوفّي عام ٦٣٢ هـ، إذن فهي أقرب المخطوطات إلى الشاعر المصري.

### • الاهتمام بدراسة التصوف في الغرب أكثر مما هو لدى الباحثين العرب والمسلمين.. لماذا؟

لما درست عمر بن الفارض وبحثت في كتب الشرق التي خطها الباحثون المسلمون العرب، وجدت فيها شروحات لديوان ابن الفارض؛ لذلك لما قمت بدراسته استعنت بمنهج جديد هو المنهج الدلالي، وتوصلت إلى نتائج أخرى.

المستشرقون درسوا الحضارة الإسلامية بأسلوب علمي، فالمنهج العلمي في دراسة التصوف في الغرب أكثر منه في الشرق، لكن هذا لا يمنع ضرورة وجود علماء عرب مسلمين يدرسون الشعراء المتصوفة بأسلوب علمي، وهذا أمر ضروري لا مفر منه.

### • في الربع قرن الأخير اهتم الغرب بالتصوف الإسلامي، وبرز اسم جلال الدين الرومي بقوة.. ما تفسيرك لذلك؟

الغرب كان مصدرًا لتحديث الحضارة البشرية، إلا أنه في مرات كثيرة جدًا فقد البعد الروحي؛ لذلك نرى في المسيحية والإسلام أن الحركات الروحية نشطت لكي تعطي الإنسان الحديث المتعلم البعد الروحي؛ لأن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده.

إن إهمال البعد الروحي في الحضارة الحديثة هي المفسدة الكبرى.. لقد شئت باسم تلك الحضارة المادية حربان عالميتان لم يحدث مثلهما في التاريخ البشري، حربان أفرزتا ملايين الضحايا.. هذه هي الحضارة التي نعتز بها، لكنها دون مقومات روحية تصبح خطيرة، العلم الحديث لا يفيد دون الحكمة القديمة التي أفرزت القيم الإنسانية عبر تاريخ البشر كله. وقد توصلت إلى أن هناك ٥ صفات إلهية نجدها في كل الأديان والحركات الروحية، هي: الرحمة، والمحبة، والحق، والعدل، والسلام.. هذه المبادئ فوق كل شيء، الإنسان ليس إنسانًا إذا فقد هذه الصفات الخمس، المؤمن لا يمكن تصوُّره دون هذه المبادئ، ولذا فإن الحروب الحديثة كانت حروبًا وحشية بمعنى الكلمة.

كل الحركات الدينية الصوفية عليها من جديد نشر الصفات الإلهية الموجودة في الديانات السماوية، وفي الأقوال الحكيمة للبوذيين والهندوسيين.

علينا جميعًا إذن مسؤولية كبيرة، أن نحيي تلك القيم وننشرها؛ فالإنسان دونها ينزل إلى مرتبة أقل من مرتبة الحيوانات.

يمكن القول إن الغرب وجد في جلال الدين الرومي ضالته، خصوصًا وأن الرومي عبّر عن القيم الروحية بطريقة فنية من خلال الشعر. وإلى جوار الرومي يهتم الغرب كثيرًا بأفكار ابن عربي.

- من هذا المنطلق، هل يمكن اعتبار التصوف جسرًا روحيًا بين الشرق والغرب؟ وهل يمكن أن يكون مساحة للتلاقي بين الأديان؟

- بين كل الأديان والحضارات.. إذا حاز الإنسان هذه الصفات الخمس سيكون الإنسان الكامل، وهي فكرة صوفية. الإنسان إذا صفا قلبه ينعكس عليه نور الله، ويكون ذا صفات عظيمة.. نحن نتطلع إلى تنمية إنسانية جديدة وثورة روحية مستمرة.
- **كيف ترى التصوف في وجدان المصريين.. وهل يمكننا اعتبار الموالد الشعبية التي تقام لآل البيت ضربًا من ضروب التصوف؟**

إن الممارسات الخارجية من الحضرة والموالد وما يسودها من موسيقى وأشعار مفيدة، لكن المهم أن تؤدي تلك الممارسات إلى التجديد الروحي في الإنسان بالصفات الخمس التي قلناها، وإلا ظلت مجرد شعائر ظاهرية لم تلمس الباطن أو تغلفه بقيم المحبة والرحمة.

- **هل تعتقد أنه بعد جائحة كورونا، قد يصبح العالم أكثر إنسانية وأكثر ميلًا للقيم الروحية؟**

إذا أردنا يمكننا أن نتعلم الدرس، فهذا هو فيروس بسيط دمر الكثير من الناس، وأثبت أن الإنسان الذي يعيش فقط على مستوى الإنتاج السوقي المادي ليس له قيمة، فالقيمة الإنسانية الحقيقية ليست في المادة أو التكنولوجيا أو المال؛ لذا لطالما كان الخطر الكبير للحدثة هو إهمال البعد الروحي.

أرجو أن يوقظ (كورونا) العالم من حلم عميق هو البحث عن السوق والسيطرة والسلطة؛ لكي يتوجه الإنسان بوعي يقظ في طلب تلك القيم الروحية الثابتة التي تكلمنا عنها من الرحمة والمحبة والحق والعدل والسلام؛ لإنقاذ البشرية من السقوط في هوة العدمية واللامعنى.

# المراجع

أولاً: الكتب:

- أبو بكر الكلاباذي: التعرف على مذهب أهل التصوف، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٢٠.
- أشرف أيوب: الموالد القبطية، سلسلة كراسات قبطية، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠١٥.
- د. أحمد صبحي منصور: التصوف والحياة الدينية في مصر المملوكية، مركز المحروسة، القاهرة، ٢٠٠٢.
- إدوارد وليم لين: عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم، ترجمة سهير دسوم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩.
- أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٩.
- أنطون فهمي جورج: أمهات قديسات، سلسلة آباء الكنيسة، القاهرة، ١٩٩٤.
- السيد صلاح الديبكي: أولاد الناس في عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠١٦.
- السيد الحراني: مذكرات مصطفى محمود، دار الكتب، القاهرة، ٢٠١٣.
- د. أليس إسكندر بشاي: البناء الاجتماعي للدير بوادي النطرون.. دراسة أنثروبولوجية للرهنة القبطية المعاصرة، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٨.
- باحثون، تحرير د. عليان الجالودي: التحولات الفكرية في العالم الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن، ٢٠١٤.
- بستان الراهنة، آباء الكنيسة القبطية، تحرير ومراجعة: مطرانية بني سويف والبهنسا، بني سويف، ١٩٦٨.

- تقي الدين أبو التقي البدري الدمشقي: راحة الأرواح في الحشيش والراح، تحقيق ودراسة دانييلو مارينو، المركز الثقافي الإيطالي، القاهرة، ٢٠١٥.
- جاستون فييت: القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة د. مصطفى العبادي، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٨.
- جوزيف ويليام ماكفرسون: الموالد في مصر، الهيئة العامة للكتاب، ترجمة وتحقيق: عبد الوهاب بكر، القاهرة، ١٩٩٩.
- د. جودت جبرة، جرتود فان لون، دارلين بروكس: فنون الكنائس المصرية منذ رحلة العائلة المقدسة حتى الآن، الجامعة الأميركية، القاهرة، ٢٠٠٨.
- د. جوزيبي سكاتوليني، أحمد حسن أنور: التجليات الروحية في الإسلام.. نصوص صوفية عبر التاريخ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- د. جوزيبي سكاتوليني: تأملات في التصوف والحوار الديني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣.
- د. جوزيبي سكاتوليني، د. أحمد حسن أنور: الأبعاد الصوفية عند عبد الملك الخرکوشي، دار مصر المحروسة، القاهرة، ٢٠٠٩.
- جونيفيف هوسون ودومينيك فالبييل: الدولة والمؤسسات في مصر من الفراعنة الأوائل إلى الأباطرة الرومان، ترجمة فؤاد الدهان، مراجعة د. زكية طبوزادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥.
- جيمس هنري بريستد: فجر الضمير، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٢٠.
- خالد عاشور: الثائر الأول إخناتون بين الأدب والتاريخ، تقديم: عبد الحليم نور الدين، الهيئة المصرية لكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
- خالد زيادة: العلماء والفرنسييس في تاريخ الجبرتي، رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٨.
- د. القس داود مكرم: الموالد القبطية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٧.
- زين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي، محمد أديب الجادر: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩.

- د. رأفت عبد الحميد: الفكر المصري في العصر المسيحي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٢٠.
- رينولد نيكلسون: في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة: أبو العلا عفيفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٩.
- د. سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٧.
- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة، ٢٠١٩.
- س. هـ. ليدر: أبناء الفراعنة المحدثون، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٨.
- سهير عبد الحميد: إسكندرية من ثاني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٢١.
- عامر النجار: الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨.
- طه عبد الباقي سرور: التصوف الإسلامي والإمام الشعراي، هنداوي، القاهرة، ٢٠٢٠.
- د. فاروق أحمد مصطفى: الموالد ودراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠.
- د. قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، الشروق، القاهرة، ١٩٩٤.
- د. عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٠.
- عبد الحليم محمود: ذو النون المصري، دار الرشاد، القاهرة، ٢٠٠٣.
- د. عبد الحميد ناصف: دير سانت كاترين في العصر العثماني، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩.
- عبد الرحمن الجبرتي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين، تحقيق: حسن جوهر وعمر الدسوقي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٥.
- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، مجلد أول وثانٍ وثالث، دار التقوى، القاهرة، ٢٠١٩.

- عبد الرحمن بدوي: أفلوطين عند العرب، دراسات إسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥.
- عصام ستاتي: مقدمة في الفولكلور القبلي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠.
- عصمت داوستاشي: الرملة البيضاء، دار الياسمين، القاهرة، ٢٠١١.
- عرفة عبده عرفة: موالد مصر المحروسة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥.
- عمار علي حسن: فرسان العشق الإلهي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٤.
- عمر طوسون: وادي النطرون.. رهبانه وأديرته، مطبعة سفر، الإسكندرية، ١٩٣٥.
- علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة، جزء رابع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- لوسي داف جوردون: رسائل من مصر، ترجمة: إبراهيم عبد المجيد، دار الياسمين، القاهرة، ٢٠١٩.
- د. ميلاد حنا: الأعمدة السبعة للشخصية المصرية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٢٠.
- مجموعة مقالات: الفن القبلي في مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨.
- محمد م. الأرنؤوط: الجالية المخفية.. فصول من تاريخ الألبان في مصر، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٨.
- د. نديم السيار: قدماء المصريين أول الموحدين، طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٩٥.
- نيكولاس بيخمان: الموالد والتصوف في مصر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ١٩٩٠.
- نيكولا جيرمان: تاريخ مصر القديمة، ترجمة ماهر جويجاتي، مراجعة د. زكية طبوزادة، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣.
- ياروسلاف تشرني: الديانة المصرية القديمة، ترجمة: د. أحمد قدرى، مراجعة: د. محمود ماهر طه، الشروق، القاهرة، ١٩٩٦.

- الراهب القس يسطس الأورشليمي: الرهنة القبطية وأثرها على العالم، محاضرة في دورة الزمالة للدراسات والفنون القبطية، القاهرة، يناير - مارس ٢٠١٣.
- يوحنا نسيم يوسف: الأيقونات القبطية في التاريخ والأدب والطقوس، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠١٣.
- ألفريد بتلر: البلاط الملكي المصري، دار ليليت، ترجمة وتحقيق: محمد عزب، مي موافي، الإسكندرية، ٢٠١٣.
- مكاوي سعيد: القاهرة وما فيها، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٨.
- د. محمد الششتاوي: متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني، الآفاق العربية، ط أولى، القاهرة ١٩٩٩.

#### ثانياً: الدراسات:

- شريف سلمى وبعداش عيشة: النزعة الصوفية في رواية شطح المدينة لجمال الغيطاني، جامعة بوضياف الجزائرية، الجزائر، ٢٠١٨.
- عبد النعيم خلف فرحان ومحمد ثابت بداري وسحر بطرس نجيب: النزعة الصوفية في الفن المصري القديم وأثرها على فناني التصوير الحديث، مجلة بحوث التربية النوعية، القاهرة، ٢٠١٧.
- د. مجدي جرجس: تقاليد عربية في الكتابات التاريخية عند القبط، مجلة ألف - الجامعة الأميركية، القاهرة، ٢٠٢١.

#### ثالثاً: المقالات:

- العلمانية، الدين السياسي ونقد الفكر الديني، ناريمان مطر، الحوار المتمدن، ٢٠١٩.
- الموالد المصرية، أحمد أبو زيد، مجلة الرسالة، العدد ٦٣٢، ١٣ أغسطس ١٩٤٥.
- الأنبا إرميا الأسقف العام رئيس المركز الثقافي القبطي الأرثوذكسي، المصري اليوم، ٥ من فبراير ٢٠٢٠.
- مجلة المصور، عدد ١٠ من مايو ١٩٤٠.

رابعًا: مقابلات شخصية:

- عادل نصيف فنان الأيقونات.
- الفنان التشكيلي عصمت داوستاشي.
- حسن البططي نقيب الطريقة الدمرداشية.
- د. مصطفى الدمرداش شيخ الطريقة الدمرداشية.
- د. جوزيبي سكاتوليني.
- د. أحمد حسن أنور.
- السفير الهولندي د. نيكولاس بيخمان.
- د. مجدي جرجس.

# عن المؤلفة

## سهير عبد الحميد كاتبة صحفية - الأهرام

- تخرجت في كلية الإعلام - جامعة القاهرة - مايو ١٩٩٦.
- بدأت العمل الصحفي عام ١٩٩٣ في مؤسسات صحفية مختلفة، قبل أن تلتحق بالأهرام عام ١٩٩٧.
- لها موضوعات صحفية في: جريدة الأهرام - نصف الدنيا - الأهرام العربي - مجلة زهرة الخليج - جريدة الاتحاد الإماراتية - جريدة الحياة اللندنية - مجلة فنون مصرية - مجلة شموع - جريدة السياسة الكويتية - مجلة أرييف الأرمنية - جريدة الخليج - موقع رصيف ٢٢.

### المقالات:

لها مقالات منشورة في:

- مجلة الأهرام العربي.
- موقع الأهرام العربي.
- موقع الأهرام الإلكتروني.
- مقال أسبوعي في مجلة نصف الدنيا.

### الخبرات الإذاعية:

- عملت لمدة ٥ سنوات معدة ومذيعة براديو الأهرام أون لاین.

- رئيس تحرير برنامج (من القاهرة) - إذاعة البرنامج العام.

كُتُب ومؤلفات:

- شاركت في تحرير وإعداد كتاب (الأهرام.. وطن في جريدة)، مؤسسة الأهرام، ٢٠١٥.
- قصور مصر، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٢٠.
- إسكندرية من تاني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٢١.

1. [الغلاف](#)
2. [على عتبة المقام](#)
3. [تقديم](#)
4. [مقدمة المؤلف](#)
5. [الفصل الأول](#)
6. [الفصل الثاني](#)
7. [الفصل الثالث](#)
8. [الفصل الرابع](#)
9. [الفصل الخامس](#)
10. [الفصل السادس](#)
11. [الفصل السابع](#)
12. [الفصل الثامن](#)
13. [الفصل التاسع](#)
14. [الفصل العاشر](#)
15. [الفصل الحادي عشر](#)
16. [الفصل الثاني عشر](#)
17. [الفصل الثالث عشر](#)
18. [الفصل الرابع عشر](#)
19. [الفصل الخامس عشر](#)
20. [الفصل السادس عشر](#)
21. [الفصل السابع عشر](#)
22. [الفصل الثامن عشر](#)
23. [الفصل التاسع عشر](#)
24. [الفصل العشرون](#)

25. [الفصل الحادي والعشرون](#)

26. [الفصل الثاني والعشرون](#)

27. [الفصل الثالث والعشرون](#)

28. [الفصل الرابع والعشرون](#)

29. [الفصل الخامس والعشرون](#)

30. [الفصل السادس والعشرون](#)

31. [ملاحق الكتاب](#)

32. [المراجع](#)

33. [عن المؤلفة](#)